

علم نفس إسلامي



دكتور
حسن محمد الشيرقاوي

تقديم

الكاتب الكبير
الدكتور مصطفى محمود

الامام الأكبر
الدكتور عبد الحليم محمود



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الاسكندرية

علم نفس إسلامي

دكتور
حسن محمد الشيرقادي

تقديم

الكاتب الكبير	الامام الأكبر
الدكتور مصطفى محمود	الدكتور عبد الحكيم محمود



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الاسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَعَلَّمْنَا مَا نُسَوِّسُ

بِهِ نَفْسَهُ وَلَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ (ق : ١٦)

تقديم

لفضيلة الإمام الأكبر
دكتور عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر الشريف

لقد مرَّ علم النفس الحديث — ولا يزال — بأطوار كثيرة بحثاً عن قاعدة يستقر عليها لكي يصبح علماً لا وطن له ، شأنه في ذلك شأن بقية العلوم المادية الأخرى ، ومنذ أعلن العلماء عن إستقلال علم النفس عن الميتافيزيقا ، ومن إعنياءه إلى كوكبة العلوم التجريبية التي — وقتئذ — بهذا الإستقلال ، وهو يمر بمراحل يدخل في كل منها مدرسة من المدارس ، ولا يستقر به المقام حتى يتبين أن هذه المدرسة غير كافية للموضوع به كما يجب ، رغم إحصائها الوسائل العلمية المختلفة ، فتتأصل على أثر ذلك مدرسة أخرى تحاول أن تتدارك ما فاتت المدارس السابقة من عناصر أو تفهيمات ، أو أن تظهر ما وقعت فيه من خلل أو انحراف ...

فتمددت معامل علم النفس ، وتكونت فرق البحث المختلفة ، وإنجذبت كل منها لإحصاءات مختلفة من حيث إختيار الموضوعات وطرق بحثها وظهرت مدارس متعددة ، تابعت وتفاوتت في حيزها من الذبوع والإشهار ، فهناك المدرسة القرباطية ومن زعمائها د لوك ، ود هيرسوم ، والمدرسة السلوكية ومن زعمائها د وطن ، ود بافلوف ، والمدارس الغرضية ومن زعمائها د ماك دوجل ، والمدارس التحليل النفسى وعلى رأسها فرويد ، ومدرسة الجذطلت ومن مؤسسيها

« كقول ، وغير ذلك من المدارس ، وكل منها يعتمد إلى وجهة معينة يرضيها
قاعدة لتفسير النفس وتفسير السلوك .

وقد اندمجت معظم هذه المدارس وتلافت في كثير من المباحث ، ولكن الأمر
لا يزال كما هو بالنسبة لعلم النفس حيث لم يحصل بعد إلى المستوى الذي يبشر به
العلماء ، ليكون علما ثابتا مقبولا من الجميع ولا تزال هناك فرصة لكي تنفصل
مدارس أخرى ، وأقربها وأحدثها مدرسة القيم التي تفسر السلوك الإنساني على
ضوء القيم النفسية الإنسانية ...

ولا يعني لنا — هنا أن نقف — مواقف النقد من هذه المدارس مدرسة مدرسة
لتبين بعدها عن سواء السبيل فقد تكفل صاحبه هذا الكتاب ، فهو — لم نفس
إسلامي ، وأشار إلى عناصر أساسية كانت عاملا حاسما في انحرافها وعدم قرصنها
إلى حقائق عالمية شاملة ...

ولكنه بلغت نظرنا هذا الاختلاف الكبير القائم بينها ، وإدعاء كل منها أنها
واثقة فيما توصلت إليه من أسس ونتائج ...

وكل يدعي وصلا بليل وإيل لا تقر لهم بهذا كما

ولا تخالي إذا قلنا أن علم النفس في البلدان الاشتراكية الشرقية يتجه لإتباعها
مخالفا لنظرة في البلاد الرأسمالية الغربية تبعا لاختلاف المذهب المادي السائد
في كل منها .

ألا يدل ذلك على خلل واضطراب وفساد كامن في الأساس الذي اعتمدوا
عليه في قيام هذا العلم .. !!

قد يكون هذا الخلل ناشئا من النظرة المادية الضيقة التي تسيطر على الباحثين
المحدثين من العلماء .

وقد يكون هذا الإضطراب بسبب الخاطئ المشين في نظرهم إلى الإنسان كصنف من أصناف الحيوان يسرى عليه ما يسرى عليها بغير تمييز دقيق صحيح .
وقد يكون هذا الفساد مبنياً على الفصل بين الظواهر والبواطن وإعتادهم على الظواهر وحدها ، مع حصرهم عن سبر البواطن .

وقد يكون غير ذلك من الأسباب ولا بد أن يصل الباحثون إلى معرفتها يوماً .
ولما يجمع ذلك سبب عام مشترك ، هو الجهل المطبق بمصدر الظواهر النفسية التي قام علم النفس الحديث لدراستها ، وليس في الإمكان أن نتوصل إلى معرفة هذا المصدر بوسائلنا العلمية المادية وآلاتنا الحسية التجريبية .

فهل ينبغي لذلك أن نبأس من وجود علم صحيح للنفس ، ما دمتنا عاجزين بوسائلنا البشرية الفاصرة — عن الوصول إلى هذا المدى من الفهم والإدراك ؟
ألا يوجد أساس وثيق يمكن أن نرجع إليه ونعتمد عليه ، في إقامة هذا العلم دون أن يتطرق إليه الخلق والشك والإرتياب . . ١١

بلى أنه هو الإيمان ، الإيمان الديني والقياسي بما أنزل الله من الحق ، ولكن هؤلاء العلماء أغفلوه ويسئرون إذا كان هذا الأطفال عمداً أو إهمالاً أو جهلاً فقد تروموا أن : الاعتماد على معطيات الإيمان يتعارض مع المناهج العلمية الصحيحة ولم يثبت عندهم عليها إلا ما كان قابلاً للملاحظة والرصف والتجريد ، وتلك هي التواحي المادية الحسية ومعطيات الإيمان ليست خاضعة لشيء من هذا ، لذلك تمأفوها وركبوا تياراً معارضاً في كثير من الأحيان .

ولقد برىء من ذلك أئمة المسلمين وأقدموا لنا كنوزاً ثمينة في هذا المجال ، تعتمد على أسس ثابتة من الكتاب العظيم ، والسنة المطهرة ، ومن أصدق من الله قبلاً ومن أوثق من النبي حديثاً — عليه السلام .

ولقد غفل المسلمون عن كثير من كنوزهم فترة من الزمن قام فيها الغرب المادى
بمأسيس حضارته الادبية وكان فيما شيد من علوم .. علم النفس الحديث فلم يظفر في
ميدانه بأرض صلبة ثابتة يقف عليها كالتى ظن بها العلماء السابقون من المسلمين ،
ولا بأس إذن - أن نكون على اختلاف مع بعض ما توصل اليه علم النفس
الحديث من نتائج لا تتفق مع أسسنا وأصولنا فان اختلافنا معه لا يزيد كثيراً
عما يقع بين علماء أنفسهم من اختلاف ...

ولعلنا لو عدنا إلى كنوزنا فأبرزناها في الإطار الذى يليق بها ، وبلغه العصر
الذى نعيش فيه وبمساهلاته الحديثة أقدمنا إلى العلم الحديث وإلى المختصين من
من علماء خدمة كبرى أضيح المنار وتصحح المسار .
ولله لما يبعث على الأمل أن ينشغل العلماء المسلمون إلى مثل هذا العمل العظيم
تقرباً إلى ربهم وخدمته لهنى جنسهم وممرا بأنفسهم إلى حيث ينبغي لنفس
الإنسان أن تكون .

وعلى درب هذا الأمل يبرز هذا الكتاب كحجارة في ساحة المحاولات الجادة
المخلصة تقرباً للنهج وتوضيحاً للأساس ، وإرشاداً إلى الحق .

وتنمى أعرف مؤلفه : طالما متروياً متروياً لا يكمل من البحث ولا يسأم من
الإطلاع ثم يخرج ثمار أبحاثه في أوضاع وثقة ..

ونرجوا الله أن يكتب له التوفيق الدائم في كل ما ياتى وما يدع إليه سميع
الرب بجهب ... ؟

شيخ الأزهر

(دكتور عبد الحليم محمود)

١٥ من رمضان ١٣٩٦ هـ

٩ من سبتمبر ١٩٧٦ م

تقديم

الكاتب الكبير

الدكتور مصطفى محمود (١)

ظهرت محاولات عديدة لفهم النفس فهماً جديداً مؤمناً على القرآن والسنة آخرها وأهمها كتاب الدكتور حسن الشرقاوى «نحو علم نفس إسلامي» وهو نظرة نقدية شاملة لعلم النفس الحديث ومحاولة للخروج بعلم نفس إسلامي جديد.

ويحرص الكتاب في أمانة وجهتي نظر العلم والدين في ذلك الغز الذي أسماه النفس ويدعو القارئ ليفكر معه خطوة بخطوة وبأخذ بيده يرفق إلى الحقيقة ..

إن علماء النفس لا ينظرون إلى النفس إلا من خلال الهموم والأمراض والآفات والعلل .. ولا يفتشون إلا في الانحرافات والتشوهات والعقود ولا يقدمون لنا شيئاً إيجابياً عن النفس السوية السليمة ... والمنهج الوحيد للسلوك عندهم هو إشباع شهوة ... والمراجع الرئيسي الذي يفسر به فرويد جميع الانحرافات هو عقدة أوديب وعقدة الكترا .. وهي شهوة الطفل في أن يجماع أمه ، وشهوة البنات في أن يجماع أباهما .. وهي ملوسة بجميعها من مرضاه المستهزين لجعل منها تهمة عامة ألصقتها بالكل ، ومن هنا فإن الإحساس بالذنب عند فرويد مرضاً .. والتوبة تكذباً .. والندم تعقيداً .. والصبر على المسكاره بروداً .. وفي هذه الفهوات كتبنا له عواقب الوخيمة ...

بينما نرى الدين يقف على النقيض من هذه النظرة .. فيعلمنا أن قبح الشهوات هو شاهد على سلامة النفس واقتدارها ، وأن الإحساس بالذنب علامة صحة وأن التوبة موقفة علم والندم موقف علم تدل جميعها على فطرة سوية أدركت الله وعرفت أنه دائماً مع الحق والعدل والخير .

ولا يرى الدين أن النفس محض بخور بل يصفها بأنها قابضة للفجور والتقوى ، وأن الله ألهمها بخورها وتقواها دعاً فهي تستطيع أن تراقى في معراج نوراني نحو الله أر أن تتهاطل سلفياً في درك الشهوات .. وهي في ذلك مخيرة .. وكل إنسان يتصرف على شاكلته ..

د قل كل يعمل على شاكلته ..

(الإسراء : ٨٤)

ويشرح فرويد توسعاً مريباً في حكاية الجنس والطاقة الجنسية (Libido) واللذة الجنسية ويتصور أن الرطبيج ينص سامة لدى أمه بلذة جنسية (وهو كلام غير مفهوم فالرطبيج لم يباشر هذه اللذة بعد بحكم تخلف جميع أجهزته وهو بالتالي غير قادر على تذوق اللذة) ...

كما يتصور أن العصب يحبس البراز في شرجه بلذة جنسية (وهو يستبدل هذه اللذة حينها بكبر بهوايات جميع الأشياء مثل جميع طواييع البريد) .

كما يتصور كل ما هو مستدير في الجسم رمزاً لأعضاء المنة التناسلي (مثل الكهف .. والدائرة والعلبة .. والخناقم .. والخلق .. والوجاحة) وبالمثل كل ما هو مستطيل رمزاً لتعذيب الرجل (مثل العصا .. والثعبان .. والقلم .. والمائدة .. والبرج والسيوف .. والمظلة) وكل حركة في الحلم هي رمز لعملية الجنسية ، كالجرى والتسلق والسياسة ودكوب الدراجة .

ثم هو يدمج كل أنواع الحب حتى حب الوالدين وحب النفس في هذه الحلقة الجنسية المفرغة . . . حب الأم (عقدة أوديب) وحب الأب (عقدة ألكترا) وحب النفس (تراجسية) وكأنما هي لينة تهازج كل فعل . . . فلا برادة في أي شيء . . . ولا طهارة في أي خاطر أو أي فكرة . . . وهي مبالغات أقل ما يقال فيها أن صاحبها مريض بهوس جنسي . . .

ولا يرى فرويد من الأحلام إلا هذا الجانب الجنسي المحسوس الشهواني فالأحلام كلها إشباع لرغبات مكبوتة وهي تهرس النوج بهذا الإشباع المتجدد الذي يريح للنفس من أشواقها الملحة فلم ترسل في نومها .

وفرويد وأصحابه لا يرون بذلك إلا نوعاً واحداً من الأحلام وجانباً واحداً من النفس هو الجانب المادي والحيواني .

أما القرآن فيعلمنا أن هناك نوعين من الأحلام . . . نوعاً يطلق عليه « أضغاث الأحلام » وهو حديث النفس الأمارة بشهواتها ورغباتها أو حديث الشياطين إلى تلك النفس أثناء النوم . . . وهو ما اشتغل فرويد بتفسيره . . .

ثم نوع آخر من الأحلام هي الرؤى التي تأتي إلى النفس من الملائكة الأعلى . . . وتكون حديثاً من الله إلى نفس النائم أو حديثاً من الملائكة المكلفين إلى تلك النفس . . . ومثال ذلك الرؤى الصادقة التي تتحقق بعد إفيرها ونصها . . .

ولا مكان لهذه الرؤيا عند فرويد . . . ونظريته تعجز تماماً عن تفسيرها مع أنها خبرة مادية عاشها كل منا وحرب طرفاً منها .

كما أن رؤية المستقبل قبل حدوثه هي مسألة تهدم الفكر المادي من أساسه سواء الفرويدي عنه أو الماركسي لأنها إثبات صريح يؤكد سبق الفكر على المادة ويبرز القرآن بين هذين النوعين من الأحلام ويفصل بينهما . . .

يقول فرعون :

يا أيها الملك أفتوني في رؤيائي ،

(يوسف : ٤٣)

• قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين •

(يوسف : ٤٤)

فهناك إذن أضغاث ... ورؤى ..

ولكن فرويد لا يرى من الأحلام إلا تلك الأضغاث والحلوسة الشهوانية،
ولذا يرى أن السعادة والراحة في إشباع تلك الشهوات ... بينما يرى الدين أن
السعادة في مخالفتها وقهرها والقبض على زمامها والتسلط عليها هوداً إلى الوطن
الأول ... إلى الله الذي منه جاءت كل النفوس وإلى توبه تعود .

والحزن الحق في الإسلام هو نتيجة فراق هذا الوطن والافتقار
في ظلمة الدنيا ...

أما الحزن عند فرويد فهو على العكس نتيجة حب الدنيا والخرمان منها .

وينظر علم النفس الحديث إلى النفسيين باعتبارهم مرضاً ينتج من عدم الاهتمام
أو فرط الاهتمام أو كون الموضوع المثير للمطلوب تذكره موطوعاً مؤلماً أو بسبب
تقدم العمر أو بهب كهت الخبرة الجنسية في اللا شعور ... والطبيب النفسي
يحاول أن يصل إلى هذه الخبرة الجنسية بالتحليل أو بالتشويم المغناطيسي أو بملاحظة
المريض أثناء تداعي خرافاته ،

ولكن الدين ينظر إلى الموضوع في إطار أوسع وأشمل ، هو إطار العلاقة
بالله ، فمن كان قريباً من ربه ذا كراً له على الدوام كانت قدراته دائماً مكتملة

وحاضرة وجاهرة لا ينسى شيئاً ولا يثيب عن بآله شيء لآله في دائرة النور ..
أما البعد عن الله فمدخل صاحبه في دائرة الظلة ويجعله من أهل الغفلة .
« لسوا الله فأنسوا أنفسهم » .

(الحشر : ١٩)

وهؤلاء هم الذين يتخبطون في مناهات الذنوب والحيرة والضباب ، والفرق
بين نظرة علم النفس ونظرة الدين ، هو التقاط علم النفس للصور والنظرة الواسعة
السكينة وسجنه لنفسه داخل إطار الخبرة المادية والدنيا المادية واللذة المادية .

وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى الوسواس والخواطر فيرى أنه نفث من
اللا شعور وأنه حديث النفس إلى النفس ، ولا يتصور أن تلك النفس تحيا في محيط
آخر خفي وأنها يمكن أن تكون عملاً لمخاطبة الملائكة أو رسوسة الشياطين أو مكالمه
الرب جل جلاله .. وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى العذاب النفسي فلا يكاد
يخرجه من إطار الحرمان من الذات المادية .. ولا يتصور أن العذاب الديني
يمكن أن يكون ابتلاء وامتحاناً من الخالق الذي خلق .. كما يفعل الحداد بالحديد
حينما يدخله النار ثم يلقى به في الماء البارد ليزداد صلابه .. أو كما يصهر الصالح
معادله ليفرز ما فيها من ذهب وما فيها من نحاس وما فيها من خبث و تراب .

ويظل علم النفس سجيناً لهذه المحدودية وهذه الرؤية المادية الحسية لكل شيء
بشكل ينتهي به إلى الخطأ في جميع أحكامه .. فهو مثل الأعمى الذي اكتفى بأن
يمسك الفيل من ذيله ثم راح يصور لنفسه أن هذا الذيل هو الفيل .

ولهذا ينظر علم النفس إلى العمل في نطاق الفيل والحااز دون أن يتعب نفسه
في تحليل مدى صدق وإخلاص هذا الحافز ودون أن يتخطى هدفه الفعل ويسأله

ماذا يريد به صاحبه . . هل يريد تحصيل المال أو الشهرة أو المجد أو الجاه عند
الناس . . أم هو يعمل خالصاً مخلصاً لوجه الله .

والفرق كبير وهائل بين الحليين . وهو أبغضاً كبير وهائل بين النفسين ،
وفصل الأخلاق عن أهدافها فهو في النهاية فصل لها عن منبعها الأصل الذي هو
الدين . . فالدين وحده هو مصدر الأخلاق . . والرحمة والعلم والرفقة والبرودة
والكرم هي من الله فهو وحده الرحمن الرحيم الكريم الودود الرؤوف الحكيم كما
تقول لنا أسماؤه الجسني وهو الذي ينجي بهذه الأخلاق على كل من يستحقها . .
ولهذا يختلف علم النفس عن الدين في علاج الأمراض النفسية . . .

فلا يرى علم النفس إمكانية لتبديل النفس أو تغييرها جوهرياً لأن النفس
تأخذ شكلها النهائي في السنوات الخمس الأولى من الطفولة . . ولا يبقى للطبيب
النفس دور سوى إخراج المكبوت إلى الوعي . . أو فتح نوافذ التنفيس
أو التعبير وتخفيف الغليان الداخلي . . ويهدى الوصول إلى ذلك بإعطاء
النفس إلى العلاج بالتنويم المغناطيسي أو العلاج بالتعبيل أو العلاج بالإحصاء
أو العلاج بالتنفيس والتعبير والفن والادب أو العلاج بالاستغراق في عمل آلي .
وكل هذه الصور من العلاج أشبه بعلاج السرطان بالمراهم أو المسكنات لأنها
لا تحاول أن تغير من النفس شيئاً ، فكأنها تقبل وجود الدمع النفس على حاله ثم
تقول المريض أصرخ أو غني أو أرقص لتنفس عن آلامك . . أو تضع يده على
الدمع وتقول له . . هنا الدمع . . وهذا كل جهدهم . . .

أما الدين فيقول بإمكانية تبديل النفس وتغييرها جوهرياً ويقول بإمكانية
إخراجها من ظلمة البهيمية إلى أنوار الحضرة الإلهية ومن حضيض الشهوات إلى
عذرة الكمال الخائبة وذلك بالرياضة والجهادية . . ويكون ذلك على مراحل . .

أولها تخلية النفس من عاداتها المذمومة ، وذلك بالاعتزال بالذنوب والعيوب
وإخراج هذه العيوب إلى النور كما قال موسى لربه بعد قتل المصري خطأ :
 « رب إنى ظلمت نفسي فاغفر لي » .

(القصص : ١٦)

وكما نادى بولس في الظلمات :

« لا إله إلا أنت سبحانك إن كنت من الظالمين » .

(الأنبياء : ٨٧)

والمرحلة الثانية هي التوبة وقطع الصلة بالماضي والتندم ومراقبة النفس فيما
 يستجد من أمور ومحاسبتها على الفعل والمخاطر .

والمرحلة الثالثة هي مجاهدة النفس المريضة بأضدادها وذلك بالرياضة النفس
 الشحيحة على الإنفاق، وإكراه النفس الشهوانية على التعفف، ودفع النفس الانانية
 إلى البذل والتضحية ، وحث النفس المختالة المزهوة على التواضع والانسكاس
 واستنهاض النفس الكسولة إلى العمل . . وبمعالجة الضد بالضد تصل النفس إلى
 الوسط العدل . . وهو صراط الحكمة وهو حفظ الكاملين من البشر .

ولا تنجح تلك الرياضة دون طاب المبدء والغون من الله ودون الصلاة
 والخشوع والخضوع والافتناء في محبة الله ركوعاً وسجوداً في توحيد كامل
 (وتوحيد الله لا يكون إلا بطاعته الكاملة والاسترسال معه . . فلا تريد لنفسك
 إلا ما يريد ربك ، ولا تطلب لنفسك إلا ما يطلبه هو لك ، وهنا تحدث المعجزة
 فيبدل القلق سكيناً ، والفرج طمأنينة ، والخسة الشهوانية طهارة . . والتواضع
 لنفسه كالآتي .

وذكورة العلاج النفسى فى الإسلام هى « الذكر » .. وذكر الله بالقلب
واللسان والجوارح والسلوك والعمل واستشعار الحضرة الإلهية على الدوام وطوال
الوقت فى كل قول وفعل .

وفى الذكر شفاء ووقاية وأمن وطمأنينة لأن الذكر يعيد الصلة المقطوعة
بين العبد والرب ويربط النفس بمنجيتها ويرد الضئيلة إلى صانها .. جهت هو
الأهم بغيوبها والألدر على علاجها .

« ادعوني استجب لكم » ..

(طافر : ٩٠)

« فاذكرونى اذكركم » ..

(البقرة : ١٥٢)

فيجود النور ليغمر ظلام النفس ويحل العمار مكان الخراب وتتهل السكالات
الصفانية الإلهية على قلب العبد الخاشع .

وبينما يرى فرويد الطيبة تماثلاً وسلبية وينصح مريضه قائلاً له :

« كل وإلا فأنت ماأكل » ..

نرى نحن الطيبة قوة وإيجابية .. ونأمر بالصنع :

« فاصنع الصنع الجليل » ..

(الحجر : ٨٥)

« فاعفوا واصفحوا » ..

(البقرة : ١٠٩)

« وإن تعلموا أقرب للقوى ، . (البقرة : ٢٢٧)

وبينا يختار فرويد من الأعمال ما يساعد على تفريغ وتنيس الغليان النفسي ..
لشروط نحن العدل الصالح .

وبينا يرى أن ماضى الطفولة حاكم على كل إنسان وموجبه لأفعاله لا نقول
نحن بحكم إلا الله ونقول إننا بفضل الله يمكن أن نخرج من أى حكم وتنخاص
من أى حكومة ، وبينا يقول بنظرة عدوانية وبغريزة التحطيم والهدم وغريزة
الموت وبالطاقة العدوانية كدوافع رئيسية نقول نحن أن الإنسان فطر حراً
عتواً بين النوازع السالبة والموجبة يختار ما يشاء منذ البداية .

وسبب كل هذه المادية الفرويدية ومادية علم النفس الحديث بوجه عام هو
تصوره للإنسان تصوراً آلياً حسيماً فيزيولوجياً .

وهو عين ما فعله كارل ماركس حينما تصور أن التاريخ غربة تحركها المصالح
المادية والقوى المادية وحدها .. وأن حركة التاريخ هي دائماً ثمرة الصراع بين
طمع الأغنياء وحقد الفقراء إلى آخر ما حكيناه في الكلام عن الصراع الطبقي .

وهذا التصور المحدود والافتقار العميق المسدود هو الذى أدى بالإثنين إلى
اعتساف القروض والتخريجات .. وهو الذى أدى بالإثنين إلى تلفيق ما قاله
عن النفس وعن التاريخ وهو الذى انتهى بالإثنين إلى اعتساف الأدلة وتزييف
البراهين .

وقد ظهر فشل الطام النفسي الحديث من التذرع بالاحصائي الحالات إلى تم
علاجها نفسياً .. فقد اتضح أن معدل شفاء المرضى المصابين ثابت سواء عولجوا
على طريقة فرويد أو عولجوا بطريقة أدلر أو لم يعالجوا على الإطلاق .. فن يشق
منهم حالة كمال من بعض الأنفلونزا مصهده إلى الشفاء سواء بالعلاج أو بدون العلاج .

كما اتضح أن معظم الأطباء النفسانيين هم مرضى أكثر من مرضاهم وفي حاجة إلى تحليل .

وأخيراً رأينا الطب النفسى يفتكس ويرتد إلى العلاج المادى بالمسكنات والمهدئات والمنجذرات . . . والمنومات . . . وهو اعتراف بالعجز والفشل . . . وهروب من المشكلة كلها بالنوم عنها .

وكيف لا تنهى الفرويدية إلى النفسـل وهى القائمة باستحالة تغيير النفس وتبديلها . . . وبأن النفس تشكل فى سنوات الطفولة الأولى . ثم تصبح قدراً لصاحبها لا خلاص منها .

وماذا أبقت لنا هذه النظرة سوى العلاج بالمسكنات والمراهم الخارجية لقد انتهى علم النفس الحديث إلى الفشل لأن منطلقاته معظمتها عاطفية . وكان أكبر أخطاء هذا العلم أنه ليس علماً كما أن الماركسية لم تكن أبداً علماً . . . وإنما هى مجموعة أفكار غنية . . .

كما أن علم النفس الحديث هو الآخر مجموعة أفكار غنية وهذا بعض ما أورثتنا الحضارة المادية من ظنون وأوهام . . .

وواجبنا أن نعرض هذه الحضارة على القرى . . .

وما فعله الدكتور حسن الشرقاوى فى كتابه الجميل فى علم النفس نفعه فى كل فروع السياسة والفلسفة والفكر والاجتماع . . .

لقد همنا مئات السنين حالة على الغرب ولسكننا اليوم نستطيع أن نعطي الغرب ونعطي الشرق وما أكثر ما يستطيع الاسلام أن يعطي لهذا العصر الحرب . . .

• مصطفى محمود

مقدمة

كان من توفيق الله . . . وحسن الطالع . . . أن يقدم هذا الكتاب . . . العارف بالله . . . دكتور عبد الحليم محمود . . . إمام الإسلام في هذا الزمان . . .

لقد خط بيده المباركة حروفاً من نور ليؤيد الحق ، وينكر الباطل ، يحمل على أدعياء العلم من الماديين والحسبيين ، مبيناً خبث نواياهم ، كاشفاً زيف مزاعمهم ، عارضاً فقر ديارهم . . . التي تثير الشهوات المنحرفة . . . والذات الرخيصة ، مظهراً للناس أن ذلك من مرض القلوب . . .

لقد أولانا الإمام الأكبر بحمل إهتمامه ، وحسن رعايته ، ولم ينخل عن توجيهنا إلى المراجع الثمينة ، وإرشادنا إلى المخطوطات الطيبة ، في كل ما كتبنا واسكتب ، ولا نملك في أن ذلك أثرى في تقدم أبحاثنا المتواضعة . . .

فنسأل الله تعالى أن يمجّزه منا حسن الجزاء ، وأن يبقيه زخراً لتثبيت القلوب المتعاشية انوار التوحيد ، وأن يحقق على يديه العزة للإسلام والمسلمين . . .

ولقد سرنا — بفضل تدجيج الإمام الأكبر — على هذا الدرب ، مقتدين بآيات الله . . . وسنة رسوله الكريم . . . نقطف من ثمارها اليانعة ، ونرتشف من رحيقها العذب ونزود منها بالعدة والعناد . . . حتى حان وقت الحصاد . . . فكان إخراج هذا الكتاب — منه من الله وفضلاً — بقصده وجه الكريم ، تبصيراً بكلماته الناعمة ، ودعماً لمنهج الماحسين والأدعياء من الماديين . . . والتجريبيين ، والحسبيين ، وأصحاب التحليل النفسي . . .

ولقد حظى هذا الكتاب قبل نشره — بتوفيق من الله — بتقرير الكاتب الكبير الدكتور مصطفى محمود . . . فقد قرأ أصوله . . . وفصوله فأعجبه ، وأشار

إليه في مقالاته العديدة ، وكتبه الطيبة . . وأحاديثه المليحة الشيقة .

ولا نملك في أن الدكتور مصطفى محمود من أبرز كتاب العالم العربي . . فهو مفكر جاد . . لفظ . . ذا نظرة عميقة ثاقبة فاحصة ، فضلاً عن أنه أديب شمولي يتناول بتنوع ثقافته . . وغزارة علمه . . وبساطة أسلوبه ، وقدرته الفائقة على إيصال الفكر إلى الناس . . .

والحق . . فإن الدكتور مصطفى محمود . . لم ينقطع لحظة عن تهجير وحفرى على العمل ، حتى أنه دعاني في صيف ٧٦ حيث قضينا سوياً ثلاثة أيام نقاش في موضوعات هذا الكتاب ، فله شكري العميق . . وخالص مودتي سائلاً الله أن يكافئته على حسن صليحه .

وبعد فإن معالجة هذا الموضوع لا تستهدف منها وضع العقبات أمام العلوم . . والمناهج الوضعية والتجريبية . . إذ أنه مما لا شك فيها أنها تقدم حضارة الإنسان ، ويسر له استخدام الوسائل المحققة لأغراضه . . وتعمل على إثراء معارفه وتوصل له ما كان بعيداً ، وتطور ما كان ضعيفاً . . ومعدداً ، وتعاونه على السيطرة على مواد الطبيعة التي تظم أهدافه وتحقق مقاصده . . .

بيد أن هذه العلوم اغترت بطرائقها ، وابهرت بنجاحها بما استحدثته من وسائل . . وما استكشفت من صناعات حديثة . . فبدل أن تزيد من إيمان الإنسان ، أبعدته بمناهجها عن أهداب الدين ، مدعية أن أبحاثها تتعلق بالعلم الموضوعي . . وهذا العلم ينظر لحسب فيما هو تجريبي وتطبيقي ، وملوس ومخسوس . .

وأما الدين فهو — في ظن أصحاب هذه العلوم — لاهوتي طبعي لا يقبل موضوعاته الخاضع إلى التجربة العلمية والمعملية . . حتى أنه قد نادى بعض العلماء

الماديين - في تبجح - بضرورة تطوير الدين حتى يمكن أن يواكب
متطلبات العصر !!

كما زعم البعض الآخر أن حقائق العلم متطورة ، أما حقائق الدين فجامدة
بالية .. ومن ثم يجب أن يعاد النظر فيها .. فلا يقبل منها إلا ما يوافق المنهج
العلمي الحديث ..

لقد اشتغل هؤلاء العلماء في تفكيرهم وبحثهم بعيداً عن الحق والصواب...
وغرّتهم الأمانى .. وغرهم بالله الغرور ..

ظنوا أن نجاحهم في إثبات بعض الفروض - التي لم تصل إلى نظريات قطعية
بعد يؤهلهم لإصدار الأحكام على كل شيء .. جربوه أم لم يجربوه ..

لقد اعتقدوا كبراً واستهلاء أنه بتدورهم أن يخلقوا خلقاً جديداً ، وأن
يهدموا الدين الذي أسسوه ربيعاً قديماً .. وحسبوا أنهم بذلك يسيطرون على
حقول الناس .. فأطاعوا شياطينهم التي أبعدتهم عن الصراط المستقيم وقادتهم إلى
الانحراف وأوقعتهم في الزلل والخطأ ..

لقد غفل هؤلاء عن حقيقة هامة وهي أن جمود الدين وقدمه خير وفضيلة ،
وليس ديباً وبقصاً .. إذ أن عدم قابلية الدين للتغيير هو تعبير عن الصمود والكمال
والصدق .. فرغم وجود التناقضات والاختلافات والتعديلات في مناهج العلوم
الحديثة .. تبقى حقيقة الدين .. وسبق دائماً رمزاً للدين النهائي .. والحق
الواجب أن يتبع ..

والشرعية ثابتة .. فلا تبدل لكلمات الله فليست تجارب تصدق أو تكذب
مثل ما يحدث في العلوم الحديثة التي تتغير بتغير البيئة والثقافة والظروف ..
إذ الشريعة هي الحق الذي لا يأتيه الباطل من يمين أو يسار ..

« فأما الذين آمنوا فليعلمون أنه الحق من ربهم » .

لقد نسي هؤلاء العلماء فيما نسوا أن ما أسمره بالتطور العلمي ليس إلا انتقالاً من حالة إلى حالة . . . ومن تهربة إلى أخرى . . . يجوز أن تنجح ، كما يجوز أن تفشل ، بل يمكن أن تتحول التجارب إلى الأسوأ . . . كما يجوز أن تنسحب إلى الأحسن والأفضل . . .

إن كثيراً من فروض العلم التي تتعلق بمباحث النفس قد ثبت بطريق الدليل التجريبي ، والتطبيق العملي فشأها ، وأضحت اليوم كما مهملاً . . . وفكرأ حقياً متداعياً . . .

كما أن هناك أبحاثاً جديدة في مجالات العلوم المختلفة توصلت إلى نتائج علمية تثبت خطأ نظريات علمية كانت لها الصدارة عند الباحثين منذ أهرام قليلة . . .

يقول ولیم جیمس (١) .. أحسد علماء النفس المعاصرين عن كتابه « مبادئ السيكولوجية » الذي كتبه قبل أن يتحول عن مناهج علم النفس :

« إن كتابي هذا يمثل كتلة كريمة متفخمة متورمة تشهد أنه لا شيء يسمى علم السيكولوجية » .

ورغم كل ذلك يسعى البعض مع تسايحه بقصور المنهج العلمي بمدارسه المختلفة . . . من معالجة موضوعات النفس . . . يسعى إلى مهاجمة الدين بدون دليل أو علم . . .

إننا نستحسن — كما سبق الإشارة — ما توصل إليه العلم من أساليب جديدة تحقق للإنسان استخدام وسائل حديثة تتمتع بالبساطة والسهولة ، تساهم في تحقيق حياة أكثر رفاهية وورغداً .

ولسكننا لسقنكر محاولات المطابقة بين المساده الصماء وبين الإنسان ..
والخضائع النفس الإنسانية إلى تلك المقاييس الجامدة والمناهج التجريبية التي تصلح
لحسب في مجالات العلوم الرياضية والطبيعية .

وحق يسهل لأصحاب العلم الحديث الوصول إلى أغراضهم .. زعموا أن كل
ما لا يثبت عن طريق التجربة .. محض وهم وخيال .. وأنه لا يمكن لمفكر
يحترم عقله أن يؤمن بالمغيبات .. ومن هنا نهأت دعاوى لا أخلاقية جديدة ..
لشبهه في مصاصينها دعاوى السوفسطائيين .. يقول أصحابها — مع اختلاف
مساوئهم — إن الحرية الدينية إنما هي في اختيار الفرد لما يراه صالحاً ..

كما أن بعضهم يجهل بالقول بأن على الدولة أن تنظر إلى ما يحقق لها أكبر
منفعة .. دون الاعتداد بالقيم الدينية وما يتبعها من إلزام خلق .. إذ أن الدين
أفيون الشعوب ، وأنه أسلوب من أساليب العبودية .. يفرض نظامه المنهزم
على الأفراد والجماعات . فيجعلهم أرقاء لقواعده .. عبيداً لأوامره .

وينتهي أصحاب هذه النظريات الإلحادية — مع اختلاف طرائقهم — إلى
أنه لا حاجة لإنسان القرن العشرين إلى الدين ... أو الإيمان بالله .

فإن العلم الحديث في زعمهم قد حقق انتصاراً عظيماً في مجال العلوم الطبيعية ،
وأنه لا شك قادر على تحقيق نجاحات أخرى في كل مجالات الحياة إذا وجهت جهود
العلماء إليها ..

والغريب أن ادعاء العلم الحديث بنجاح أبحاثه لا يؤيده الواقع ، ذلك لأن
العلم لم يستطع أن يثبت حق الآن أكثر من نسبة ضئيلة جداً لا تتعدى ثلاثة
في المائة من حقائق الكون .. وأن ذلك الذي أثبتته لم يتعارض البتة مع حقيقة

واحدة من عقائد الدين . . فكيف لـ العلم إذن أن يدعى أن الدين غير صالح وثير متطور ولا يتفق مع نظريات العلم الحديث .

كما أن العلم الحديث — كما سبق الإشارة — ما زال يحبو طاجراً عن تفسير خالية المحتاطي الفكرية . والتعرف على ناموس الطبيعة ، فكيف له أن يزعم بعد كل ذلك أن سر نجاحه راجع إلى بعده عن الدين . .

فإذا جاء بعض علماء النفس الحديث ، وفرضوا أنفسهم على ما لا يعرفون منه شيئاً . . وحاولوا تطبيق مناهجهم التجريبية ، وقياساتهم العقلية وافتراساتهم البظية . . فإن ذلك يعد طراً وعبثاً وإضاعة للجهد ، وإسرافاً في المال .

ولم يفت هؤلاء العلماء عند هذا الحد ، بل ادعوا كذباً . . أن نظرياتهم التي لا تزال فروضاً لم تثبت بعد . . هي الحلول النهائية لمشاكل الإنسان النفسية والخلقية الاقتصادية . . والسجيب أن بعض العقول اللاهية ، والأنفس المخترة ، والقلوب المريضة ، انقادت وراء هذه النزعات الضالة ، والمراهم الغريبة تحمى تشنجاتها المجنونة . . وصرخاتها المسعورة التي تثير في النفس الحية الاشتزاز . . بما أواقظه من الفهوات البهيمية ، وتسلط الفرائز الحيوانية ، وموافقة الأهواء للاستمتاع بالذات الرخيصة ، وفي المطالبة بحريات مزعومة لتعبير بها عن كل ما هو ساقط وقاقر ومنحرف ، ولا هدف من ذلك سوى القضاء على كل فضيلة وإتقان كل رذيلة ، والافكالك عن الالتزام بهدى الدين والتسك بالاخلاق القوية . .

وهذا الكتاب محاولة لسير في الاتجاه الصحيح في دراسة النفس ، واختيار المنهج السليم في فهم الدوافع الإنسانية . . قد استقينا مادته الأصيلة من القرآن

(٢٠)

الكريم . . والسنة الحميدة ، واجتهادات الأئمة ، وإجماع علماء الأمة . .
ويتحدد المعيار الإسلامى الذى يحكم به على صلاح السلوك الإنسانى وفساده
وانحراف النفس واحتقاصها ، فى الوسط العدل . . وهو الخير الفاضل الذى ورد
فى قوله تعالى :

« يؤتى الحكمة من إ شاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً . .
(البقرة : ١٢٩)
وأبدو الحكمة فى آيات قرآنية عديدة بمعنى الاستقامة ، والإقامة والقوام ،
والقسط ، والاعتدال ، والعدل ، والقصد ، والاقتصاد :
« وجعلناكم أمة وسطاً . .

(البقرة : ١٤٣)
« قال أرسطو : (أى أفضلهم رأياً وأتمهم حكمة) .
(الفلم : ٢٨)
« إهدنا الصراط المستقيم . .
(الفاتحة : ٦)
« واستقم كما أمرت . .
(النور : ١٥)

« وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . .
(الرحمن : ٧ ، ٨)
« وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » (أى العادلين) .
(المائدة : ٤٢)

« واتعد في مشيك » . (لقمان : ١٩)

الذى خلقتك فسواك فعدلك » . (الانفاار : ٧)

ويوضح لنا القرآن الكريم أن النفس السوية هي التي تلتبج الوسط العدل ،
بلا إفراط أو تفريط ، وهذا وارد في آيات عديدة منها قوله تعالى :

« ولا تصبر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحاً » .

(لقمان : ١٨)

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً

محسوراً » . (الإسراء : ٢٩)

« فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » .

(فاطر : ٢٢)

ولذلك كان الوسط العدل هو المنهج الواجب الاتباع عند جمهرة الأمة وهو
الوسيلة الحقة لبلوغ الأمن والطمانينة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وهو المقياس
الذى يمكن أن نقيس به فساد الأمور وصلاحيها . . .

وإذا انحراف عن تلك الوسيلة المثل . . سواء بالإسراف أو التقصير يعد
بعداً عن الغاية التي خلق من أجلها الإنسان ، ومن ثم يكثر المنحرف في طريقه ،
ويقع في الأمراض والقائص ، فيظلم نفسه وتظهر عليه أعراض المرض النفسي
كالاغفة واليأس والقنوط والغرور والعجب والحسد والطمع والرياء والنفاق . .
إلى غير ذلك من الأمراض التي تصيب الإنسان لبعده عن العدل الواجب الاتباع
ومخالفته لناموس الكون الذي خلق بميزان عدل ، وخير فاضل ، فالذى يتبع هواه

يظلم نفسه ، إذ أن ذلك يعد من الفوضى والكون لا يعرف إلا النظام ...

أما الذين يخالفون أهواء النفس ، ويتجنبون الشهوات الرخصة ، ويعملون بآيات الله .. ويتقنون بسلوك الرسول - ﷺ - فهم الصادقون المؤمنون الصابرون العاملون الجاهدون الصاكرون .. وهؤلاء يحظون بالأمن والسكينة النفسية ، ويؤمنون دوماً من الله ثميناً لأبدانهم في العلم والعمل .. ويهنأون برضى الله .. وحب الله .. وعلم الله .

والقرآن الكريم يفتح لنا مغاليق النفس ، ويبين لنا في وضوح تام أن النفس الإنسانية تشتمل على عاصتين أساسيتين .

الأولى : النزع إلى طاب الشهوات والفجور .

الثانية : المجاهدة في طريق الله بالتقوى .

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » .

(الشمس ٧١)

« رهدينا للتجدين » (الحشر والشر) .

(البقرة ١٠١)

ومن هدى هذه القاعدة على الإنسان أن يختار طريقه .. أما إلى الصفة النفسية وذلك بتربية النفس تربية سليمة .. فينخل عنها الفجور .. ويعمل على تحليها بالتقوى ولن يتحقق له ذلك إلا بالرياضة النفسية التي تتمدد في حراسة النفس وسهاستها ورعايتها ومحاسبتها ومراقبتها .. حتى لا تغفل ولا تنسى ، وبذلك تستقيم النفس رجاء في وعد الله ، وخوفاً من وعيده تعالى .. فيستعيد الإنسان بالله عند العدة والضعف فتقوى نفسه وتجنب الأهواء والشهوات ، وتغلب على غواية الشيطان

ومكافئه .. وهنا تشفى من أمراضها ، وتبلى من أصفاءها ، وذلك بدوام الذكر
وتعام الصبر ، وكظم الغيظ ، وبالحمة والعزم .. وأما أن يختار الإنسان الهوى ،
فيصير عبداً لنفسه الأمارة بعد أن كان سيداً عليها فتتقاذفه الهواجس ، وتفرعه
الوساوس ، ويملأ قلبه الهلك والريبة ، ويقع في اليأس والقنوط ويظلم نفسه ،
فينقاد إلى الانحراف ويترف كل فاحشة ورذيلة حتى يصبح كالميت والحي .

وأخيراً .. لست أدعى لنفس الإتيان بالجديد في هذا العلم ، وليس لي أن
أناخر باني أول من رجع بابه .. ووعى مقاصده .. فلقد عرف أئمة الاسلام
الأولين أصوله ، وتفهموا غاياته ، وأخرجوا لنا تراثاً عظيماً يبين فصوله
وجواهره .. لكن غرو العلم الغربي الحديث واستجاره لقلوب والنفوس حتى
أصبح أمراً مسلماً به جعل من الصعوبة بمكان الرجوع إلى الحق ، وقد دفع ذلك
كثير من المقلدين والمبهورين بالمناهج الحديثة إلى العزوف عن إخراج هذه
الكنوز الثمينة ، كما عرف كثير من العلماء عن ولوج هذا الباب ، إما خوفاً من
مهرم الطاعنين ، وأما جهلاً بالشريعة ، فترك هذا التراب العظيم لعدة قرون
مقبوراً داخل ترايبث النسيان .. دون أن يحظى بعناية ما من الباحثين والعلماء
للاستفادة بمناهجه الفريدة ..

ولا يخفى أن كثيراً من طلبة العلم بالشرقون إلى معرفته ، ويودون أن تفتح
لهم فرصة دراسته كبديل للمناهج الغربية التي يشهدون أنها جسم غريب .. يدخل
كالضيف الثقيل إلى بيوتهم فينفض سحره ، ويغشج بين جنباتها الهلك .. الفوضى ..
واللامبالاة .. والضياع ..

لقد كلف العلم الحديث عن قصور أدواته .. فيما يتعلق بالعلوم الأساسية ..

وعجزت مفاهيمه عن حل قضايا إنسان القرن العشرين . . ولقد حان الوقت الآن للاستفادة بالمنهاج القويم واستخدامه في حل مشاكل الإنسان المعاصر النفسية . والخلقية . . والاجتماعية . . والاقتصادية والفائوية .

لذلك فإن آمل أن ينشر هذا التراث العلمي العظيم ليتعرف عليه كل متعاش لمعرفة حقائق الدين . . وحسبى أني بيهت إلى المنهاج الذي أؤمن بأنه واجب الاتباع . وعلى الله قصد السبيل .

د. حسن الشرتاوى

الباب الأول

أسس علم النفس الاسلامى

مقدمة

- « قل أنزله النى يعلم السر فى السموات والارض » (الفرقان : ٦)
- « ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه » (النمل : ٥٦)
- « يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » (الانعام : ١١٢)
- « وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون » (الانعام : ٨٠)
- « اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ولانى فضلنكم على العالمين » (البقرة : ١٢٢)
- « واصلكنم فتتنم أنفسكم وتربصنم وارتبتم وغرتكم الامانى » (الحديد : ١٤)
- « وأن ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى » (النجم : ٣٩)
- « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » (النساء : ٥٩)
- « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » (النساء : ١)
- « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة » (البقرة : ١٥٣)
- « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » (المائدة : ٥١)
- « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وأخواتكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان » (التوبة : ٢٣)
- « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن » (الحجرات : ١٢)

- » يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم « (الحجرات : ١١)
- » يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا « (الحجرات : ٦)
- » يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم « (المائدة : ١٠١)
- » يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم «
- (النساء : ١٧٠)
- » ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما « (طه : ١١٢)
- » فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور « (فاطر : ٥)

صدق الله العظيم

الفصل الأول

محنة علم النفس الحديث

تمت الدولة في الوقت الحاضر بتدريس مادة علم النفس بالمدارس والمعاهد والجامعات ، وتهدف من ذلك تبصير الشباب بالظواهرات النفسية ، وتغريفهم بالآفات والنزاعات والدوافع التي يصاب بها الإنسان إذا ما ترك دونها تربية وإرشاد وتوجيه . . . وبالجلة ترمى الدولة إلى المحافظة على الصحة النفسية لشبابنا .

كما تهدف الدولة أيضا من تدريس هذه المادة للمطلّاب إلى إستجلاء الطارق العملية الموصلة لعلاج الأمراض النفسية والعصابية ، إذ أنه بغير تفهم عميق لمعالم النفس الانسانية يفقد الإنسان سلاحه ضد مواجهة الصراعات الداخلية والدوافع الغريزية ، والتي تكون مصادرها في الجهل وعدم معرفة الإنسان لحقيقة نفسه . . .

وإذا ما جهل الإنسان نفسه فإنه لا شك راقع في الأمراض النفسية المختلفة ، سواء كان ذلك في صورة شعور بالنقص أو الذنب أو الفضة أو إحساسا برغبات قسرية . . . للإنطواء أو العدوان أو السلبية . . . وبالجلة فإن الجهل موصل إلى مهاوى السلوك الشاذ . . .

اذن ، فالإنسان محتاج بالضرورة إلى التعرف على الآفات النفسية التي يمكن أن يصاب بها ، وعليه أن يتخذ الاحتياطات اللازمة للرعاية منها والتحصن ضدها حتى يسلم من الوقوع فيها ، والشباب على وجه الخصوص محتاج الى هذا النوع من

التربية النفسية ابعادا سالحا للشراكة فى بناء الحياة والمجتمع ، وهو متمتع بالصحة النفسية والبدنية

ولاشك أن الصحة النفسية مكمل للصحة البدنية ، كما أنها أولى بالرعاية وأحق بالعناية ، لأنها تتطلب العلم الدائم ، والتربية السليمة ، والتوجيه المستير ، والارشاد المستمر ، إذ أنه قد لا يكفى جو الأسرة الصغيرة فى العصر الحديث — للقيام بهذا الدور الجوهرى للتحصن ضد الامراض النفسية ، وذلك لتشابك الوسائل والغايات ، وتعدد المجتمع بحيث لا يعرف الشباب ماهو غاية ، وما هى الوسيلة الناجمة لتحقيق هذه الغاية .

أما فيما يتعلق بالصحة البدنية فإن التقدم العلمى والتكنولوجيا قد بصر الانسان المعاصر بالأعراض المرضية وبطرق الوقاية منها ، ويسر سبل علاجها ، وأنشأ لذلك المستشفيات والمصحات والعيادات ، فضلا عن أن الأمراض الفسيولوجية غالباً مايمكن العايب من تشخيص أسبابها ، ومعرفة أعراضها بما يظهر على المرضى من تغيرات واضحة مصحوبة بآلام وأوجاع ، ومن ثم يتيسر علاجها إما بالعقاقير والجراحات أو بالأشعة .. الى غير ذلك من الطرق العلاجية .

ولنا لانكر أن الخطوة التى أقدمت عليها جمهورية مصر من ضرورة دراسة علم النفس الحديث بالمدارس والمناهج والجامعات هى خطوة جريئة الا أننا نتساءل عما اذا كان تدريس هذا العلم فى مدارسنا بصورته الراهنة ميسر لنا الى تحقيق الهدف الذى تشده الدولة من ورائه ؟ . . . أننا لانخفى أننا نتشكك فى ذلك كثيراً ، إذ نرى أن هذا العلم بمفهومه الحديث ومدارسه المختلفة يستهدف البحث عن أمراض النفس ويضع فروضا مختلفة لعلاجها لم يصل ولا نظمه سيصل بمناهجه العلمية والموضوعية الى نظرية صالحة لتفسير السلوك الانسانى ، إذ أنه من المستبعد عن

طريق استخدام هذه المناهج لإصدار أحكام تقريرية عن الشخصية الانسانية، فما زال علم النفس الى الآن وايدا لم يشب عن الطوق، كما أنه يمتد على اجتهادات بعض العلماء الذين ما يلبث غيرهم، أن يقيموا الأدلة على تهافت حججهم، وضعف مناهجهم، وضآلة تفكيرهم، واذا بهم يدمون هذه النظريات ويدحضون تلك الآراء ويدالون على فسادها وكذب نتائجها تجريديا ومعمليا . (١) .

والواقع أن علم النفس الحديث بمدارسه المختلفة التجريبية والاكينيكية والقياسية لم يتوصل حتى الآن الى تعريف الشخصية الانسانية تعريفا كافيا وشاملا وواضحا . .

أنا لا أنكر أنه قد وضعت مئات من تعريفات الشخصية، الا أن جميعها يناقض بعضها البعض، حتى تظهر لنا آخر الأمر متهافته ومعرضة للنقد أو قاصرة حقيرة . .

ويرجع السبب في قصور هذه التعريفات — في تصورنا — الى المناهج التي يصطنعها علماء النفس الحديث، ذلك أنهم جميعا مع اختلاف مشاربهم وتباين وسائلهم، يريدون أن يخضعوا الشخصية الانسانية تعريفا لمناهج العلوم الموضوعية والتجريبية، ولذلك فإنهم يضعون النظريات الافتراضية (٢) لهم يخضعون الى تعميمات يمكنهم بها تفسير السلوك الانساني، وتعريف للشخصية وأبعادها، بل أنهم

(١) راجع في هذا الموضوع المزيد من التفصيل :

(أ) هـ ، ج أيزنك — الحقيقة وتوهم في علم النفس ص : ١٢ — ١٨ ترجمة

قدري حفي درؤف نظري — باشواف د . يوسف مراد

(ب) أو الطامة الانجليزية باسم : Fact & Fiction in psychology

(٢) ك . هول نظريات الشخصية ص : ٢٩ — ٣٤ ترجمة د . فرج أحمد فرج

يأملون من ذلك تحديد أنماط وسمات الإنسان ، مثلما يجري على المادة الصماء ،
والموضوعات الحسية ، والأشياء الجامدة التي يمكن أن تخضع للتجريب والتطبيق
العلمي والمعملي . .

لقد نسي هؤلاء العلماء أن النفس الانسانية غير المادة ، اذ توهموا خطأ أنه اذا
تم لم دراسة النفس دراسة جزئية ، وذلك بتفتيتها الى أجزاء ، وملاحظتها على
هذا الاساس ، ووضع الفروض اللازمة للبرهنة على الاختبارات ، فانه يمكن في
ظنهم عمليا الوصول الى بعض التعميمات على صدق هذه الفروض بعد امتحانها
عمليا . . (١) .

ولكن بمجرد الاشارة الى أنه بافتراض إثبات صحة بعض هذه الفروض على
عينات مختارة عشوائيا ، فان ذلك لا يمكن أن يكون دليلا على تطابقها على الافراد
جميعا ، اذ أنها لا تشمل حقيقة الانسان في الزمان والمكان واذا صدقت بعض
هذه الفروض ، وصادفت نجاحا ، فأنما قد تصدق على الجزء الذي أقتطع أو الذي
تم دراسته فحسب ، وهذا الجزء يكون قد فقد الحياة التي تمتاز بها الشخصية الانسانية
المتكاملة في تفاعلها مع الغير وفي مواقفها المتغيرة وحقائقها الوجدانية المتباينة ،
ونشاطها السلوكي ، وفي اتجاهاتها العامة والخاصة . (٢)

أن هذا الاقتطاع — في تصورنا — إنما هو يترك الجزء من أجزاء الشخصية
وماملته تجريبيا مثل مادة جامدة صماء ، وبذلك يكون هذا الجزء ليس له أية
علاقة بالشخصية الاصلية في أكتالها من قريب أو بعيد .

(١) راجع . د . سيد فنيتم — سيكولوجية الشخصية طبعه ٧٢ ص ٣١ — ٣٥ .

(٢) د . صري جرجس — التراث الصهيوني والفكر الفرويدي — ص ٢٤٢ وما بعدها .

ومن ثم فإن النتائج التي يتوصل إليها علماء النفس التجريبي لا تزودنا بفهم جديد أو تعميمات كافية أو مبررات وافيه للحكم على الشخصية، كما أنها لا تبهرنا بما تقدمه إلينا من فروض وقياسات قاصرة، بتحريف واضح يصدق تماماً على الشخصية الانسانية .

ومن ناحية أخرى ، فإن مدارس التحليل النفسي ، وإن اختلفت وسائلها المستخدمة عن مدارس علم النفس التجريبي والقياس النفسي ، إلا أنها مع ذلك لم تنجح في إمدادنا بمعرفة طيبة عن الشخصية ، إذ أنها هي الأخرى قد وضعت فروضا نظرية حاولت بها أن تفسر مظاهر السلوك الانساني ودوافعه على أساسها .

لقد فرض أصحاب التحليل النفسي تعسفا ، نظريات الشخصية كأمر واقع مسلم به لا يقبل المناقشة ، فجعلوا من الحتمية النفسية حكما أبديا عاما على سائر الجنس البشري ، وتصوروا أن الكبت هو الأساس الوحيد للنشاط البشري ، فهو عملية دائمة ومستمرة لا تفتقر ولا تضعف ، لأن هناك شيئا في النفس يحاول وبلح في الوصول الى الإدراك الواعي ، أو الخروج الى عالم الواقع من أجل التحقق، وأن المقصود من الكبت هو إبعاد ما هو مؤلم عن نطاق الوعي أو الشعور .

ويمكننا القول أن أصحاب التحليل النفسي لم ينجحوا في إثبات فروضهم الاسطورية رغم كثرة تفسيراتهم وتحليلاتهم لمجالات الشعور والاشعور ، والانا والهو ، والانا العليا ، واستحداث قصص خيالي والصداقة بالشخصية كحرك وباعث ودافع للأنشطة والسلوك .

لقد جعلوا من أسطورة «أوديپ» و «الكيترا» حقائق تتنازع بها كل شخصية

إنسانية ، ونسوا أن لكل شخصية مفردة طابعها المميز في السلوك والحياة والمجتمع .

والدليل على عقم هذه الفروض المتخيلة أنها فشلت - رغم كل التفسيرات والتحليلات - في علاج أمراض النفس ، بل ربما أزدت من شقاء الإنسان المعاصر ...

وها هو أحد كبار علماء النفس المعاصرين ، هو Eysenck - أيزنك -^(١) يقول :
« أن معدل شفاء العصائيين ثابت فعليا سواء عولجوا بأدوية العلاج النفسى المعروفة أو تركوا دون علاج ،

ليس هناك إذن - رغم تعدد عيادات التحليل النفسى فى أنحاء المعمورة - من تقدم فى شفاء الأمراض النفسية والعصبية ، ويرجع سبب ذلك كله - كما سبق الإشارة - الى عقم الفروض والنظريات التى أسسها أصحاب التحليل النفسى عن حقيقة النفس البشرية .

والواقع أن عالم النفس عالم عجيب ، فهو يتغير باستمرار ولا يمكن التنبؤ بتصرفات الفرد وسلوكه المقبل مهما وضعنا من المقاييس الدقيقة، والمنهج الموضوعية، ذلك لأن النفس البشرية ليست مادة جامدة ، إنما هى عالم له أبعاد عميقة الغور ، متشابكة المصالح ، غير مقيدة ولا معينة ولذلك لا يمكن قياسها بقياسات وأدوات محدودة

(١) ه . ج أيزنك - الحقيقة والرهيم فى علم النفس ص : ١٥٨ - ١٦٠ ترجمه قدرى حنفى وكذلك :

Eysenck H. J. (Ed.) Handbook of Abnormal psychology
chapter one - london. pitman 1960.

كما أنه من الصعوبة بمكان اخضاعها لأي منهج من هذه المناهج سواء كانت عملية أو موضوعية ، اذ كيف نحكم على ما ليس مقيد ولا محدود بما هو مقيد ومحدود ١٩ .

علينا إذن أن نسعى جاهدين للبحث عن فهم رشيد للشخصية الانسانية انستقى منه الحقائق التي لا جدال فيها، ولا تتصور ذلك يمكننا الا اذا ابحنا الى النبع الفياض، والحق الذي لا يتطاوله عقل ، فنعرف الشخصية بتعريف لم يضعه بشر عاجز ، ولا حس مريض ، ولا عقل ناقص ، ولا إرادة مائلة الى الهوى ، إنما وضعه إله كامل ، ثابت ، ليس كشيء أزلي أبدي ، لا تبديل لكلماته . . ولا تغيير في آياته ، فهو تعالى عالم بخلائقه وبجبلات نفوس مخلوقاته ، بصير بعيوب عباده . .

لقد عرفنا تعالى بنفوسنا أكل معرفه وبين لنا الطريق الحق للسمحة النفسية في الدنيا والآخرة ، واذا كان علم النفس الحديث بمدارسه المخالفة قد تخط في وصف أمراض النفس ، وحاول علاجها بطرق سلبية ، واساليب تخديرية هي بمثابة مسكنات لأمراض سرطانية ، ما يثبت أن يزول تأثيرها فيرجع المريض الى حالته الأولى من المرض والعصاب .

ولقد استخدم لذلك أساليب وطرقا عقيمة كالإيحاء ، والتبريم المخاطبي ، والتنفيس ، واللعب ، والتداعي الحر ، وتفسير الأحلام ، والأباطيل . وغير ذلك من الطرق السطحية ، وحتى لو افترضنا تخلص المريض عن طريق هذه الطرق من بعض أمراضه الباطنة فانه ما يثبت أن يشحن مرة أخرى بأمراض جديدة أكثر ضراوة تزيد من تفاقم حالته .

إن الطريق الحق لعلاج النفس من أمراضها إنما يمكن في تخليص النفس من نزعاتها الشهوانية وأهوائها النفسية ، وأوصافها المذمومة ، وتخليصها بالأوصاف

المحمودة ، وبذلك يمكن شحن فراغ النفس بعد التخلية ، بمفاهيم إيجابية جديدة ومبادئ سامية قوية ، حتى تتغير حال النفس وتتطبع بالمثل العليا والاخلاق الفاضلة ، وتلك طريقا أكثر أمنا وأعظم أملا .

ولن يتحقق الإنسان ذلك الا بالتربية السليمة ، والتنشئة على محبة الفضل - ائله وباتمسك بتمكارم الاخلاق . وبالتبصر بطريق الله ، وبالصبر على المكاره ، وتحمل الفاجعات ، والتزهد فيما عند الناس ، والصبر على الابتلاءات والرضا بالاختبارات وبهذا الطريق وحده تتفوق النفس على انانيتها ، وتقوى على شيطانها ، فلا تنزع إلى الاهواء ولا تميل إلى الشهوات

ولذا أستقام الانسان ، فإنه يلهم بالحقائق - فضلا من الله ومنه - فيحييا بالخشية قريبا من الله ، وينجو بالخوف من وعيد الله ، ويقبل بالرجاء في وعده تعالى ، فتطمئن نفسه بحب الله ، فلا تشغل بسواه ، وبذلك تنسى غرورها ، وتكبرها ، وتجبرها ، وتعالها ، فيصلح حالها وتبتعد عن النقائص والآفات ، وعن الوسوس والهواجس والأمراض . .

فاذا كان علم النفس يريد حقا أن يتعرف على حقيقة النفس البشرية ويسعى إلى حكم رشيد على الشخصية الانسانية ، فعليه أن يغير من وسائله وغاياته ، ويبدل نظراته المحدودة ايصبح قادرا على الوصول إلى نتائج إيجابية تفسر سلوك الانسانى تفسيراً صادقا وسليما

ولن يتمكن علم النفس من الوصول إلى ذلك إلا إذا اتبع منهجا إسلاميا قد استقى مادته من علم الله ، ومن آياته - تعالى - نظرياته وأفكاره . فيحقق بذلك أبحاثه ودراساته ، ولا يتناقض مع نفسه في تبرير فروضه المتخيلة وتفسيراته الداجنة وتحليلاته السطحية الفاترة .

ومعنى أن يكون علم النفس علماً إسلامياً أن ينطلق من قوله تعالى :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (شمس : ٨٧)

« وهديناه النجدين » (البك : ١٠)

« وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه » (الاسراء : ١٣)

« وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء » (يوسف : ٥٣)

« يا أيها النفس المطمئنة أرجعي إلى ربك راضية مرضية » (الفجر : ٢٧، ٢٨)

« تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب » (المائدة : ١١٦)

« أنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم » (النساء : ١١٣)

« لم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (آل عمران : ٦٦)

« لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » (آل عمران : ٧١)

« أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون » (الاعراف : ٦٢)

الفصل الثاني

بين علم النفس الاسلامي وعلم النفس الحديث

أعطى فرويد مفهوماً جديداً للشخصية غير المفهوم الذي كان سائداً قبله ، اذ اعتبر الشخصية مجموع ما لدى الكائن من السمات ، أى مجموع حسابى ناتج من عمليات حسابية مجردة ...

فقال (١) : إن الشخصية عبارة عن تفاعل متبادل بين حاجات الفرد الداخلية « الغرائز » وبين العالم الخارجى « الموضوعات » ..

ومعنى ذلك اشتراك عوامل متعددة فى بناء الشخصية ، تنمو من تفاعلات متبادلة بين البيئة الاجتماعية والتكوين الوراثى .

لقد ركز فرويد على الغرائز واعتبرها الأساس الأول الذى بنى عليه نظريته ، أما البيئة فحدد دورها فى تكوين الشخصية ، بل وحصره فى امكانية اشباع الغرائز وتلبية حاجات الفرد أو احباطهما ...

ويخلص فرويد الى أن الاوضاع الحضرارية ، والبيئة تفرضان قيوداً وقيماً على شخصية الطفل .. ومن ثم تتنازع هذه القيم والقيود مع الحاجات والمطالب الغريزية التى تريد اشباعاً فيحدث صراعاً بين قيود البيئة .. وبين الرغبات الغريزية الامر الذى يتختم معه التلويح بالعقاب من جانب البيئة لمعارضة الغرائز لها ...

(١) د . صبرى جرجس - التراث اليهودى المسيونى والفكر الفرويدى ص ١

ولذلك تقوم البيئة بتهديد الغرائز في صور متعددة . . أقصاها الحرمان من الحب ...

ومن حصيللة هذا الصراع — في رأى فرويد^(١) تتكون شخصية الفرد سماتها وخصائصها — في الخمس سنوات الأولى من حياة الطفل ، ومهما يكتسب الفرد — بعد ذلك — من خبرات في المراحل المختلفة من حياته ، فإن شخصيته لا تتأثر كثيرا ، فلا يحدث تغييرا عميقا في معالم الشخصية ، بمعنى أن ما يحدث بعد ذلك إنما هو طلاء وزخرفة البناء — شامخ استقام جذرانة . . أى أن كل إضافة جديدة إنما هي داخل الإطار العام للشخصية التي سبق تكوينها في السنوات الخمس الأولى ...

ومن ناحية أخرى تأثر فرويد بالانهاض التي سادت القرن ١٩ واستعار أراءها وفي جملتها تزعم أنه لا يوجد أى قوة عاملة داخل الكائن ، غير القوى الطبيعية الكيميائية ، هذه القوى ترد الى قوتين : الجذب .. والدفع ..

وبخلاصة ما تستهدف اليه هذه المدارس . . أن عالمي الكائنات النباتية والحيوانية أسرة واحدة ، وان اختلفت مظاهرها ..

والنتيجة الحتمية لهذا الرأى إنما تكون في اعتبار عملية التطور للكائنات عملية دينامية ، وليس هناك من خارجها محركات دليسا ، أى انكار تام للجواهر والارواح والتنظيم والتخطيط من أعلى ، بل إعتبار أنه ليس هناك إله كامل يؤثر في هذا العالم^(٢)

(١) د . سيجموند فرويد — الموجز في التحليل النفسي مترجمة د . سامى محمود على

ص : ١٠٦ — ١٠٧

(٢) سبق الى القول بهذا الرأى أبيقور الفيلسوف اليونانى القديم صاحب مذهب اللذة

وهذه الفكرة المستعارة من ملك المدارس قد عمل فرويد على تليقها في مذهبه لتفهم ير الملوكة الانه انى اىخرج انما نظرية غريبة تدعى أنه يمكن اعتبارها هو غير معقول معقولا ، عن طريق ما أسماه بالحمية النفسية ، ومؤدى هذه النظرية أن كل مظاهر السلوك التى تبدو غريبة . . وغير مفهومة هى فى واقع الامر نتيجة منطقية لأسباب سابقة إرتبطت بها وأدت اليها .. فمثلا الاعراض المرضية ، كفقدهذا كرة ، أو عثرات اللسان انما ترجع الى أسباب متصلة بالجانب اللاشعورى فى الانسان .

واللاشعور الذى تناوله فرويد وربطه بالحمية النفسية ، لم يكن هو أول من اكتشفه .. ذلك أننا نجد احبار اليهود فى التراث الصهيونى قد عالجوا موضوع اللاشعور الذى يعد ضربة موجبة لعقل الانسان وارادته (١) ، اذ أن الانسان عند فرويد مدفوع لاهماله بقوى لاشعورية .. وبذلك أطاح فرويد بالارادة والاختيار والعقل .. واستبدل بهم اللاشعور الذى يراه قمة الدوافع والرغبات والغرائز الحيوانية ...

اقد جعل اللاشعور مستودع المكبوتات من انفعالات وحاجات ، وجمع فيه مايعرف وما لايعرف ، وأرجع اليه مايعقله الانسان وما لا يعقله ، فهو مستودع أوحال .. ومخزن أفكار .. ومحل يحوى من الابرء الى الصاروخ .. كل شىء فى اللاشعور .. وكل شىء من اللاشعورء ولاشىء خارجه ...

== الذى قال : أر الامة لا يهتمون بالبشر وانهم مشغولون هنا .. د راجع لمزيد من الايضاح للاستاذ يوسف كرم - تاريخ "الغلاة اليونانية" ..

... كأن الانسان كتاب تعرف موضوعاته بقراءتها، أو اطار سيارة يبلى بعد استخدامه ٥٥ ألف كيلو، أو كأن الانسان عبد طفولته .. لا يستطيع عنها عتقا أو أنه أسير لشعوره .. لا يقدر عنه تحررا ١١ .

لقد جعل الشعور بالإثم ، الخطيئة ، لا شعوريا أيضا .. بلا علم الانسان وبلا ارادة .. وبلا اختيار .. أى مفروض على لا شعور الانسان ... (١)

لقد خلط فرويد بين جبلات النفس ، وبين ما أودعه الله في الانسان من مواهب ولطائف شريفة .. كالعقل والقلب .. والروح ، فبسط بالانسانية الى أسفل ساذلين .. وقد خلقها الله في أحسن تقويم ...

جعل الغرائز والشهوات .. مهيمة الأبدى .. وغايته .. أراد .. أولم يرد .. وحتى إن ارتفع عنها ، وتسامى فما ذلك الا .. برفان ، يخفى ذنبيته ، ويحتمل به لإشباع غرائزه المتوحشة ، ونسى القوة الربانية التي وهبها الله للانسان من خير وصبر وورع .. وتقوى ، ومن ضمير وعقل ...

فلا وسط ولا اعتدال - عند فرويد - وإنما انقياد أعمى للغرائز ، وارجاع أعور للشهوات ، ودفع .. ويجذب من آلة صماء يفسر بها قوانين العلة والمعلول ولا تفسير خارج عنها .. ولا قوة تليها تستمد منها حركتها ، وإنما سبب ومسبب مادي ... وكأننا في ورشة ، أو مصنع حديث ...

ولكننا نتساءل .. من خلق السبب ؟ ... بل من خلق العلة والمعلول في هذا الانسان الحاصل على كل شيء في داخله ؟ ...

لقد رد فرويد الشخصية الانسانية المتعددة الجوانب ، والتي تحمل حدد الخير
وحدد الشر ، والحق والباطل ، الايمان والفكر ، السمو الى الكمالات الاخلاقية ،
والسقوط الى البهيمية ...

رد فرويد حقيقة الانسان الى قوى غرائزية غامضة .. تدفعه الى سلوك غير
متبصر .. وأعمال قسرية غير واعية .. فسحب عقله وجعله حيوانا أعجميا تقوده
ضغوط البيئة في العمل والسلوك والحياة ..

فالذى تقبله البيئة يملكه الفرد ، والذي ترفضه البيئة يكبته .. فأى صورة
مشوهة هذه للانسان ؟ .. ألم يرفضه الله !! أم يصوره على صورته (١) . ألم
يقول تعالى :

« لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » (التين : ٤)

ثم أن فرويد يدعى أنه يمكن تفسير أمراض وتصرفات الانسان الحاضرة ،
بدون شيء خارجي .. أى أن الانسان يحمل في ذاته تلال معلولاته ، وأسباب
مسيباته والمطلوب الرجوع الى السجل انفتحه ونقرأ ، لنعرف سبب ما يحدث له ،
وما يحدث ليس غريبا ولا غامضا .. لاننا نكشفه بمجرد أن نرجع لماضى الفرد ،
وبالأخص لطفولته .. وبالتحديد للسنوات الخمس الاولى .

لاداعي اذن للتوبة .. لان هناك حياة نفسية حتمية ولاداعي للنسليم ..
فهذا الانسان تحركه دوافع وحاجات قسرية .. وأن الخطيئة والاثم لا يفعلهما
الانسان بارادته .. فالانسان مغلوب على أمره .. وهذا الرأي مرفوض في
جميع الشرائع ، بل ومرفوض أيضا في الفطرة السليمة ...

(١) «خلق الله آدم على صورته» .. حديث شريف عن أبي هريرة وأحمد في مسنده ..

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتواها » (الشمس : ٨٧)

« وهديناه النجدين » (البلد : ١٠)

أى طريق الخير وطريق الشر ... وأن الانسان قادر على أن يختار بين :

« ولا تزع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه » (الكهف : ٢٨)

وبين :

« من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » (يوسف : ٩٠)

إذن الانسان قادر على الاختيار ، بل قادر على الصبر وكظم الغيظ ، وعلى تحمل ضياع المحبوب واحتمال المكروه ، وذلك بالمعزم ومخالفة النفس ورياضتها وسياستها ، فالصابر يحبس نفسه عما تنزع إليه من الشهوات ... وما تشكو من الآلام :

« ستجدنى ان شاء الله صابرا » (الكهف : ٦٩)

والصبر يأمر به العقل ... موهبة أودعها الله الانسان ، وليس بصحيح ما يدعيه فرويد بأن الكبت لا دخل للعقل فيه ، وبأنه عملية لا شعورية .

ليس بصحيح هذا الرأى ، وإذا فاضلنا بين فوائد الصبر وما يجلبه على الانسان من الخير عاجلا ، ظهرت حينئذ فضائل العقل وخساسة الهوى ...

والذى يصبر ويكظم غيظه ، قادر أن يغضب وأن يشور وأن يؤذى لأنه فى موقف اختيار ... إلا أنه يختار الأفضل والأحسن والأبقى .. وذلك وارد فى قوله تعالى :

« والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين »

(آل عمران : ١٣٤)

لقد كبت سيدنا يعقوب - عليه السلام - ألمه ، وكظم غيظه ، وكم حزنه
عندما أخبر كذبا بأن لابنه يوسف - عليه السلام - قد أكله الذئب ، فورد قوله
تعالى عنه :

« وتولى عنهم وقال يا أسنى على يوسف وأبيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ،
(يوسف : ٨٤)

لقد صبر يعقوب - عليه السلام - وتحمل مفارقة ابنه له ، وحبس نفسه
عن الشكوى لغير الله ، لأنه آمل في الله ، لقد عرف أن ذلك اختبار وأمتحان
من الله تعالى بقوله عن الله تعالى :

« ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ، (يوسف : ٩٦)

وكانت ثمرة الصبر أن جمع الله بينه وبين يوسف في لقاء كريم ، وأرتد بصيرا
« فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، قال ألم أقل لكم إني أعلم
من الله ما لا تعلمون ، (يوسف : ٩٦)

فالإنسان المؤمن يكظم غيظه ، ويصبر لله وفي سبيل الله :

« واصبر حتى يحكم الله ، (يونس : ١٠٩)

كما يتحمل الألم وهو واع به ، آمل في الله ، عالم بصبره ولا كيف يصبر كما
يقول الله تعالى :

« وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراء ، (الكهف : ٦٨)

الصبر موقف علم وحال وعمل وجهاد للنفس ، ومخالفه لاهوائها ، وليس
موقفا مرضيا أو عصايا ، وإنما هو موقف يدل على الصحة النفسية والقدرة على
تحمل الابتلاءات... (١)

« فصبر جميل » (يوسف : ٨٣)
وعكس الصبر الجزع والقلق والخوف والهلع ، وذلك وارد في قوله تعالى عن
الصابرين :

« والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » (البقرة : ١٧٧)

أى الصابرون في جميع الاحوال دون اعتراض أو تمرد أو رفض :

« إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » (ص : ٤٤)

« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » (الانفال : ٦٥)

والمكبوت غير الصابر لأن المكبوت كما يتهوره - فرويد - مريضا جزعا ،
يحيا في عالم من الاوهام ، لا تتحمل أعصابه شيئا ، وانه كآلة مشدودة .. تكاد
تقطع أوتارها .

أما الصابر فهو قوى بالله ، أمل في الله ، لانه صاحب عقيدة .. يؤمن بها
إيمانا لا ريب فيه ... الصابر يغلب مائة أو عشرة أو اثنين على الأقل غير
صابرين .. (١)

والصبر ابتلاء من الله ، وليس ناتجا عن ضعف بيئية قسرية كما يدعى فرويد
لأنما هو امتحان للفرد لمعرفة قدرته على التحمل في سبيل الله :

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » (محمد : ٣١)

فالصبر خوف من وعيد الله ، فلا يقدم الصابر على إقتراف إثم أو خطيئة

ولا يشعر بمحقد أو حسد . . . والصبر رجاء في وعد الله ، فلا يطلب الصابر لذة حسية أو شهوة عابرة ، إنما آمل على الدوام في فضل الله . . . ونعم الله . وعطايا الله ، وعون الله :

« إن الله مع الصابرين ، (البقرة : ١٥٣)

ليس هناك بين الصابر وبين ربه حجاب ، فهو آنس بالله ، آمن بما يمدده الله من سكينه وطمأنينه :

« وما صبرك إلا بالله ، (النحل : ١٢٧)

فالصبر ليس سلبيا ، والصابر ليس مغلوبا على أمره ، وإنما يقف موقفا إيجابيا فيه سمو عن الاحداث ، وأرتفاع عن الغرائز ، ورضا بالقضاء ، وليس هو بموقف المرتعب ، وإنما هو موقف المطمئن ، هو سكينه ليس فيها حجة . . . ولا حركة ، وإنما موقف علم أو معرفة إيمانية أساسها الحكم السليم . . . والعقل الراجح الذي يهدف إلى الاستقامة ، والاستقامة هنا : الوسط العدل ، الذي هو العمل الصالح ، والخير الفاضل (١) . . .

أما الغفلة فهي حركة فيها ضعف ، والضعف اضطراب وتلق فيعمى الانسان عن الحق ، ويختلط الصالح بالطالح ، فتسير الانسان غرائزه ، مادام العقل غافلا . . .

أما الصابر . . . فهو كراة تتلألأ عليها الانوار وتلقى الحقائق في انتظار فرج الله . . .

(١) راجع لهؤلف - الشريعة والحقيقة - «العدل» ص ٨٥٠

«لأنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، (يوسف : ٩٠)
وفي تصورنا أن الانسان ليس مستودعا للشهوات والرغبات والحاجات
الغريزية فحسب — كما يدعى فرويد وتلاميذه — وإنما إذا كان الله قد أودع في
جيلة الانسان بعض الشهوات والآفات والعيوب ، فإنه أيضا قد وهبه عقلا راشدا ،
وقلبا واعيا ، وروحا من لدنه تعالى .. فاذا وقع الانسان في الإثم .. فعليه أن
يبادر إلى التوبة ..

والتوبة ندم ، والندم موقف علم ايجاني .. لأن فيه مخالفة لاهواء النفس
واختيار للوسط العدل ، ورياضة أساسها العزم وسياسة .. ورعاية .. ومحاسبة
ومراقبة .. تستهدف رجوع النفس إلى الاعتدال والتوازن (١) ..

فالندم توبة ، (٢) لأنه رجوع إلى الحق ، وبعد عن الإثم والعدوان ، بل عن
الجهل والجهالة .. تصديقا بقوله تعالى :

«لأنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة» (النساء : ١٧)
أما الذي يعمل السوء ... وهو يعلم الحق ، فهو المنافق والمرائي ، والكاذب
والمخادع ، والمرجف ، والفاسق ، والكافر ، وجميعهم أصحاب قلوب مريضة وعقول
حتمى . ونفوس فاجرة ..

ليس إذن — كما يدعى فرويد — الانسان مغلوب على أمره . وأن الحتمية

(١) حديث «الدم توبة» ذكره ابن ماجه وابن حبان والعاظم وصححه اسناده من حديث
ابن مسعود .

(٢) راجع ألفاظ الصوفية من ١٠٤ المؤلف .

الإنسية^(١) هي ميراث مفروض وقد رُحِّمَ ، لا يستطيع الإنسان منه خلاصاً
إنما حقيقة الأمر ، أن الطريق واضح جلي ... والإنسان عليه أن يختار ... إما
طريق الحق ، أو طريق الباطل :

«وأسروا قولكم أو أجهروا به ، أنه علم بذات الصدور» (الملك : ١٣)
فالباطل والظاهر ... والشعور واللاشعور ... كاه بهلم الله . ومنه الله ...
وقضاء الله ..

والإنسان مطالب بأن يتقى ... ويصبر ... وأن يهجر فسقه وهوى نفسه ،
وأن يصدق ظاهره مع باطنه ، فإذا تم له ذلك وهداه الله إلى الرشد فلا أمراض
نفسية ... ولا عصاب ولا مذلة ... ولا خضوع أو مسكته لغير الله ، إنما
يصحب المؤمن قلباً سليماً ، وعقلاً رشيداً ، أما الفاسق فهو مخادع ... يكذب ويرائي
لمرض في نفسه :

«يا أيها الذين آمنوا إن جامكم فاسق بئناً فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة، فتصبحوا
على ما فعلتم نادمين» (الحجرات : ٦)

وهذا الفاسق قد اختار لنفسه الظلمة طريقاً مسدوداً ، فأوقع نفسه الأمراض
والعلل .. لجهله وفساده واختياره .. وحق عقله .. ومرض قلبه ، فغفل عن الحق ،
واتبع الهوى :

«ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه» (الكهف : ٢٨)
«ومن أعرض عن ذكرى ، فإن له معيشة ضنكا» (طه : ١٢٤)

« وإذا ذكر الله وحده إشعادت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر
الذين من دونه إذ هم يستبشرون ، » (الزمر : ٤٥)

« إنما يتذكر أولو الالباب ، » (الرعد : ١٩)

ونحن لا يمكن أن نتشقق مع منطق فرويد في أن العصبيين هم حملة مشاغل الحرية
والخضارة ، بل على العكس ، هم حملة الظلمة والخوف والرعب والفرع واليأس
والقنوط ، ومادام العصبي كما يدعى فرويد ، بركانا يغلي من الداخل ، ومستودعا
للمتناقضات ... والمبكوتات التي لا تستطيع نفاذا على سطح الشعور فإن العصاب
ليس تعبيرا عن نفس القوى التي أدت إلى أسس أمان جنسنا وإنما على العكس من
ذلك تماما يمثل العصاب أنواعا من الأمراض التي يصاب بها أصحاب الوسواس
والرياء والفسق والفجور ... والعصيان !! وكل من في قلبه مرض ، وكل
من يشيع القاحشة والاضطراب في الناس . تصديقا لقوله تعالى :

« لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، والمرجفون في المدينة لنغرينك
بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا ، »

(الأحزاب : ٦٠ ، ٦١)

فالمرجفون كالمنافقين .. نوءدهم الله تعالى بالرجفة .. وهي الاضطراب
الشديد والقلق والفتنة .. هؤلاء هم المنافقين ، الذين فسقوا وخانوا عهد الله بعد
ما بلغوا برسائله ونصحهم النبي صالح عليه السلام ...

« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم
رسالة ربي ونصحت لكم ولعلكن لا تحبون الناصحين ، » (الأعراف ٧٨ ، ٧٩)
لذلك فأننا نرى أن الأمراض النفسية العصابية التي يذكرها فرويد ، إنما تنطق

على مريض القلب ، الذى لا إيمان له ، المتهالك على هوى نفسه ، والذى عبدها ،
وسجد لها .. وأما المؤمن بالله فلا يصاب ، ولن يصاب بهذه الامراض مادام
مخلصا له تعالى لانه يعرف طريقه ، ويتجه إلى خالقه بكليته ، ويخالف حظوظ نفسه
وأهوائها وباطنه وظاهره سواء .. فهو صادق فى سره وعلا نيته ، لان الله سبحانه
وتعالى يطمئن قلبه ، وذلك تصديقا لقوله تعالى :

وقال لا تخافا أنى معكما أسمع وأرى (طه : ٤٦)

أما الفاسق فهو المذكور فى الآية الكريمة :

وأولئك الذين طبع الله على قلوبهم وأتبعوا أهواءهم (محمد : ١٦)

وأولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ، (محمد : ٢٣)

وصم بكم عسى فهم لا يرجعون (البقرة : ١٨)

ولذا كان فى زعم — فرويد — أن هناك فى منطقة اللا شعور تناقضات وخطا
بين قوى غريزية جنسية متصارعة (١) .. فأننا نرى أن ذلك فرضا لا أساس له
من الصحة ، انما هناك قلب مريض ، فيكون باطن الانسان مريضا ... وقلب
مبليغ ، فيكون باطن الانسان سليما ، لقوله تعالى فى ذلك :

وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه (الاحزاب : ٤)

فليس هناك اذن .. تناقضات فى قلب الانسان وضمير الانسان وليس
هناك ميراث لاشعورى يحمله الانسان ، إنما كل ما يعمله الانسان مسئول عنه

(١) راجع ك . هول — نظريات الشخصية — ترجمه د . فرح أحمد فرح — مراجعه د .

لويس ملبك م ٢٩ — ٢٤ — البيئه المصريه العامه للكتاب

وكل ما يحمله مرفوع عنه حساب ، ولا يمكن أن يحمل الحق تعالى الانسان أوزارا
أو أعباء هو غير مستول عنها ...

ولذلك كان الخطاب من الله — سبحانه وتعالى — دائما للذين كذبوا بآيات
الله والذين صدقوا آياته ، فيقول تعالى :

« والذين كذبوا بآياتنا هم وبكم في الظلمات » (الانعام : ٣٩)

« أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمى » (الزخرف : ٤٠)

والله ينذر قبل أن يحاسب ويبغى قبل أن يعاقب ، ويعرف قبل أن يسأل :
« إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مستولا »

(الاسراء : ٣٦)

الله سبحانه وتعالى إذن يعلم عبده بالطريق الواجب الاتباع :

« فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون » (الحديد : ٢٦)

والادعاء بأن الانسان مغلوب على أمره قول مرفوض ، ذلك أن الله قد
أنذر العباد منذ الخلق الأولى ... وأخذ عليهم ميثاقا ذليلا ولكن بعضهم نقضوا
العهد :

« نسوا الله فأنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون » (التوبة : ٦٧)

والمشرك بالله في غفلة ، وهذه الغفلة يظن كذبا أنها مؤدية لخيره وسعادته ...

والشيطان يحسن له سوء عمله ويوسوس له فينقاد إلى الهوى لغوره ...

« قال فبعرتك لا أغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين »

(ص ٨٢ ، ٨٣)

« فطال عليهم الأمد ففقت قلوبهم وكثير منهم فاسقون » (الحديد : ١٦)
والمنافق فاسق ، مريض القلب ، يخادع الله ، ويستظهر الطاعات وقلبه خال
من الصفاء :

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » (النساء : ١٤٢)
بل إن قلبه كاذب ... كذوب :

« والله يشهد أن المنافقين لكاذبون » (المنافقون : ١)
« بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما » (النساء : ١٣٨)
والمنافق والكاذب والفاسق يعلمون الحق ... ومع ذلك يحرفون الكلام عن
مواضعه ليخادعون ... ولسان حالهم يكشف عن باطنهم :

« ويقولون سمعنا وعصينا » (النساء : ٤٦)
ومثل الفاسق كالذي يبني في ملك غيره ، ويجور عليه ، ويدعى أن ذلك حقه ،
فذلك ابتداء منه وظلم ... وغواية ... وسقوط بل هو التسلط والتجبر والتكبر
وكذلك حال المنافقين فحكمهم كالفاسقين ،

« إن المنافقين هم الفاسقون » (التوبة : ٦٧)
لأن المنافقين ولو أنهم يتظاهرون بالاستقامة إلا أن قلوبهم مريضة :
« الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظرة المغيى عليه من الموت »

(محمد : ٢٠)
ويحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تلبسهم بما في قلوبهم ،

(التوبة : ٦٤)
فليس هناك إذن موقف لا أدريه ، وإنما هناك موقف إيماني ... وموقف
أنحرافي فالمنافقون ... قلوبهم مشحونة بالحق والكراهية :

«رضوا بأن يكونوا مع الخوائف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون»

(التوبة : ٩٢)

«يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم»

(الفتح : ١١)

«قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم»

(المائدة : ٤١)

فاذا ادعى أصحاب علم النفس الحديث بعد ذلك أن المريض العصبي

مغلوب على أمره .. فهذا فرض غير مقبول نظرا وعملا ...

الفصل الثالث

١ - طبيب النفس الاسلامى

انه لمن الواضح أن أصحاب العلم الحديث قد نجحوا الى حد كبير فى دراستهم العملية على المادة وأدواتها ومستحدثاتها .. عن طريق الاختبار والتجريب المعملى دراسين ومحللين ومطابقين أبحاثهم على المواد وخصائصها وتفاعلاتها وظواهرها ، والواقع أن سر نجاحهم يكمن فى استخدامهم موادا يمكن الكشف عنها عن طريق العقل والحس .. بل وجائز فيها التحليل الاستنباط والترابط والابتسكار والاستحداث والكشف والاختراع .

أما استخدام مناهج علم النفس التجريبي فى دراسة الشخصية الانسانية ، فهو جهد ضائع وأسلوب عاجز ناتج عن معرفة قاصرة ، حيث أن هذه الدراسة كما سبق القول تتبع أسلوب التحليل والتجريب لأجزاء من الشخصية وذلك بتفكيكها الى عناصر لتصبح سهلة طيبة حتى يمكن اخضاعها الى الدراسات العملية والابحاث المعملية .. وهذا لا يمكن تصوره فى دراسة النفس الانسانية ..

كما أنه من التوهم - من ناحية أخرى - دراسة السلوك الكلى ، كما يستخدم حاليا فى التحليل النفسى ، اذ تستبطن نتائج مفترضة تلصق تعسفا بفهم وم الشخصية باعتبارها حصيلة اكلينيكية، ثم الادعاء تعسفا - بعد ذلك - أنها مقاييس صالحة لها فى تقييم أبعادها المختلفة .

والحق أن هذه الحصيلة من الدراسات المتناقضة، قد أضرت فى دراسة الشخصية أكثر مما أفادت فان نظريات الشخصية لم توصلنا الى فهم دقيق لسلوك البشرى ،

بل على العكس أضافت صعوبات جديدة في فهم الشخصية إذ أنها وضعت افتراضات متخيلة ، جعلت تفسيرنا للشخصية أكثر إبهاما وغموضا ، بل وجعلت فهمنا لها أكثر استغلاقا ، مما كان قبل نشأة التحليل النفسي بمدارسه ومناهجه المختلفة...

اننا نتصور أنه كان الأجدر بالنسبة الى أبحاث علم النفس التجريبي والاكلينيكي ، أن يتخذوا لها منهجا آخر أكثر ايجابية ، وأقل ضرورا في دراسة السلوك الانساني .. بل كان دليهما ان يستحدثا أساليب لا تستند الى الأسس التجريبية فحسب ، بل تعتمد اساما على وصف صادق للنفس البشرية .. وبذلك يمكن أن ترتبط الشخصية ارتباطا وثيقا باطار معين ، وأفكار محددة ، قبل البدء في دراستها ، تكون بمثابة المنار لفهم السلوك الانساني ..

ومن ناحية أخرى ، انه يتوجب فيما يتعلق بالعلاج النفسي غرس النواحي الايجابية المفيدة المستمدة من نور الايمان كحب الفضائل وأعمال الخير والايثار ، ولاشك أنها جميعا تعاون المعالج على بث السكينة والامن بدلا من إثارة الغرائز بدعوى التنفيس ، ولاشك أن ذلك يساعد على تكامل شخصية المريض ..

أما النظرة الحالية التي تقوم على التنفيس عن عيوب النفس ، ومتابعة السلوك الانحرافي وتقييمه ، فهذا في واقع الامر دراسة للنواحي السلبية وحدها ، والتي يمكن أن تضر أكثر مما تفيد ..

وبمعنى آخر .. كان على المهتمين بعلم النفس وفروعه المختلفة أن يتبنوا الطريق الامثل لحل مشاكل هذا العلم .. لعلاج مرضى النفس ، وذلك بتعميق المفاهيم ، وغرس مبادئ الاخلاق ، وتلقين الجسلاء الاسس السليمة لرسوخ العقائد الالهية ، وتبصيرهم بطرق علاج آفات النفس عن طريق الامر بالمعروف

والنهي عن المنكر وتغذية قلوبهم بالصدق الذي يساعدهم في حل مشاكلهم في الحياة الدنيا والآخرة ..

كما أن على المربين تربية نفوس طلابهم على العادات الصالحة .. كالصبر عند الفاجعات . والشكر عند النعم .. وتعويدهم على الإيثار بدلا من الأثرة وترشيدهم الى طرق مخالفة النفس، حيث أن النفس لاتصدق، ولا تتبع عن مداومة الطلب، كما يجب توجيههم الى تحلية نفوسهم بالأوصاف المحمودة، وتخليتها عن الأوصاف المذمومة ..

ولاشك أن ذلك يساهم مساهمة ايجابية في علاج أمراض النفس، والقضاء على التوتر واليأس والذمت، الذي اذا ترك دونما علاج فانه يسبب الانحراف، أو يصيب النفس بالآلام والمطب ..

ان المناهج المستخدمة - حاليا - في العلاج تعتمد على وصف وتشخيص السلوك الانساني المرضى باعتبار حقيقة من حقائق الشخصية الانسانية، وهذه المناهج تزعم في جملتها أن العدوان والشهوة واللذة، منابع أصيلة للسلوك، وأن عقدة أوديب وعقدة البكترا، مراجع رئيسية تكمن فيها جميع أنواع التصرفات .. كما نجد ذلك عند أصحاب التحليل النفسي وعلم النفس الفرضي ونظريه التعليم، وجميع هذه النظريات تدين بوجودها الى معامل الحيوان II وشتان ما بين الانسان والحيوان ..

وفي تصورنا أن الطريق الحق لعلاج الانسان، انما يركز على شخصيه المعالج نفسه، اذ يتوجب على القائم بالعلاج أن يكون أخلاقيا، صاحب قيم عليا، سائرا في طريق الخير، عارفا بطريق الحق، عاملا عابد الله، لا ينشد منفعة أو مصلحة اللهم الا الحق والخير اللذين هما طريقا الحقيقة والسلوك الصالح، اذ أن

المعالج الذى تتطبع فى نفسه الصور المشرقة الشريفة بدل الآفات والعيوب والنقائص هو أكثر قدرة على فهم نفسيه الفرد . . . ومن ثم علاج آفاتها . . .

فالطبيب يجب أن يكون اذن قبل كل شىء مربيا فاضلا ، ذا تجربه شخصيه وذوقه فرديه ، ومن هنا يستطيع أن يساعده مريضه على اكتساب الفضائل ، وذلك عن طريق مساعدته على جهاد النفس ، ومخالفه أهوائها وشهواتها ، وكذلك تعويده على المحبه بدل العدوان والكراهيه ، وعلى الرضا بدل الثوره والتمرد ، وعلى الصبر بدل الرعونه والحق والاندفاع ، وعلى التوكل بدلا من الشك والريبه والشك . . . وعلى أسقاط التدبير مع الله بدلا من الاعتراض والمجادلة والمغزو . . . وبالجملة إبعاده عن الآفات التى تحجب الانسان عن التعرف على الحقائق ، والتى اذا تسلمت على الشخصية الاساسيه أضعفتها وفككتها ، وقادتها الى الانحراف ، واندفعت بها الى طريق الغواية والضلال ، ثم تركتها اخيرا نهيا للضياع بعد ان يصبح صاحبها شخصية مريضة . . . لا ينفع معها دواء ولا علاج . . .

أنا نتساءل؟، كيف يمكن لعلم النفس أن يتصور وجود شخصية سوية متكامله دون أن تكون هذه الشخصية آمنة ، راضيه من الداخل قبل أن تتوافق وتتكامل من الخارج . . .

لقد عرض فرويد حالة مريضة . . . وهى فتاه مصابة بمرض المثلية الجنسية — ممارسة الجنس مع نفس النوع — ويقول أنه استخدم جميع الممارسات الاكلينيكية لعلاجها . . . وفشل فى علاجها . . . وهذا معناه قصور منهج التحليل النفسى الذى يخضع لفروض متخيلة ونظريات لم يثبت صحتها بعد . . .

والواقع أنه لا يمكن أن يتحقق للشخصيه كمالها الا اذا وافق خارجها داخلها . . . أو ظاهرها باطنها . . . وهذا بالتأكيد هو الطريق السليم الموصول عمليا لسر غمور

النفس ، وتفسير سلوكها .. وتقييم تصرفاتها وأعمالها .. بل وعلاجها من أمراضها الظاهرة والمستترة عن طريق تدعيم القوى الايمانية ، والترغيب في الثواب وبذلك يسهل اقتلاع النقائص والعيوب ..

فاذا كان الحكم على المظهر الخارجى للشخصية وهو الاساس الذى يبنى عليه علم النفس معارفه ، ويؤسس عليه ما يصل اليه من نتائج ، فان هذا المظهر الخارجى فى تصورنا - محض افتراء لا يصل الى شىء على الاطلاق ، بل على العكس من ذلك تماماً .. يصبح شىء - كلاً مضللاً ، ربما تستتج منه مبادئ خاطئة تضر العلم أكثر مما تفيد ..

واذا تصادف نجاح العلاج فى حالة واحدة .. فشل فى كثير من الحالات اذ انه ربما يعيش الشخص كل حياته بمظهر سوى لا يمكن معه كشف آفاته المستترة ، وانحرافات الداخلية .. وعيوبه الباطنية ، رغم أنه - كما تزعم مقاييس علماء النفس - متوازن الشخصية حريص على التوافق والتكيف .. لم يكتشف مرضه .. لانه لم يعرض نفسه على طبيب .. علاج ، أو أنه عرض نفسه ولم يتعرف العلاج على علته وآفاته .. بل كم من شخصية فى مسلكها الظاهرى الاعتدال والتوازن .. والامانة فى اتباع القواعد .. واطاعة النظم والقوانين .. واحترام التقاليد والعرف والعادات .. التى تتحقق الأغراض والمنافع والغايات التى يبتدعها المجتمع .. وهى شخصية متمزقة فى الداخل ...

بل كم من شخصية تنتظم فى سلوكها الاجتماعى والاقتصادى بما يحقق غايات الجماعة ثم أن هذه الشخصية فى نفس الوقت مريضة فى باطنها يظلمها الخوف ، ويكتنفها القزع والرعب .. فائرة على الاخلاق ، حاقدة ومتبردة على الأوضاع والقواعد والقوانين ، بل على كل شىء .. ورافضة لكل شىء ..

وليس من اليسير كشف أغوار هذه الشخصية . واستتيان حقيقة أمراضها وذلك ربما راجع لحبث فيها ، أو لخوفها من توقيع العقوبات أو ضياع المآلات ومن ثم تخفى ما تعانيه من هواجس ووساوس وأمراض ...

وإذا ما تمكنت هذه الشخصية من التهرب عن مسلكها الخفى - بعيدا عن الخوف ، سلكت سلوكا انحرافيا ، ومع ذلك فهي حريصة كل الحرص على ألا تقع تحت طائلة القانون ، أما إذا سنحت لها الفرصة .. وتمكنت من خرق الأوامر والنواهي والمواثيق دون أن يطبق عليها جزاء مادي .. أو معنوي .. إذا تمكنت من ذلك فإنها لا تترث في الوقت المناسب من تمزيق النظم ، وتدمير القيم وسحق الأنظمة والقضاء على التقاليد والعادات . وفضائل الدين ...

وبطبيعة الحال فإننا نشك في قدرة المعالج النفسى الحديث ... مهما بدى بارعا في التعرف على أبعاد هذه الشخصية ، ومهما استخدم من أساليب وأدوات جديدة في التجريب والتحليل ...

ويروى لنا تاريخ الأفراد والشعوب كثيرا عن الشخصيات النفعية والوصولية ، التي تنطبق عليهم هذه الأوصاف ، والتي يمكن أن يدخل في إطارها قادة وزعماء ورؤساء للدول والمجتمعات ، وهؤلاء المرضى كانوا في طفولتهم في رعاية تامة وتربية سليمة ولم تظهر عليهم الأعراض المرضية والانحرافات إلا في مواقف لاحقة .. غير متوقعة ...

ومن ناحية أخرى فإن مدرسة التحليل النفسى تزعم أنه بالإمكان الكشف عن الجانب الباطنى للشخصية ... أو ما يسمى عند لفيف منهم الجانب اللاشعورى من الشخصية وهذه الامكانية نراها ادعاء مفترضا ... غير واقعى ذلك لان الادعاء بوجود منطقة اللاشعور هو تفسير خيالى ينقصه الدليل ومن ثم فإن منطقة

اللاشعور التي تحتوي على ما يسمى بالذو والانا والانا العليا ، بالاضافة الى الشعور
الظاهري .. وهم لم يثبت له صحة حتى الآن ...

ان هذا التمايل المفترض يتضمن أشد حالات الغموض والابهام والخلط ،
اذ تتدخل فيه تخیلات كاذبة وأحلام باطلة ... بل وتجارب شخصية غير متممة
أو دقيقة كما تتنازع هذه النظريات أراء متباعدة لاتصلح معها مما يبرر وأحكام
الفصل والضبط والتحقيق ، حيث لاتستقيم مع الدراسة العلمية ، ولا يمكن التعرف
على السلوك الانساني من خلال المناهج والتجارب الاكلينيكية ...
والتحريرية ، وتطبيقاتها على حالات مستقبلية يمكن دراستها ...

وبمعنى آخر أكثر وضوحا .. إن دراسة اللاشعور انما تقتضى من الطبيب
الممارس معرفة خواص النفس ... ورغباتها وطاقتها ونوازعها وآفاتنا ، قبل أن
يبدأ فى علاج مريضه ... وهذا أمر لم يحظ به بعد علم النفس الحديث بمناهجة
المخزنة ...

ب - ضرورة الطبيب المربي

سبق أن أوضحنا وجوب أن يكون الطبيب النفسى بالضرورة مربيا اخلاقيا فاضلا ذا تجربة ذوقية فريدة وبذلك يمكن للطبيب النفسى الاسلامى ... كشف النقائص فى النفس ، ومعاونة المريض فى التخلص من أمراضه ، لذلك يضع الطبيب منهجا واعيا للعلاج لكل حالة على حدة ، فكل شخصية يصلح لها علاج لا يصلح لغيرها ، وبالتالي تبدو الممارسات التى يعالج بها آفات النفس مختلفة عن الممارسات التى يتبعها غيره من علماء النفس الحديث لتطهير الباطن ... ومهمة الطبيب المربي مساعدة مرضاه وتوجيههم بعد كشف العيوب للتخلص منها ...

ويجدر القول أن الطبيب المربي يحدد لكل طالب ما يناسبه من رياضات ومجاهدات وأوراد ونصائح، بل يحدد له ما يصلح له وما لا يصلح من أعمال وأفعال، كالعزلة والخلوة والصيام والذكر وقراءة الأوراد وتزكية النفس بأعمال البر والخير والاحسان ، وكل طالب يتقبل على العلاج حسب ما تيسر له من يناسب نفسه واستعداد للمجاهدة ومثابرة لتقبل الطريق الى الله (١) ...

فليس ما يطبق على هذا المبتدىء بصالح للتطديق على غيره ... فمثلا اذا كان الشخص محبا للمال بسبب ذلّة دنيوية معينة يعرفها عنه الطبيب المربي .. فلا ينصح بترك المال دفعه واحدة لأن المربي يعلم خفايا نفس مريده ... وأنه فى ترك ماله افساد له ، وضياع لشهرة جهاده فى طريق الله .. اذ أن نقص المال ربما يضعف من

عزمه في محاربة غوائل الشهوة وغشواية الشيطان .. وأهواء النفس جميعا ...
ولكن ربما يصلح ما يريد آخر التصديق بجزء كبير من ماله لأن في ذلك مصلحته
ومنفعته، بل لأن ذلك يربى في نفسه فضيلة الإيثار بدل الآثرة .. والتخفية بدل
الأنانية ... فيسعى الطبيب المربي في معالجته بالتصدق لينصلح حاله . وليتخلى
بالاحسان والكرم والجود ... ويتخلى عن الشح والبخل والشهرة ... وهي
من أسباب الأمراض الباطنية ...

وبذلك ينصلح ما اعوج من أمره .. لأن طبيبه النفس قد أيقن من أن حبه
للمال سيفسده ويضره ... وأنه باستطاعته أن يخلصه شيئا فشيئا من هذا الميل
الشهوى للمال ، لذلك فهو يوجهه ويعينه على التخلص من الآفة المفسدة ، وذلك
بالشعور على العطاء والبذل والسخاء والاحسان ...

وإذا رأى الطبيب النفسى الاسلامى ان بعض المريدين يؤدون الصالحات من
الأعمال ، ويتسابقون الى الطاعات لغرض مادى نفسى أى من أجل أن يثمر ذلك
أجرا وثوابا عاجلا لمجاهداتهم ومعاناتهم ، فإن الطبيب النفسى الاسلامى يبين
لمريديه أن ذلك مرض من الأمراض التى تحتاج الى علاج حاسم ... لأن ذلك
نوع من الغرور والعجب بالنفس . والرضا عنها ، بل أن ذلك انحراف عن طريق
الفضيلة والخير ، لذلك فإنه يأمر المريد بأن يفعل الخير .. ويعمل الصالح من
الأعمال دون النظر الى ما يثبته هذا العمل من ثواب وثمرات عاجلة ... وذلك
بترويض النفس وعدم افشاء واستعراض العمل الصالح والتخلى عن الرضا
ومخالفة شهوة الاغترار والفضول ...

فالطبيب النفسى الاسلامى يروض نفس الطالب ليجهزها قابلة لتغيير طبيعتها
وتحسين أخلاقها ... وذلك عن طريق الأدب مع الله ، والوكل عليه تعالى ، حتى

تُرضى بما يأتيها من خير وشر، وتصبر على الامتحانات والاختبارات . وبذلك
يصقل معدنها وتطهر من دنسها ونقصها (١) ...

ويحصل الطيب النفسى جاهداً على الأخذ بيد الطالب، ويحذره من عثرات
الطريق، ويعرفه أن موافقة الشهوات تقود الى الانتكاس والانحراف والمعاصي
والذنوب، أذ انه مازال في اختبار ... اذا نجح فيه وصل الى شاطئ الأمان ...
وبه يدخل الى طريق الله أما اذا شعر بالعجب والرضا فان ذلك يدل على الفشل
والنكسة ... وعليه أن يبدأ من جديد في مخالفة نفسه الامارة ... (١)

فالطيب النفسى الاسلامى قريب من طالبه، يسير معه خطوة خطوة، وعلى
الطالب أن يصارح طبيبة بخواطره النفسية . ويكشف له عن باطن نفسه أولاً
بأول ... وألا يكذب عليه حتى يتمكن من معاونته وعلاج مابقى في نفسه
من شهوات وأهواء بل ويساعدة على القضاء على أمراضه الباطنة ...

فيتقدم الطالب شيئاً فشيئاً في مراحل الشفاء حتى تصفو نفسه، وترقى من حال
الى حال ... ومن مقام الى مقام وتتكامل شخصيته ... وتصل الى مراتب
السمو الاخلاقي فيعرف طريقة، وتنهأ نفسه، ويدهش في كنف الله راضياً، ويشهد
ملا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ...

الطب النفسى الاسلامى اذن له طموح منظم في تربية الشخصية الانسانية،
وذلك بطريقتين ... أو جانبين :

جانب سلبى ... وجانب ايجابى

(١) ازمام الحارث المعطسى في الرعاية لمقرئ الله . كتاب الصحف ص ٢٩٨ - ٤٤١

تقديم د . عبد المليم محمود - تحقيق الاستاذ عبد القادر هذا

الجانب السلبى يقوم أساسا على أن يخلى عن النفس صفاتها المذمومة ...
 وأما الجانب الايجابى فهو يؤسس على تحلية النفس بالصفات الحمودة ... (١)
 وأئمة العلاج النفسى لا يضعون معايير فلسفية جامدة ... ولا ضوابط تحكيمية
 محددة ، ولا نظريات خيالية متوهمة ... ولا فروضا تقريرية أو صورية
 ولا مقاييس استبطائية ، وإنما يقوم العلاج فى وحدة شاملة يستهدف الواتعية
 الصادقة ... ليعين الانسان على الحياة الآمنة والطمأنينة التامة فى الحياة الدنيا
 والآخرة ... وهم فى ذلك يستمدون مادتهم العلاجية من القرآن الكريم
 والسنة المحمدية .

فالتطريق الى علاج النفس من أمراضها واضح وضوحا تاما عند الطب النفسى
 الاسلامى ... لأن الطبيب المربى عارف برعونه النفس وجنوحها ... ولذلك
 فهو يبدأ مع الطالب بأن يطلب منه لتخلى عن الحظاظ الدينوبه المرقشه والزوبه
 هن الآثام والذنوب ...

واذا صدق المريد عرف طريقه . واستنار بأنوار الحق ، فستجيب نفسه
 الى العلاج ... وتخلص من الكبر والتعجب والأثرة وحب السيطرة والرغبة فى
 الرياء والتعلق ...

ج - شخصية الطبيب المعالج :

سبق أن أوضحنا أنه يتوجب على المـعالج نفسه لكي يعالج أمراض النفس
 أن يكون هو نفسه قد تخلص من أمراضه النفسية ، أو على الأقل سار شوطا

(١) راجع القاطع الصوفى - المؤلف التلى والتخلى ص ٨٧ - ٨٨

بهيداً في طريق التكامل للنفس والاخلاق ، وذلك حتى يستطيع أن يتقدم في علاج مرضاه ، بما خبره من تجربة شخصية ، فيمد لمرضاه - عن يقين - يد المساعدة لتخلص من الآفات ... والأمراض أو على الأقل يساعدهم على تزكية نفوسهم المريضة بالأمن ومعاونتهم على اختيار السلوك المستقيم وتقوية عزائمهم بالابتعاد عن الأوهام ... والأمانى "كاذبة ... والوسوس المفرعة ...

وإذا لم يتيسر للطبيب نفسه - لاعتبارات اجتماعية أو دينية أو بيئية - تنشئة أخلاقية على أساس إيمانية... فالتصور أنه يستطيع أن يفهم طبيعة الأمراض الباطنية التي يعاني منها مريضه ، اذ لا يكفي أن يكون الطبيب المعالج - كما يدعى علم النفس - قد سبق تحليله ليكون صالحاً للقيام بمهمة تحليل الآخرين ... لأنه بافتراض أنه يصلح في فترة زمنية معينة . فالتصور أن شك في أنه يصلح في فترة أخرى ... ذلك لأن المهم هو أن يكون الحلال النفسي دائم الترقى في السلم الأخلاقي ... يستقى عليه من التشريع الإلهي وأن يكون فاضلاً متمسكاً بمكارم الأخلاق ، حريصاً على الإيثار بعيداً عن المنافع المادية التي تفسد العلاج ..

من هذا المنطلق يمكن للطبيب أن يغير من سلوكه الخاطئ باستمرار إلى الأفضل والأحسن .. ويتسامى عن الأفعال المذمومة ، ويتخلص من الأنانية والنفعية والمصلحة .

كما أن توقف الطبيب النفسي عن المجاهدة ... والنحلي بمكارم الأخلاق يعد عائقاً يول بينه وبين التقدم في كشفه لخواص النفس ... سواء كانت نفسه ذاتها أو نفوس الآخرين ... وبالتالي يصبح عاجزاً تماماً عن علاج أمراضه وأمراض الآخرين بل إنه إذا لم يستطع التسامى عن التوائق والاختبارات ..

والتمسك بالمبادئ والمثل العليا . . فلا نشك من أنه سيحضر مريضه ، بدلاً من أن يفقده في علاج نفسه وجسمه جميعاً . . .

ومن ناحية أخرى فأننا لا نوافق أصحاب العلاج المتمركز حول العميل (١) في المزاعم التي يدعونها من إمكان قصر مهمة الطبيب المعالج على الملاحظة ، وأن تحدّد وظيفته بحيث لا تتعدى أن يترك للمريض الحرية في معالجة نفسه بنفسه ثم كتابة ذلك في تقارير !!

ومن العجب أن يتمكن معالج من أن يعالج انساناً مشغولاً بتحقيق لذاته مندفعاً لتحقيق حاجاته بحسب إشباعات غرائزه ، حتى أصبح ذلك طبياً يميزاً له . . اذ تشكلت شخصيته بصورة البخل والشح والشره . . كيف يمكن للمعالج أن يتقدم في علاج مريض بهذه الصورة دون أن يكون هو ذاته خالياً من تلك الأمراض !!

كيف يمكن أن تعالج شخصية أنانية . . طبعاً على الشهوة . . والنكالب على اللذات والمنافع . . وحب السيطرة والجزع والخوف والحقد والتنافر والكراهية والغيرة . . !! كيف يتمكن الطبيب المحال أن يفهم نفس مريضه ويستخلص أسباب مرضه دون أن يكون هو قد عرف الداء المستفحل . . وعالجه في نفسه أولاً قبل أن يعالج منه مرضاه . .

حقاً أنه لمن المضحك أن يهبط إلى الطبيب الذي لم يستطع أن يتخلص من ذاته بمهمة علاج غيره المصاب بنفس الداء !!

(١) نظرية جديدة في العلاج النفسي صاغ أذكارها وليم روجرز - راجع التحليل النفسي والعلاج النفسي - روبرت هاربر ص ١٢٧ - ترجمة دكتور محمد جلال

فهل يصلح بذلك علاج أو دواء أننا نتعجب ! !

إننا لا نتشكك في أن الأساس الحق الذي يمكن أن يقام عليه صرح العلاج النفسى هو بث روح الايمان فى نفوس مرضى النفس . وإدخال عناصر جديدة صالحة تحمل محل العناصر القديمة الفاسدة ..

أو بمعنى آخر تحلية النفس بصفات محمودة خيرة .. وتحلية النفس من الصفات المذمومة « الشريرة » ، إذ أنه من العسير أن ينجح علم النفس فى علاج [أمراض النفس بدون تغذية العقول . والنفوس والقلوب بمشاعر الصدق والاخلاص والمحبة ... والطاعة والرضا والإيثار والاحسان والصبر والتوكل .. وجميعها لا يمكن أن تتوافر لشخص إلا بالاستقامة والعلم والصدق والاخلاص والطاعة لله جميعا ...

كما أن على عالم النفس أن يعرف أن النفس البشرية واحدة ... وأن حب الدنيا والرغبة فى تحقيق اللذات والشهوات ، هو ميل طبيعى لدى غالبية الناس ، لا يختلف فى ذلك عالم أو جاهل ... إلا فى الدرجة إذ التباين والاختلاف بينهم فى صدق المجاهدة والرياضة للوصول إلى طريق الله ... وبمذاك يكتسب المجاهد صفات الاستقامة والصبر والصدق والاخلاص والتوكل والمعرفة ^(١)

لذلك فإن الانسجام والتوافق بين الفرد وبيئته ليس هو المحك الذى تنطلق منه أهداف العلاج النفسى، إذ أنه من الضرورة أن يكون المحك منعشاً أساساً .

(١) راجع لمزيد من الايضاح المعكرونة الباطنية للمؤلف

من الايمان بالله والعلم اليقيني أن هذه الدنيا ليست غاية في حد ذاتها ... إذ هي ليست إلا مزرعة الآخرة (١) ...

فإذا بهر الانسان بالدنيا وزخرفها وأعتقد أنها هي غايته وهدفه ... فانه يسعى في هواها ... ويحبها . وهي المتقلبة . المتغيرة فتعطى له يرما ، وتمسك يدها أياما ... ترغبه حيناً وترهبه أحياناً ... فيقف بين اليأس والامل ... بين التلن والاستقرار ... بين الرغبة والرغبة بين الطلام والنور ... فلا يعرف طريقه ... ولا يتبين سبيله ... فيحيا في الدنيا حياة تامة ... مضطربة لا يتنوق فيها هناء . ولا يعرف أمناً . ولا يفهم حقاً ولا يؤمن بأخلاق . ويزهد في كل علم ، إلا ما يحصله من مألوف العادات أو عن طريق المحاكاة والتقليد أو ما يلمنه من ممارسات ومجربات وتجارب وهي أخلاق متغيرة ... وعلوم قاصرة فيها طابع التغير والتلون والنقص

والشخصية المقلدة تصطدم بعقبات متعددة وتقف أمامها السدود والحوائل والعوائق ... ولا يستطيع صاحبها لها وقفاً أو صدا ، فتألف نفسه وتقع فريسة للأمراض ... وتتخبط في اتجاهاتها وتتساقض في تصرفاتها وتحيا في عذاب مقيم ..

أما إذا خلق الانسان إلى نور الايمان ، وعرف أن دنياه قصيرة ... وأن آخرته هي الأبقى وأن ما يكابده في رحلته في الدنيا إلى الآخرة من نفع وضرر إنما هو لصالحه ... وذلك لتربية نفسه ... وتعويدها على مكارم الاخلاق ... والصبر على الفاجعات .. حظى هذا المجاهد بعون الله ورحمة الله وعطاء الله وحب الله،

(١) الرعاية لحقوق الله ص ٤٤ وما بعدها

وهو في ذلك لا ينسر شيئا في دنياه ولا في آخرته ... وإنما على العكس من ذلك
تكتسب نفسه السكينة والطمأنينة والأمن ... فتصبح صابرة .. تقية .. قوية ..
وؤمنة .. تؤجل مطالب دنياها الزائلة لاخرتها .. وتقبل على ما هو خير وأبقى ..
وتبذل ما هو أحب وهو ...

والتربية الدينية إنما تركز في تخويد النفس على تجنب الحظوظ والآهواء
والبعد عن الرغبات الدنيئة .. ومخافة الشهوات الدنيوية الرخيصة ورفض ما هو
ملذ زائل .. والاقبال على ما هو باق خالد .. عند ذلك ترضى النفس بحالها
وأحوالها، وتواكب طريق الله مسترسلة معه أبدا لا تستهدف إلا محبته
وقربه تعالى .. (١)

بذلك السلوك المستقيم تتوافق النفس مع ذاتها كما تتوافق مع الآخرين،
وتنسجم انسجاما كلياً في هاملاتها بالخير ... وتسلك سلوكاً إيجابياً مع الناس جميعاً ..
وهنا يستحق صاحبها أن يسمى شخصية سوية متوازنة ومتكاملة ..

ويتأكد بهذا الطريق للشخصية الإنسانية كيانها ووجودها ... فبعد رحلة
الحياة الفاضلة التي عبرتها ... يكون الثواب والراحة والاطمئنان ... بل الرضا
والاستقرار والأمن .. وبذلك تنجح التربية الإسلامية في التعرف على الداء
ووصف الدواء .. كما تنجح في الوصول إلى الشفاء ..

أما الطرق العلاجية المستحدثة في التربية النفسية فإنها طرق ليست بمجولة عند
أئمة الاسلام .. فمثلاً إذا كان التحليل النفسي يستخدم برامج للعلاج تقوم على

(١) راجع العاظم الصوفية — أسقاط التدبير

وكذلك الشيخ ابن عطاء الله السكندري — النوير في أسقاط التدبير

أساس التنفيس أو التداعي الحر .. في علاج بعض أمراض الشخصية ... فإن ذلك العلاج يعد من الأوليات ... بل بداية البدايات في الطريق العلاجية عند أئمة الإسلام ..

فالتأبيب المربي الإسلامي يستبطن قلب المريد ويتعرف على خواطره وأمراضه ، لأن النفس البشرية - في رأى جميع الأئمة - واحدة إلا أن خواصها متعددة ومتكثرة ..

النفس إذن واحدة لكن لها علامات سبعة هي :

أمارة ... ولوامة .. ومهامة .. ومطمشة ... وراضية ... ومرضية وكاملة ... (١)

ونقطة البداية بالنسبة للعلاج النفسى الإسلامى تبدأ بعلاج النفس الأمارة لأنها لم تتخلص بعد من الضعف .. والشرة .. والظلمة ، أو من جهالاتها وانقيادها إلى الحس الظاهرى .. وميلها إلى التعجب والغرور والنعالي والعظمة والانانية دون أن تعبا بالقيم والمبادئ والفضائل ...

فإذا لم يتيسر للنفس الأمارة التخلص من نزعات الانانية ... جنحت إلى الشر وانحرفت إلى الرذيلة ... بل مرضت وتمازجت ... لأن في طبيعتها الانانية وفي خلقها الأثرة وحب الذات والسيطرة ...

وإذا ما تيسر للنفس تحقيق ما تنزع إليه من مظلوظ ... طلبت المزيد ، فهي لا تشبع من جوع ... ولا تسكن عن طلب .. ولا تزهد في شهوة ... وإنما

(١) راجع المسكوة الباطنية للدولف - ص ٣٠١ ، ١٣٢

تطالب أبدا المزيد . . فاذا ما تحقق لها ما تدّلب ، طمعت ثم تعالت واغترت ومالت وانحرفت عن الهدى . . . وبذلك يصبح حب السيطرة سلوكها . . . والبطش بحالها . . والغضب والحقد معدنها . . والكراهية بيتها والشهوة سلطانها . .

وأخيرا تنتهى هذه النفس بصاحبها إلى الانحراف والضلال . . وتسمى بالشخصية غير المستقيمة . . أو الغير متوازية . . وتنطبق عليها أوصاف مختلفة مثل : الضالة . . أو الشرهة . . أو الفاسقة . . أو المنحرفة . . أو المجرمة . . أو الشريرة . .

واقده وجد أثمة الاسلام أنه العلاج هذه الشخصية ، يجب البدء بعملية تخلية من الصفات المذمومة . . ثم تخلية هذه النفس بالصفات الحمودة . . ويتم ذلك بطريق المجاهدة . . (١)

والسبيل إلى ذلك أن يسعى الانسان للتخلص من آفاته ونقائصه ، وذلك بالتوبة والندم على ما فعله من الذنوب والمخاصى . .

وهذا العلاج كنهج بمثابة تفرغ الاناء من الخلل . . وإعادة ملئه بالماء النقي فانه لا يكفى - كما يزعم بعض علماء النفس - أن تفرغ النفس من المكبوتات والرغبات الدنيئة عن طريق التفتيس . . أو التداعى الحر . . أو أى طريقة أخرى من طرق العلاج الحديث سواء كان بالموسيقى أو عن طريق الفن . . لا يكفى ذلك ليكون الانسان صالحا . . متوافقا . . وسويا . . (٢)

(١) الامام الغزالي - احياء علوم الدين . ج ٨ - ص ١٤٣٨ وما بعدها معالج الشعب

(٢) اشريعة والحقيقة للمؤلف ص ١٩٩ النظرية الاسلامية للانحراف الاخلاق .

إذ أننا لا نشك في أن الإنسان معرض دائماً لأن يعبأ مرة تلو الأخرى - بعد
 عملية التنفيس هذه - بحكم العادة والتطبع والمحاكاة والتقليد بشهوات ورغبات
 ومتطلبات أكثر جنوحاً وأعظم انحرافاً . . لأن نفسه في هذه الحالة فارغة تماماً
 وفي حالة ظمأ شديد . . كما أنها مستعدة لقبول الجديد . . متشوقة لمصادفة أول
 لذة تشبعها حريصة على الإقبال على الشهوة دون أن تتبين ما هو صالح لها وما هو
 قبيح . . فتتحرك في شغف لتتبع جرة النفس بكل ما يقابلها من إحتياجات
 تربد اشباعاً . . ومن أفعال تود القيام بها . . وأعمال تسعى لها . . دون أن
 تسكن إلى شيء أو ترضى عن شيء . . فإذا شفيت من مرض . . بليت بأمراض
 وإذا استكان فيها الخوف . . هاجمها الغرور وحب الذات . . وإذا فرغت من
 القنوط انتابها الرياء والكبر . . .

النبيل الرابع

خصائص النفس

إن الطريق الصحيح الدال على علاج النفس الإنسانية هو مصارحتها بحقيقتها وكشف ظواهرها وأوهامها وتبصيرها بما يجب أن تكونه، فهناك أفعال وتعرفات خاطئة دليها أن تتجنبها وتعرض دليها ... وأن تدفعها بعيدا عنها ... فتتوقف عن اتباع كل ما يخالف القيم الأخلاقية والمبادئ الدليها التي أمرت باتباعها ... والتي أراد الله للنفس أن تتحلل بها سلوكا وأخلاقا وغاية ...

عليها إذن أن تنتهج سبيل الاخلاص .. وذلك بالاستقامة وأعمال البر والصبر على الابتلاء ... والخوف من الله .. والتوكل عليه في السراء والضراء ...

فإذا أضرمت النفس على الافعال الخبيثة والاعمال الشيطانية ، فإن ذلك يدخل في باب المجاهدة حيث تتجنب الاهواء وتبتعد عن مهالوى الضلاله ، وتبتعد مسالك الانانية والشرور ...

وهنا تترقى النفس وتتسامى ... لان سالكها ، الدائم هو الندم على من أقترفته من الآثام والشرور فتدأب على البعد عن المخالفات وتنشغل باليوم عند إقرار السيئات ... حتى يصبح هذا الحال ملازما لها ثابتا لديها ... بمثابة مقام لها ومنزلة تنزل بها - فضلا من الله ومنه - وهنا تسمى النفس نفسا لوامة ...

وإذا صدمت هذه النفس وكانت عاملة عابده لله .. واستمرت في المجاهدة ولم تتقاعس عن الرياضة النفسية ... وأسست المحاسبه (١) طبعها الدائم ... وخلقتها

الثابت فتمسك بالقيم العليا من خير وإحسان ... وبر وفضيلة .. فتستحق أن تلقب بالأنفس الطائفة ، الطيبة لله ... التي تشد الخير الفاضل والسبيل الأهدى ، فهي تعترض بالسلبية على ما هو شر .. وتقبل أبدا على كل ما هو خير . فتأهم بالصالحات من الأعمال الهامة .. حتى تحظى بالدرجات العليا بفضل الله وحمته وتثبت في مقام النفس المهمة ...

فإذا واصلت النفس رحلتها في الخير وأعمال البر والاحسان وأصبح هذا الحال ظاهرها وباطنها فكراها وعملها ... أقتربت في مقام السكينة فلا ترى غير الفضيلة مبدأ ولا تختار غير الخير بديلا فأمنها مع الحق ، وأملها فيه تعالى ، وهنا تسمى بفضل الله - النفس المطمئنة ...

والنفس التي تمضي في سياحتها الروحية خالصة لله ... متوكة عليه ... راضية بما ترتزق به من خير وشر .. تجاهد جهاد الأبطال ... وتعمل عمل الأبرار ... وترضى بما أعطها الله من نعم ورحمات ... خير معترضة على ما يحتج بها به من امتحانات وإبتلاءات متوكة عليه تعالى أبدا ... مسقطة للتدبير منه على الدوام ...

هذه النفس ... يرضى الله عنها ، فتكون نفسا حبيبة إلى الله ... مرادة له تعالى متمتعها بالكمالات الأخلاقية . تحظى بالمقامات العليا التي يحظى بها المؤمنون .. وتسمى في هذا المقام بالأنفس الصديقية مثل نفوس الأنبياء الأولياء الكمل (١) ...

وفي هذه الرحلة الطويلة ... رحلة صعود النفس في السلم الروحي ... تعالج النفس شيئا فشيئا من آفاتها ونقائصها وعثراتها .. وذلك بواسطة مرب يعاون ويرشد، وطبيب مجرب يساعد ويوجه ... قد مر بنفس التجربة ... عانى مما يكابده السالك، ثم شرب وارتوى، واكمل زاده الروحي، فهو عارف بالآفات النفسية ... واع بالمسالك والدروب الموصلة للحق ... يرشد ويهين كآب مخلص ويساعد مرضاه لله وبالله ... حتى يلبثوا الرشاد دون رغبة في منفعة زائلة أو نظير مصلحة عابرة، وإنما أمله كله أن يستقيم مريدوه، وأن يتجنبوا الوقوع في براثن الشيطان، وأن يبتعدوا عن الظلمة واليأس والقنوط حتى يستظلوا بنور الإيمان، ويرتقوا إلى عالم النورانية والشفافية والصفاء ...

والطب النفسي الإسلامي يستهدف إصلاحا ظاهرا ... وباطنا ... وبأمل أن يصبح الافراد في المجتمع .. متطبعون بالفضائل الظاهرة والباطنة ... شريعة وحقيقته ... إسلاما وأستسلاما لله ..

فالشخصية التي يهالجها الطب النفسي الإسلامي يجب أن تعرف معرفة دقيقة وتفحص فحوصا شاملا، ليس بتطبيق النظريات، ولا بافتراض الفروض ... المرضية والحلول المتوهمة ... وإنما بفهم واع لإحوالها، ودرجاتها وخواصها ...

وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان الطبيب صاحب همة كبيرة . وإيمان عميق وعلم غزير ... فبالإضافة إلى ما يحصله من العلوم الكسبية ... فإنه صاحب علوم وهدية أشرفت نفسه بها ... وفاض الله على قلبه بأنوارها، وآتاه من لدنه علما ... كثرة لاخلاصه، ومكافأة لطاعته .. وحبا لمحبه ..

وبهذا فقط .. يشعر دلالة مرضاه ، وتشعر طريقته في تطهير الباطن مما ألم به
من النقائص الخفية والآفات المرضية ..

مقاربة

إذا كان لعلماء النفس المحدثين كثيرا من الأبحاث التجريبية والدراسات النظرية
والنتائج العلمية الشخصية الانسانية، إلا أنهم لم يحظوا بشيء من العلوم الإشرافية
والوهمية .. ذلك لأن هذه المعارف تحتاج إلى رياضة نفسية ومجاهدة ومناة ..
لأنها تجارب ذوقية من الذات إلى الموضوع ومن الموضوع إلى الذات ... وهذا
الموضوع فوق كل تصور .. وأكبر من كل تصوير حسي أو مادي أو عقلي ...
إذا أنها إسترسال مع الحق جلت قدرته ...

والسبيل الوحيد إلى هذه المعارف التي يشرق بها نور القاب، إنما يكون بالاستقامة
أي عندما يصبح السلوك علما ودينا ... غاية وأخلاقا .. فهما وسلوكا ...

فإذا كان الطبيب النفسي قد طببت في نفسه هذه الأخلاق ، فإنه يستطيع أن
يتغلغل إلى أغوار النفس .. ويتعرف على عيوبها وعثراتها .. وآفات وميراثها ..
حتى يتمكن من علاجها علاجاً باتراً حاسماً ليس عن طريق المسكنات أو تغطية
الجروح بضمادات وأذلفة .. دون تطهير الجرح والقضاء على العلة الموجودة ..
والملاحظ في ممارسات التحليل النفسي لبعض الحالات المرضية أن العلاج يؤسس
على تفسيرات مفترضة ... ونبرات ذاتية فجأة .. واجتهادات متناقضة ... بعضها
مع بعض ، نتيجة فهم قاصر لا يباد ومعالج شخصية ، فضلا عن أن يستخدّم
الضوابط التعسفية . القاصرة واعتبارها الأحكام النهائية التي لا يحوض عنها ...
وكانما لا تستقيم أي دراسة بدونها ، ولا يفسر أي سلوك بغيرها ...

وهذا يعد في تصورنا هو لغوا وعبثا .. إذا - أنه لا يمكن عن طريق بعض
 الاصطلاحات والنظريات الافتراضية وصف الشخصية وعلاجها ذلك لأن الشخصية
 كما سبق الإشارة تختلف في خواصها من إنسان لإنسان آخر . رغم أن الله خلق
 الإنسان من نفس واحدة . إلا أن تماثل تماثلا يجعلها قابلة لأن تخضع لأنظمة
 ومقاييس وأحكام واحدة .. إذ أن التمايز والاختلاف بين شخصية وأخرى
 راجع لخاصية معديها ، ومن أمهات ما هو نقى ومنه ما هو خسيس ، فكل شخصية
 إذن تختلف عن غيرها في الدرجة والخواص والمقام ...

الفصل الخامس

الابتلاء تجرية واختبار

لم يتعرض علم النفس الحديث للأفعال التي تحدث للانسان بدون أسباب منطقية مباشرة ، والتي يجريها على عباده ، والتي هي بمثابة تجارب يرون بها لصقل معادتهم ، وتبيان صادق أخلاصهم في عبادتهم ، عند امتحان عزيمتهم ، أو عند اختبار صبرهم وجلدهم وقدراتهم في تحمل الأذى وكظم الغيظ...

كما أنه لم يتعرض علم النفس الحديث كذلك لمعالجة تلك الأفعال التي لم يكن الانسان مقبلا عليها بإرادته ، أي التي تحدث قضاء وقدر أي الأفعال التي تحدث دون توافر السبب والعلة والمعلول ، إذ أن مدار بحثهم ينصب على كل ماهر حسي وتجريبي ومادي وملوس ، أما خلاف ذلك فلا يخضع لمناهجهم ، ومن ثم فهم لا يمتدحون به من قريب أو بعيد (١)...

وهؤلاء العلماء يزعمون أن كل سلوك يمكن معرفه مصدره وأسبابه ، سواء كان هذا السلوك شعوريا أو لاشعوريا ، فهم يرون أن كل سلوك أنساني (٢) ، هو نتاج تراكمات ، ومحصلة طبيعية لحياة الشخصية الانسانية منذ مرحلة الطفولة المبكرة ، وأن ظهور سلوك معين ذهن بوجود ظرف بيئية مناسبة للتعبير عنه بصورة من الصور (٣) ..

ومن الجلي الواضح أن هؤلاء العلماء ينكرون وجود قوة عليا بل وينكرون كل الصلات التي تربط بين الله والإنسان ، فلا يعترفون بوجود القدرة الإلهية التي توجه وتمنح وتمتحن وتختبر وتبتلي الإنسان بشتى أنواع الابتلاءات ، وذلك راجع إلى غرورهم ، واغترارهم بالمنهج العلى الساذى المحدود ، فهم إذن ينكرون وجود إله واحد صمد كامل أبدي أزلي ، يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ...

«رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون»

(التوبة : ٩٣)

وإذا انتقلنا إلى الدعة الإسلامية التي تستقى مادتها من القرآن الكريم والسنة المحمدية والتي تصف النفس كما عرفها تعالى ... نجد أنها تتخذ موقفا مخالفا لتلك المذاهب المتهاففة ، والمزاعم الضالة ، والنظريات المناقضة ، إذ يستنار بآيات الله في فهم السلوك الإنساني ، وتستجلي ذوا مض النفس عملا بشريعة الله وبذلك يمكن التعرف على أوصاف النفس وصفاتها ، المذموم منها والمحمود ، فيكشف عن رباها من علم الله ، وأخلاصها من خلال الامتحانات والاختبارات التي يجربها الله على عباده ، والتي يستوضحها القصص القرآني بالتمثيل بالشرح مبينا ما يهدف إليه تعالى من حكمة وعظة وأعتبار ...

والموقف الإسلامى لا يرى الإنسان مسيرا فى أفناله ، مغلوبا على أمره فى سلوكه وتصرفاته ... كما يزعم أصحاب مدرسة التحليل النفسى - حتى ولو كان الأمر يتعلق بالابتلاءات إذ أن الابتلاء هو نوع من اختبار الله للإنسان سواء كان بالنعم أو بالنعمة كما أن النعمة أو النعمة لا يعنى بالضرورة الرضا أو الغضب الإلهى فى جميع الأحوال ... إذ يجوز أن تكون النعمة اختبارا ، كما يجوز أن

تكون النعمة أيضاً اختباراً ، يمشحن بها الله عبده ... فيبتليه بنعمه ليحربه ليرى تعالى هل هذا العبد من الشاكرين ، أم الناكرين ؟ .. كما يبتليه تعالى بنقمته اختباراً لصبره ... يظهر الخلق من المرائي والمنافق (١) ، ... بل أن الله يزيد أحياناً عبده الفاسق في متاع الدنيا ليتكسب بآلامه ... فلا تقوم له بعد ذلك قائمة ...

فلا يتلاءم بهذا المعنى وسيلة لغاية عظيمة ... إذ هو امتحان يستهدف به الله تعالى - بوسع علمه - حكمة بالغة ... وخيراً فاضلاً وبه يتعرف على عمل عبده المبلى الذي يختبره اختباراً عادلاً ... فيرى الله تعالى بعدله تقصيره وجهاده ، إيمانه وكفره ، صدقه وكذبه ، باطنه وظاهره ..

«وبلونا هم بالحسنات والسيئات لهم يرجعون ، (الاعراف : ١٦٨)
«وليتلى الله ماني صدوركم وليمحص ماني قلوبكم ،

(آل عمران : ١٥٤)

لهناك من الأشخاص من يدعى الاخلاص والصدق والطاعة لله ... ويسمى لاستظهار ذلك أمام الناس ... لكنه يكتشف عند امتحانه بالفاجحات أو عن نقص المتاع والاموال والاولاد ... وهذا الامتحان يكشف عن أصله معدنه ، وبين صدق وزوجه أو خبث باطنه ، ويتضح موقفه الحقيقي لا الظاهري ، وذلك وارد

في قوله تعالى :

«ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص في الأموال والافس والثمرات
وبشر الصابرين»
(البقرة : ١٥٥)

كما أن الحق تعالى يمتحن عباده بالابتلاءات لأسباب عديدة منها :

١ - أهل العبد يرجع عن غيه ، ويستيقظ من غفلته ، ويتعد عن هوى
نفسه ... ويقبل على طريق ربه ، ويتواضع لله بعد أن أعماه غروره وأفسده
تجبره وتكبره ..

٢ - يكون الابتلاء إما بالخير ... وإما بالشر ، ويفتر العبد أحيانا بزيادة في
العلم والمال والحياة ... فيصبح وسيلة لهلاكه ، إذ يعتقد جهلا أنه قد ملك واستغنى
فيكفر بنعمة ربه ، ويعظم غروره وتزداد غفلته ... وبذلك يقع في الضلال حين
يكفر بنعمه ربه ...

كما يفتر العبد بالشر .. كقصص في المال ... أو موت الأحباء ، أو حين يتلى
بالخوف أو الجوع ... وهنا يتضح صدق إيمانه بالله وأخلاصه له تعالى ، كما يظهر
كلبه وإدعائه ...

والمؤمن الصالح يسلم أمره لله ... ويرضى بما قسم له ، ويصبر على ما أثناه
من إختبارات وإمتحانات .. أما المنافق فيظهر حقيقته وبرها وإعترافه وإقراره على
الله كذبا ...

٣ - والابتلاء بهذا المعنى تجربة إلهية للحكم على الصابرين والصادقين والشاكرين
والمجاهدين العاملين ، وتمييز - الحق تعالى - الخبيث من الطيب في المراتب والدرجات
تدويراً عن عدله ورحمته ويفضل سبحانه العاملين على غير العاملين تصديقا

لقوله تعالى :

«ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين» (محمد : ٣١)

٤ - لاشك أن الآيات البيّنات في القرآن الكريم تصف بدائع صنع الله ، وتصور النظام الدقيق المعجز للخلق والكون الذي يجعل الأنظمة السالفة تقبل على طريق الإيمان وتسمى بالتفكير والنظر إلى التوحيد المطلق ، وبهذا الطريق يزداد العبد إيقاناً أن الله تعالى فاطر السموات والأرض ... لا شريك له ، لا يخفى عليه شيء ... كما يتيقن العبد من أنه تعالى يجرى إبتلاءه على عبادة ليختبرهم .. ويمتحنهم ليحكم بينهم ، وأن حكمه عدل على الأفعال والأعمال (١) ...

٥ - ربما يعترض بعض الجاهلين على إبتلاءات الله فيقولون : أليس المؤمن هو حبيب الله ، فلم يبتلى ؟ ...

والإجابة على هذا الاعتراض السطحي ، هو أنه لو افترضنا أن المؤمن في منأى عن الإبتلاءات وفي أمن من نقص الأموال والمتاع والأنفس ، فإنه لاشك سيفتر ويظن أنه نظراً لحب الله له وقربه منه تعالى ، لن يعاقب على هفواته ، فيركن إلى ذلك ، ويقصر في العبادات والطاعات ، فتفترهته في المجاهدة ومغالبة الشيطان ، ومصارعة أهواء نفسه ، ويتعود على التباطل والخلل ، فبدلاً من أن يزداد قربه من الله ، يزداد بعداً ، وبدلاً من أن يجاهد في سبيل الله يقع في غواية الشيطان ، ويصبح من حزبه ... فينتكس حيث يظن العزة ، ويسقط حيث يعتقد النجاة ...

لذلك كانت حكمة الله ... وفضل الله على الإنسان ... أن يبتليه حتى لا يغفل ولا ينسى وحتى لا يتعد مع الخاملين المتبطلين ، (٢) إذ عليه أن يعمل ويجاهد ليحظى

(١) أَمَاظ الصورية - الإبتلاء ص ٢١

(٢) لقوله تعالى : «نا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً» (الكهف-٧)

نمجة الله وقربه تعالى ويستمر أرتقاؤه عن طريق المجاهدة وأعمال البر إلى المآزل
العليا والدرجات العظيمة ...

قالا ابتلاء إذن طريق للصحة النفسية ، إذ به تستقيم حال النفس وتتخلص من
شوائب الأهواء ومقتضى الحادث ... وتستقيم خوفا من الله ، طمعا في رحمته ...
وهكذا نجد علم النفس الاسلامي يضع التفسير الاسلامي للأعمال التي تحدث
للإنسان بدون أسباب مباشرة .. أو بدون سابق معرفة ... إذ أن تفسير معنى
الابتلاء يحسم الخلاف في غموض المزايم والتأويلات والفروض التي وضعها علماء
النفس لتفسير السلوك الانساني المعقد (١) ... يقول تعالى :

« ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » (المائدة : ٤٨)
ويضع علم النفس الاسلامي كذلك يده على حقيقة الإنسان واتجاهاته وسلوكه
فيصف جبلات النفس ويحاطها تحليلا شاملا عميقا وواعيا ، مستقيا مادته من الكتاب
الكريم ، والسنة المحمدية ، فيبين أن الإنسان المؤمن الذي يسير في طريق الله ،
لا يصاب بالأمراض النفسية ، ولا يقع في الصراعات الحادة ، ولا ينتابه الخوف
والفزع والقلق واليأس ، لأنه عند صاير ... راض بما يأتيه الله من خير أو شر ...
يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم :

« إن (٢) من أخلاق المؤمن قوة في دين ، وحزم في لين ، وإيمان في يقين ،
وحرصا في علم ، وشفقة في مقة (٣) وحلما في علم ، وقصدا في غنى ، وتحملا في فاقة ،
ومحرجا عن طمع ، وكسبا في حلال ، وبرأ في إستقامه ، ونشاطا في هدى ، ونهيا
عن شهوة ، ورحمة للمجهود ، وإن المؤمن من عباد الله لا يخيف على من يبغيض ،
ويأثم في من يحب ، ولا يضيع ما أستودع ، ولا يحسد ولا يظعن ولا يعلمن ،

(١) (الكهف • ٧) (٢) روافد الحكيم عن جندب (٣) المقة • الحب

ويعترف بالحق ، وإن لم يشهد عليه ، ولا يتنازع بالاثقاب .. في السعلاة متخففاً ، إلى الزكاة مسرعاً .. في الزلازل وقورا ، في الرخاء شكورا ، قانعا بالذي له ، لا يدعى ما ليس له ، ولا يجمع في الغيظ ، ولا يغلبه الشح عن معروف يرتبه ، يخاطب الناس كي يعلم ويناطقهم .. كي يفهم ، وإن ظلم وبغى عليه صبر .. حتى يكون الرحمن هو الذي ينتصر له ...

أما العاصي أو المعترض ... فانه يمضي حياته شتيا ... تعباً يتظاهر بالسعادة رغم شقاوته ، ويحيا حياة التمساء ولا يعرف طعماً للراحة ولا يذوق معنى السكينة ، أما حياته غم وهم وحسرة وقلق .

فاذا تاب الله عليه - فضلاً ومنة منه تعالى - تقاب في نعم الله وعطايا الله ، وعرف أنه كان ظالماً لنفسه .. مضيعاً عمره في العبث واللغو ، حتى إذا أدركته رحمة الله عاش في نور الإيمان ، وفتح الله له باب العز ، وأغلق عنه باب الذل ، وسبح في الأنوار ، وهنا يعرف نفسه ، ومن عرف نفسه ، عرف ربه ...

الفصل السادس

الخواطر

الخاطر هو خطاب يرد على النفس .. وقد يكون شيطانيا أرملائكا ..
أوربانيا (١) .

وسبب التمييز بين الخاطر والخاطر راجع الى حال النفس .. اذ أن سبب
خلبة الخواطر المذمومة ، انشغال النفس بمحظوظها وشهواتها واهوائها ، (٢) فترد
عليها الوسوس الشيطانية التي تمجيبها عن الحقائق وتحسن لها الاعمال والأفعال
المستقبحة شرعا ... وتشغلها بالذات التي تعلبها .. والشهوات التي لا تشبع منها ،
وبالرغبات التي لا تنتهى عند حد .. والأمانى التي تنزع الى تحقيقها عاجلا والآهواء
التي تمجنح بها عن الطريق المستقيم .. تصديقا لقوله تعالى :

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وابعع هواه وكان أمره فرطا ،

(الكهف : ٢٧)

« ونفس وما سواها فأطاعها فجورها وثقواها ، (الشمس : ٧)

« في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ، (البقرة : ١٠)

أما اذا سكنت النفس .. ودفعته هواجسها ، وأقبلت بهمة في زخاب الحق ..
واسترسلت مع الله ... واستطاعت أن تقهر خلبة هوى النفس ، وغواية الشيطان ،

(١) الانام الفشيري - الرسالة القشيرية ص : ٢٤٣ ج ١

(٢) الامام السكلاياذى - التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٠٩

فتميز تميزاً واضحاً بين الخاطر الشيطاني والخابر الرباني ، وتعرف أن خاطر النفس لا يصدق ، كما تعرف أن خاطر القلب لا يكذب . . . (١)

ويبين لنا الامام عبد القادر الجيلاني (٢) - رضي الله عنه - أن للقلب ستة خواطر هي :

- ١ - خاطر النفس .
- ٢ - خاطر الشيطان .
- ٣ - خاطر الروح .
- ٤ - خاطر الملك .
- ٥ - خاطر العقل .
- ٦ - خاطر اليقين .

يصف لنا الامام الجيلاني ٣ كل خاطر من هذه الخواطر التي تورد على القلب فيوضح لنا أن خاطر النفس يأمر الانسان بالتزويج الى الشهوات ، وتناول المحرمات ، ومتابعة الهوى ، وهو وافقه الخلوذ المباح منها ، وغير المباح !!!
اما خاطر الشيطان . . . فانه يأمر بالكفر والفسوق والعصيان ، ويشكك

(١) رسائل ابن عربي - ج ٢ - كتاب اصطلاح السوفية

(٢) الامام عبد القادر الجيلاني - الفية ص ١٥١ ج ١

« هو العارف بالله الامام عبد القادر الجيلاني تولى ١ هـ وهو شيخ الطريق المادري له مؤلفات عديدة منها الاتبع الرباني والفيض الرحمان »

(٣) الشيخ الشطنوفى - بهجة الاسراء ص : ٦٧

الإنسان في دينه ليشارك بربه ، وإيطلق التهمة لله تعالى في وعده بغية ارتكاب المعاصي ، وفعل الملكات ، والد ويف في التوبة وكل ما فيه هلاك النفس في الدنيا والآخرة...

ويؤكد بعض أئمة الهدى أن خا طرا النفس والشيطان مذمومان ، ويبتلى بهما العامة من المؤمنين ، وهما طريقا الشر والسوء ..

و و و امت له نفسه قتل أخيه فذله ، إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ،
(الاسراء : ٥٣)

أما خا طار الروح .. وخا طار الملك ... فانهما يردان على القاب بالحق والهداية ... والصدق ... والاخلاص لله تعالى :

و أوتيك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، (المجادلة : ٢)

وهذان الخا طاران عاقبتهما الأمن والسلامة في الدنيا والآخرة ، وإذا كانا يوافقان العلم والشرع ... فانهما محمودان لا يعدمهما خصوص الناس ... إذ توارد هذه الخوا طار على قلوب أصحاب الصدق من الصالحين والأولياء ككثيرات تجد من أفئدتهم وكثيرات تؤيد يقينهم وتزير طريقهم ...

أما خا طار العقل .. فهو يأمر تارة بما تأمر به النفس والشيطان وتارة أخرى يأمر بما تأمر به الروح والملك .. وذلك لحكمة يعلمها الله ، وذلك لكمال جوده ، وإتقان صنعته ، فيجعل البعد الصالح يدخل في الخير ، والطالح يدخل في الشر وذلك من طريق رجاحته وصدق التمييز ... وصحة الشهود ... فيكون عقابة وجزاءه عائدا اليه وعليه ...

واقعد أوجد الله تعالى مخاطر العقل كالمسكة في الإنسان ، وبين له الخير والشر
والحق الباطل ، ايعرف العبد مسعاده وتعاقبه وشقاؤه بوجود معقول ، فجعل له
له الجسم كمسكان لجريان أحكامه تعالى ، ومخلا لنفاذ مشيئته ، وبديع حكمته ...
وكذلك الأمر بالنسبة للعقل الانساني ... فهو الذي يحمل اليه الخير ...
والشر ، الحق ... والباطل ، ويجري معه العقل في خزانة الجسم ، لأن العقل
مكان التكليف ، ووضع التصريف ، وسبب التعريف بالله ... فاطر السموات
والارض ...

والعقل من الانسان ينال النعيم ولذاته ثوابا من الله تعالى ، كما ينال العاصي
عذاب الجحيم وآلامه عقابا من الله ... على شركه وآثامه ، لأنه تعالى وهبه
العقل فاتبع هواه وغوى ، أما الذي سقط عنه التكليف لنقص عقلة ، وضعف
كماله كالمجانين والقصر ، فإن الله سبحانه لا يحاسبهم .. وهو أرحم الراحمين ...
أما خاطر اليقين ... فيراه الامام الجليلاني ^(١) روح الايمان ، وهو يأتي في
صورة مزيد من العلم فهو علم وايمان من الله يرد على قلب العبد الصادق اذا كر :
« ألا بذكر الله تطمن القلوب ، (الرعد : ٢٨)

ويختص بهذا العلم نفر قليل ... هم خواص الخواص ، من الأولياء الكامل
والصديقين الشهداء ، ولا يرد على التائب الا بحق وان خفي معناه ومغزاه ، ودق
بجيبه ، وهذا المخاطر لا ينقذح الا بعلم لدني ، وأخبار عن بعض أسرار الامور ،
وبعض المغيبات ...

ويحظى بهذه العلوم والأسرار التي ترد من خاطر اليقين المحبوبين والمرادين المختارين... أصحاب المقامات العليا... التي أصبحت عبادتهم الظاهرة باطنة، ما خلا الفرائض الشرعية، والسنن المؤكدة، فهو لاء أبدا في رعاية بواطنهم، ومراقبة أفعالتهم، والله تعالى يتولى تربية ظواهرهم، كما ورد في قوله تعالى :

« وهو يتولى الصالحين ، (الأعراف : ١٩٦)

« وهو الذي أنزل الحكمة في قلوب المؤمنين يزدادوا إيماناً مع إيمانهم ،

(الفتح : ٤)

فإن الله تعالى قد شغل قلوبهم بمطالعة أسرار الغيوب، فانشغلوا بهلم الله... ومن الله... وعلموا الله وأضاء نفوسهم بالتجليات، واختصهم بالأنس به، والسكون إليه، والطمانينة لديه... فهم في كل يوم يزدادون من الله قرباً على قربهم... ويفيض الله عليهم من علمه ونوره ومعرفته، ولا نفاد لعلمه ومعرفته، لانهاية ولا غاية يقفون عندها، فاذا انتقلوا الى الدار الباقية، فقد انتقلوا من جنة الى جنة ولكن الآخرة هي الجنة الدنيا لانهم هناك يرون الله بغير حجاب ولا باب، ولا حاجب ولا مانع، ولا انقطاع... ولا نفاد... بسباب ملك مقتدر لقوله تعالى :

للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، (يونس : ٢٦)

يقول الامام الجليلي^(١) - رضي الله عنه - « والنفس والروح مكانان لا لقاء الملك والشیطان... فالملك يلتمى التقوى الى القلب، أما الشيطان فإنه يلتمى الفجور الى النفس، والنفس دائماً تطالب القلب بامتثال الجوارح لتأني بالاثم والفسق .

(١) الشيخ الطنوفى - بهجة الاسرار ص ٦٨ - ربما بعدها

كما أن هناك مكانين في البدن ... هما العقل والحوى ، يتصرفان بشيئة حاكم ، وهذا الحاكم إما أن يكون التوفيق والاستقامة ، وإما أن يكون الغرور والتعجب ...

أما القلب ... فله نوران ساطعان ... هما العلم الايمان ، وجميع ذلك الذى ذكرنا ... أدوات القلب وحواسه وآلاته ، والقلب هنا فى وسط هذه الآلات كالمالك ... وهذه جنوده ، تعمل من أجله ، وتؤدى له ما افترضه عليها ، أو كأن القلب مرآة مجلوه ، وهذه الأدوات حوله تظهر فيراها ، وتنقدح فيه ، فيجدها أمامه ..

وبخلاصه القول ، أن الخواطر خطاب يرد على الضمائر ، فإذا كان من قبل المالك .. فهو الالهام ، وهو على لدنى ... تصديقا لقوله تعالى :

« وأتيناه رحمة من عندنا وعليناه من لدنا علما » (الكهف : ٦٥)

أما إذا كان الخاطر من قبل الشيطان ، فهو الوسواس الذى يوسوس فى صدور الناس ، فيجعل ما هو باطل حقا ، وما هو حق باطلا ، أما إذا كان الخاطر من قبل النفس ، فهو الهاجس ، وهو ينزع الى الملمات والشهوات ، ولا يشبع من جوع ، ولذلك رجب على الانسان أن يستعين بالله من الشيطان ، كما يقول الله تعالى :

« قل اعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس » (الناس : ١ - ٦)

أما إذا كان الخاطر من قبله تعالى ، فهو خاطر الحق ، لأنه يلتقى فى القلب القساء ...

وعلاوة الإلهام الذى هو خاطر الملك ، انه يرد على القلب بموافقة الشرع
والعلم ... وكل الهام يرد على الانسان لا يوافق الشريعة ولا يشهد به بالصدق ...
فهو باطل .

أما علامة غلبة الهواجس على النفس ، كثرة اللجاج ... واللغو فى الطلب
بل الالتحاح فى وصف خاصة من خصائص جبلات النفس ، كاشره ، والطيش ،
ولا يزال الهاجس يعاود الانسان مرارا وتكرارا بين الحين والحين حتى يأتى
الانسان ذلك الوصف الذى طلبه هذا الخاطر الشيطاني ...

« واقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه » (ق : ١٦)

والغريب فى هذا الخاطر الوسواس أنه اذا جاء فى صورة إثم .. وخالفه
الانسان ودفعه عنه ، وامتنعت النفس عن اقتراف ذلك الإثم ، فانه لا يسكن ..
ولا يبدأ الا اذا وسوس له باثم آخر ، لأن جميع المخالفات عندهذا الخاطر سواء ،
فالشيطان كما قال عز من قائل :

« انما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » (فاطر : ٦)

« قال فبعتك لأغوينهم أجمعين ، الاعبادك منهم المخلصين » (ص : ٨٢ ، ٨٣)

فالشيطان دالب الغواية ، عامل لها ، ولا يبدأ له بال الا اذا وسوس للانسان
ليشرك بربه ، ويخالف أمره ، وينزلق الى هوى نفسه ...

« فوسوس اليه للشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة التلذذ »

(طه : ٢٠)

أما علامة الخاطر الحق (١) ، الذى هو خاطر اليقين أنه لا يودى الى حميرة
ولا الى ضلالة وسوء ، وانما يزدد به الانسان علما وبرهانا ، ويعرف عند حضوره

الى قلب الانسان ووجد انه ، فاذا ورد خاطر الحق على القلب ثم ورد بعده خاطر
حق آخر ، فان خاطر الثاني في رأى ابن عطاء أقوى ، لأنه ازداد بالاول قوة ..
ويرى الجنيد^(٢) - رضى الله عنه - أن خاطر الاول أقوى ، لأنه اذا بقى
وامتدد دعى صاحبه الى التأمل ، وهذا هو مجال العلم الحق ...

ويتفق أئمة الصوفية على أن من أكل الحرام ، لم يستطع أن يفرق بين أى
من الخواطر ، اذ يلبس عليه الأمر بين خاطر النفس ، وخاطر الشيطان ، وخاطر
الملاك جميعا ..

(٢) الشيخ أبو بكر محمد الكلاباذى - التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٠٩ - تحقيق
الاستاذ محمود الزواوى .

الباب الثاني

أمراض القلب

مقدمة

- « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها » (الاعراف : ١٧٩)
« كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » (الاعراف : ١٠١)
« وقذف في قلوبهم الرعب » (الاحزاب : ٢٦)
« فيطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » (المنافقون : ٣)
« ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم » (آل عمران : ١٥٦)
« يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » (آل عمران : ١٦٧)
« وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون » (التوبة : ٤٥)
« وزين ذلك في قلوبهم وظننتهم ظن السوء وكنتم قوما بورا » (الفتح : ١٢)
« رضوا أن يكونوا مع الخولاف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » (التوبة : ٩٣)
« انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا » (الكهف : ٥٧)
« فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » (الزمر : ٢٢)
« لكن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في الدين » (الاحزاب : ٦٠)
« لتخزينك بهم » (الاحزاب : ٦٠)
« أولئك الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم » (المائدة : ٤١)
« لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم » (الانفال : ٦٣)

«يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون» (التوبة : ٨)
 «يخسر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم» (التوبة : ٦٤)
 «وإذا ذكر الله وحده أشتت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة»

(الزمر : ٤٥)

«كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار» (غافر : ٣٥)

«وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة» (المجاثية : ٣)

«كذلك نطبع على قلوب المعتدين» (يونس : ٧٤)

«ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم» (التغابن : ١١)

صدق الله العظيم

الفصل الأول

داء الرياء

ينطوى الرياء على الخداع ، فمن يرائي الناس يخدعهم لأنه يظهر غير ما يبطن والرياء نوع من الشرك الخفى ، إذ أنه إدعاء كاذب ، حيث يزعم المرائي أقوالاً أو أفعالاً خلافاً للحقيقة ليغش الآخرين به ...

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : إن أدنى الرياء شرك (١)

وانرياء يمشى إلى النفس البشرية مثل دبيب النمل ، فلا يعلم منه أحداً إلا العارفين بالله المتعلمين الطائعين ، لأنهم أرتفعوا عن رؤية أنفسهم بما أودعه الله في قلوبهم من نور اليقين ، فلا يطلبون من الناس منفعة ولا يرجون منهم خدمة ، ولا يخشون منهم ضرراً ، إذ أن أعمالهم جميعاً خالصة لله ، وإن كانت ظاهرة للناس ...

أما المرائي فانه يولع بالآقنعه الكاذبة ، ويتكتم بالآغطية البالية ليكبغ - باطنه - القبيح ، ويتستر على نفسه الآماره ، فيوارى الشر ، ويحسن الباطل ، ليخفى الحقيقة غشياً وخداعاً يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم : -

لا تجدون شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين ، الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه (٢) ...

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢) عن معاذ وقد ذكره المعاصمى فى الرحمة .

والمرائي فاقده الجمال والصدق، وفاقد الشيء لا يعطيه، فهو وإن كان يتكلم
كلاماً ظاهره الرحمة، فباطنه العذاب .. كالذي يدس السم لمضيفيه، أو يطمئن
أصدقاءه ...

والمرائي يصير بالتهود كاذباً منافقاً ومخادعاً ومن ثم يعمى قلبه عن كل بصيرة
ويقع في شرك خداعه، فيحجب قلبه ويعبد ذاته ولا يرى غيرها محبوا .. حتى ولو
ظلم الناس جميعاً ...

«يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً» (النساء : ١٤٢)
والمرائي خادع مخدوع، خادع للناس ولنفسه، يهتم بنفسه ويقدمها في كل الأمور
وينافق ليحقق لذاته ويشبع حظوظه وأهوائه وشهواته .

«نسوا الله فنسيهم» إن المنافقين هم الفاسقون، (التوبة : ٦٧)
الرياء إذن فسق^(١) وعبادة للذات، ونسيان لله، وهو ثمرة فجة لاستحواذ
الشیطان على نفس المرائي الذي يغويها بالباطيل، ويوقعها بالتليسات والأكاذيب
حتى إذا لبست قناعه الخادع، ظنت أنها مركز الكون كبرياء وغرورا .. والمرائي
وإن عرف حقيقة نفسه إلا أنه ينعزل ناسياً ربه في غربة غريبة ...

«يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً» مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء
ولا إلى هؤلاء» (النساء : ١٤٢)

يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم : (٢) ..
«أخوف ما أخاف على أمتي ... الرياء والشهوة الخفية»

(١) الامام عبد القادر الجيلاني — فتوح الغيب ص : ٩٢

(٢) المرجع السابق

ويقول صلى الله عليه وسلم :-

« يخرج في آخر الزمان رجال يختلصون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود
الضأن من اللين .. ألستهم أحلى من العسل ، وقلوبهم قلوب الذئاب،

جاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال (١) : « إني أقف
الموقف أريد وجه الله ، وأريد أن يرى موطني .. فلم يرد عليه رسول الله لأنه
مراد رغب أن يعمل لله ، على أن يراه سبحانه وهو يعمل إيكافته على صنيعه أول
بأول ، فهو يريد أن يتقرب ممن ما يعمل ، ومعنى ذلك أنه يساوم الله ليبدل آخرته بدنيته
.. ويورد صاحب الرعاية (٢) أن رجلاً عاد إلى الرسول صلى الله عليه
وسلم ... قال يا رسول الله لا أحب أن يطاع (غيري) عليه فيطلع (غيري)
عليه فيسرفني (عندما أعلم ذلك) فقال الرسول لك إحسان أجر السر ، وأجر
العلاية ...

والمرمى ثوبه نظيف ، وقلبه نجس ، يزهد في المباح ، ويتكامل عن الجهاد
في العمل وطلب الوزق ، ويأكل بديته ، ولا يتورع عن الحرام يخفى أمره عن
الناس ولا يعرفه إلا أهل الحق .. أصحاب الفرائد (٣) ...

ويعدد لنا الإمام الغزالي (٤) ... بعض أصحاب الكبر والرياء والحسد
وطلب الرياسة ، فيقول عنهم ما قاله الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أنهم
أصحاب الشرك الأصغر ، لأنهم تركوا المعاصي الظاهرة ، ومع ذلك فإن قلوبهم

(١) الإمام الشيرازي - كشف النية - ص ٢٤ ج ١

(٢) الإمام الجليلي - المنهج الرباني - ص ٤١ - ٤٤ وكذلك ص ٦٤

(٣) المارص الهوسبي - الرعاية ص ٢٧

(٤) الإمام أبو حامد الغزالي - ص ٢ - ٢٠ - الكشف والتبيين

لم تمنح عنها الصفات المذمومة ، ومثلهم كالذي أصيب بالجرب فأمره الطبيب بتناول الدواء ، ودهان جلده ، فترك شرب الدواء ، واهتم فقط بالدهان ... فأزال ما بظاهر الجلد من أمراض ، ولم يزل باقيا ما يبطنه ، فلا يستقيم له حال إلا إذا عالج نفا في باطنه من الجرب الذي يطفح على ظاهره ويزداد يوما بعد يوم ..

كما يوضح الإمام الغزالي بعض فرق المغترين فيقول : « ونفر أغترؤا بالمصوم ، وربما صاموا الايام الشريفة ، وهم في ذلك لا يحفظون المستهم عن الغيبة ، ولا يطونهم عن الحرام عند الافطار ، ولا من الهذيان بأنواع الفجور ... »

وهؤلاء المغترون تركوا الواجب واتبعوا الجائر ، وظنوا أنهم يسلمون ... ثم يوجه إليهم لومه قائلا : هيات ... هيات إنما يسلم من أتى الله بقلب سليم ، « ... »

ويتشابه المرائي مع (٢) النرجسي الذي يراه علماء النفس الحديث عابدا لذاته ، لا يعمل إلا لمنفعته الشخصية ، أو لاشباع غروره وتمجبه بنفسه أو مهاداة أمراضه الدفينة من نقص وعجز باستظهار العظمة والاستعلاء والخطاسة ... وطلب مدح الناس له وثقتهم عليه وتقريبهم لأعماله لتسكن بذلك مخاوفه ، وهذا ما يسمى بغوييات الطستيريا (٤) ...

ويمتدح بعض علماء النفس أن الطريق لعلاج النرجسية أو حب الذات ، إنما

(١) الإمام أبو حامد الغزالي - الكشوف والنبيذ في غرور الخلق أجمعين (هامش كتاب

تنبيه المغترين ١ ص ٣ - ٣٠

(٢) يستخدم علماء النفس تعبير نرجسي ويقصدون به المحب لذاته لدرجة العبادة

(٤) موجز التحليل النفسي ص ١٦ Narcissium

يُثم يشغل النرجسي باهتمامات أخرى ، وتبديل أفكاره بأفكار جديدة ، غير التي تستحوذ عليه وتستعبده ، فإذا استبد بشخص حب التعظيم ، فعليه أن يعالج نفسه بمشاعر أخرى بديلة ..

وربما لا يكون ذلك علاجاً بآثر لأمراض النفاق والرياء ، إذ أن علاج الداء يزرع داء آخر صورة ذات وجهين ... وأما الطريق الاسلامي في علاج المرائي يمكن في كسر شهرته ، وهذا لا يتأتى إلا بالتواضع ، وأن يخرس في نفسه أن خالق الكون وصاحبه هو الله ، وأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا إذا أَرَادَهُ الله ، فينتقل من حب ذاته إلى المحبة الالهية ، ومن الشك إلى الايمان ، ومن الكذب إلى الصدق ومن الخداع إلى الحق ، وبذلك يمكن أن تتغير نفسه تغيراً عميقاً فلا يطعم في مرضاة الله ، فتهدأ نفسه بهد أن أفرغت من أهوائها الدنيوية ، ولا يعود إلى تبرئة نفسه عند الناس ، ولا تشغله عيوبه ، ولا يحاول أن يسترها بقناع الفض والخداع ، ويعمل على تخليه ما في قلبه من العجب والكبرياء ، وبذلك يتجنب الشهور بالنقص والذنب ، ويستعيد ثقته بالله ... وليس هذا العلاج كما يدعى علماء النفس تخفيفاً أو تنسياً أو حيلة هروبية ، وإنما ذلك تقويماً للنفس ورجوعاً لحظيرة الايمان ، وبثراً لأمراض القلب ، فيعود المريض صحيحاً سليماً عارفاً بنفسه وربه جميعاً ...

ومن الرياء حب الرياسة والتعظيم وتسخير الناس لمصلحة المرائي كما أن من الرياء سواء في العلم أو العمل حب الاستعلاء ليعلموا صاحبه وليعلم الآخرون وليعلم الناس أنه أعلم العلماء وتظهر المباهاة في العمل ، فان صلى المرائي ركوعاً أو سجوداً فإنه يزيد أمام الناس خوفاً أن يسبقه أحد ممن يصلي معه ، ويجزع إن علاه غيره في عمل من الأعمال كما يجزع عندما ينفق غيره أكثر منه ، ويحاول أن يزيد عليه ... ولو كان وحده ما أنفق .. وكذلك فيما يتعلق بالرياش والحلم.

والمرأى يتفاخر بالدنيا ويتباهى بها فيقول لغيره أنت فقير لا مال عندك ... أو يسأل كم ربحت وكم عندك من المال ... وأنا عندي أكثر مما عندك ... ويتفاخر أيضاً في العمل فيقول لغيره أنا جاهدت وحاربته وأنت لم تحارب وقد جنت عن الاشتراك في النضال ..

وفي مجال العلم يتفاخر به وله ومجالسة العلماء وتقديمهم له على غيره ...

الفصل الثاني

كيفية الغضب

الغضب ابتلاء ، وكظمه تكليف ، والانسان محوط باللذات والمكافء ويمتنع العبد في عمله ، وفي مملوكه الذي يسلمه ليعرف صدقة من كذبه ...

والغضب من القوى العيظانية^(١) التي أودعها الله في الانسان ، فاذا استفز الانسان الغضب ، فقد ارتبط بهذه القوة النارية ، والانسان من طين مراكب فيه وقار ، وأما الشيطان فمن نار تلظى بالحركة والاضطراب ، لذلك يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

« ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »^(٢) .

ومن نتائج الغضب الحقد والحسد ، وهو يسوق الانسان الى المراض وتكثير الطبائع واختلاطها ، ولذلك وجب معرفة مكائده ليتمكن علاج المذموم منه ، وبيان فضيلة كظم الغيظ ، ثم الحلم والعفو والرفق ، وفي ذلك ورد قوله تعالى :

« اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية^(٣) حمية الجاهلية ، فأنزل سكينة على رسوله وعلى المؤمنين » (الفتح : ٢٦)

يسأل أبو البرداء - رضي الله عنه - الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

(١) قوت القرب ج ١٧٤ وما بعدها .

(٢) من أبي جلي في معرفة من زيد بن أرقم وذكره البيهقي في الجامع الصغير .

(٣) الحمية - الصادرة عن الغضب .

دلنى على عمل يدخلنى الجنة ... قال : لا تغضب (١) .

وقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : الغضب يفسد الإيمان كما يفسد العبر
الحسل ، (٢) ... أى كما تفسد المرادة الحلاوة ...

حقيقة الغضب : (٣)

ركب الغضب فى الإنسان ليحميه من الفساد ، ويدفع عنه الهلاك ، ففى
تكوين الإنسان وفى داخله حرارة ورطوبة ، وبينهما عداوة وتضاد ، فلا تزال
الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها ، ولولا اتصال مدد الغذاء بالرطوبة لفسد
الحيوان ، فخلق الله الغذاء الوافق للحيوان ، وخلق فى الحيوان شهوة للغذاء ...

أما فى خارج الإنسان ... فيظهر الغضب عند تعرض الإنسان للاخطار
وهنا يجب أن يحصل على قوة وحمة ثور عند الحاجة وهى بمثابة رد فعل للعدوان
فتشعل نار الغضب فى نفسه كما يشتعل النار فى القدر ، وينصب ذلك على الوجه
فيحمر الوجه والأمين ، والبشرة لتبين ما وراءها من حمرة الدم ، كما تبين الزجاجة
لون ما فيها ...

وقوة الغضب محمها القلب (٤) ، ومعناها غلبان دم القلب لطلب الانتقام ،
وتتوجه هذه القوة فى ثورتها الى دفع الأضرار قبل وقوعها والتشفى والانتقام

(١) ذكره ابن الدنيا والطبرانى فى الكبير والوسط بإسناد حسن .

(٢) ذكره الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من رواية يهرين حكيم عن أبيه عن

(٣) الامام أبو حامد الغزالي - حياه علوم الدين ج ٩ ص : ١٦٤٠ -

١٦٤١ وما بعدها .

(٤) الامام أبو حامد الغزالي - حياه علوم الدين ج ٩ ص : ١٦٤٠ - ١٦٤١

بعد حدوثها ... والانتقام هو قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لنتها ، ولا تسكن
 إليه ... إلا أن المؤمن عندما يستفز بالاساءة اليه يصفح عن المعتدي :
 « وإذا ما غضبوا هم يغفرون » (الشورى : ٢٧)

الحق القاض في الغضب :

التفريط (١) في القوة الفضية دأيتل ضعفا ، وهو مذموم ، ويقول الشافعي
 رضي الله عنه : « من استغضب فلم يغضب فهو حمار » (١) ، لأن فقد قوة الغضب
 نقص في الانسان لقوله تعالى :

« أشداء على الكفار رحماء بينهم » (الفتح : ٢٩)

جماد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ، (التحريم : ٩)

أما الإفراط ، فهو الزيادة في الغضب حتى يخرج عن العقل والحكمة والدين ،
 ولا يبقى للانسان بصيرة ونظر وفكر ولا حسن اختيار للأفعال والأعمال فتغلبه
 كلية الغضب (٢) الى هي قوة في النفس الامارة ، فينزغ الى التشفى والانتقام ...
 وبعضهم يسمى ذلك شجاعة ورجولة ، كأن يقول أحدهم : أنا لا أضرب على أحد أو
 لا أحتمل من أحد أمرا ، وهذا يعنى انه لا عقل له ولا حلم ... ولا حكمة ...
 ويتأثر بعض الناس بهذا الرأي الفاسد فيرسخ في نفسه طبع الغضب ويتشبه
 بمؤلاء الجملة في تقويه نار الغضب ، فمهما وعظ لا يسمع لأنه عمى عن كل نصيح

* التفريط : قلة الغضب

(١) الاحياء : ج ٩ ص ١٦٤٠ وما بعدها

(٢) لشريعة والحقيقة - عجائب القلب ص ٢٥ - ٢٦

وموعظة ، بل انه على العكس يزداد غضبا مع النصيحة وتسود الدنيا أمامه ، وإذا راجع نفسه لم يقدر الى ذلك سبيلا ، اذ ينطفىء في نفسه نور العقل ... وينتفك ملك الحيوان الهائج ...

وفي الغضب يتصاعد دخان مظالم الى الرأس ، فيستولى على معادن الفكر ، بل ربما يتعدى ذلك الى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بها شيئا (١) ...

وربما يتمكن الغضب من الانسان ، فلا يستطيع اطفاءه لامن الداخل أو الخارج حتى يحترق ما يقبل الاحتراق ، وربما تجف وطوبة القلب في الغضب ، فيهوت كندا وغيظا ، اذ أن السفينة التي تجري في بحر لجي ، متلاطم الامواج أفضل حالا من النفس المشحونة غيظا ، لان السفينة يحاول وبها انقاذها ، أما في الغضب ، فالقلب هو صاحب السفينة ، وقد سقطت حيلته وأعماء الغضب ، فلا يستطيع أن يدبر شيئا .. يقول الرسول (٢) صلى الله عليه وسلم :
« ان الله تعالى لما خلق الخلق كتب يده ان رحمتي تغلب غضبي »

ولو رأى الغضبان - في حاله غضبه - قبح صورته لسكن غضبه حياء من نفسه بل لوجد أن قبح باطنه أعظم من قبح ظاهره ، اذ أن الظاهر عنوان للباطن ..
يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :-

« ألا إن الغضب جمره توقد في جوف ابن آدم ، ألا ترون الى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه (٣) ... فاذا وجد أحدكم شيئا من ذلك فالارض

(١) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ...

(٢) الاحياء - جزء ٩ ص ١٦٤٠ - ١٦٤٢ مطابع الشعب

(٣) المرقى الذي يقطعه اذابح.

الأرض . . . إلا أن خسر الرجال من كان بطيء الغضب سريع الرضا ، وشر
الرجل من كان سريع الغضب ، بطيء الرضا ، (١)

أما أمر الغضب في الظاهر فيظهر في السباب والاعتداء بفحش الكلام ،
أما أمره على الأعضاء ، فالضرب والتهجم والقتل والجرح بدون مبالاة ، فإذا لم
يتمكن الغاضب من الماخضوب عليه ، رجع غضبه إلى نفسه فمزق ثوبه ، ولطم
وجهه ، أو جحر الأرض أو الجدار ، وأحياناً يمدو مسرعاً ويقع على الأرض لأنه
يضيق العدو من شدة الغضب ، ثم أنه يفعل أفعال المجانين . يقول الرسول
صلى الله عليه وسلم :-

« إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار .. انما تطفأ النار بالماء ،
فإذا غضب أحدكم فليترضاً » (٢)

أما أمر الغضب في القلب ، فإنه يولد الحقد والحسد واضمار سوء والشماتة ،
والحزن على نعم الغير ، وإفضاء الأسرار ، وإهتاك السر ، والاستهزاء .. ولذلك
يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم :-

« لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان » (رواه الجماعة)

وإذا كانت زيادة الغضب دالة على المرض النفس ، فكذلك فإن نقص الحمية
تؤاد قلة الأنفة ، وضعف النخوة في الدفاع عن العرض والوطن ، واحتمال الذل
من الاخساء ، وضعف النفس والدأمة ، وهذا مذموم أيضاً وفي ذلك يقول الرسول
صلى الله عليه وسلم :-

(١) رواه ترمذى

(٢) (٢) رواه أبو داود من أبي نعيم من مسأوة مع تغير في اللفظ (فليقتل بدلاً من فليترضاً)

« ان سعدا لغيرور ، وأنا أغير من سعد وان الله أغير منا » (١)

أقد خلقت الغيرة لحفظ الأنساب ، ولو تسامح الناس في ذلك لاختلطت
الأنساب ، ولذلك قيل أن كل أمة وضعت الغيرة في رجالها ، ووضعت الصيانة في
نسائها ...

ومن ضعف الغضب الخور والسكون عند مشاهدة المنكر والفسق ، ومن فقد
الغضب عجز عن رياضة نفسه ، إذ لا تتم رياضة النفس إلا بتسلط الغضب على
الشهوة ، فيغضب الإنسان عند ميل نفسه إلى الشهوات الجنسية ... (٢)

والغضب المحمود هو الذي يساق العقل ، ويواكب الدين ويستمد منها اعتداله
واستقامته التي كلف الله بها عباده ، وهو الوسـط الذي قال فيه — صلى الله
عليه وسلم — :

« وخير الأمور أوسطها » (٣)

ومن مال غضبه إلى الفتور ، طعفت نفسه كأنه علامة على الحسة والذلة
والظلم في غير محبة ، ومن مالت نفسه إلى الغضب المفرط ، جرّها إلى التهور
والفواحش ، وفي كلا الحالين ينبغي أن يعالج نفسه بالوسط الحق ، لأنه أهراط
المستقيم ، والخير الفاضل ، وهذا أرق من الشعرة ، وأحد من السيف ، وهو من
أشق الأمور لقوله تعالى : —

« وان تستطاعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل »

(النساء : ١٢٩)

(١) ذكره أبو هريرة وهو متفق عليه من حديث الغيرة

(٢) الشريعة والحقيقة الدوائف عجائب الغلب ٥٧ إلى ٧٠

(٣) ذكر هذا الحديث النبهني في الغلب ...

لماذا يفتضب الانسان :

يحب الانسان بعض الاشياء والاعمال ، فاذا سلبت منه يفتضب ، وبعض هذه الاشياء ضرورية له وبعضها كمال ، ومن ذلك :

١ - الغذاء والكساء والمسكن وصحة البدن ، فاذا اعتدى على النفس ، أو سلب المال أو الملك أو جزء منها ، أو كلفا غضب الانسان ، وكما من الضروريات التي يفتضب الانسان من زوالها ...

٢ - المال والجاه العريض ، والادوات النافعة للانسان ، وهي محبوبة له ولو انها ليست ضرورية ، ولكنها مطلوبة بالعادة فيفتضب الانسان على من يسرقها ، واكثر غضب الناس على ما هو غير ضروري ، لحبه للشهوات ذلك أن بعضهم يفتضب إذا قيل له أنت لا تحسن اللعب بالنرد (الطاولة) مثلا أو لا تقدر على شرب الخمر الكثير ...

٣ - ما هو ضروري عند بعض الناس دون البعض . وذلك مثل الكتب عند العالم فيفتضب لحرقها ، أو أدوات الصانع فيفتضب لسلبها ...

علاج الغضب :

الرياضة النفسية وسيلة لتخفيف الغضب إلى ما هو ضروري ، أو إضعافه ، لحد الاعتدال وليس مقصوداً بالرياضة محوه وإعدامه وإنما المقصود منها عدم اطاعة الغضب عملاً بالشرع ، وما يستحسنه العقل ، وذلك يمكن التحقق بالمجاهدة ، وتكلف الحلم حتى يصير الحلم طبيعياً راسخاً ، وخلقاً دائماً (١) ...

أما قمع الغضب واستئصاله فهو ليس من الممكن ، لأنه ضروري في حق كل شخص ، وإنما الرياضة تمنع الغيظ وتضيق الغضب وهيجه في الغاضب ...

(١) الأحياء الجزء التاسع مطايع الشهب ص ١٦٤ وما بعدها .

أما ما هو ليس بضروري من الغضب فيمكن عن طريق الرياضة النفسية إخراجهُ من القلب ، وذلك بتذكير الإنسان أن وطنه القبر وأنه مستقره الأخير ، وأن الدنيا لهو وعبت فيزهد فيها ، ويحمو حبيباً من قلبه ، وإذا كان للسان كلب لا يحب . . فانه لا يغضب لضربه فالغضب يتبع الحب . .

والغضب إذا كان لله . . فهو محمّد ، وإذا كان لغيره فهو مذموم ، والمؤمن يغضب لنصرة دينه ، إذا خرق أحد حداً من حدود الله ، كما يغضب النصر إذا أخذوا حبيده (١) .

والكن إذا غضب الإنسان مدعياً أنه غاضب لله ، وهو غاضب لنفسه كان منافقاً . . فالغضب لله يبقى ويرداد ويستمر ، أما لغير الله فيتغير ويذول . .

« فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ، (طه : ٨٦)

وينبها الرسول ﷺ أن الرجل الشديد هو الذي يستطيع أن يكظم غيظه ، ويملك زمام نفسه الثائرة ، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بمجاهدة النفس ومخالفة أهوائها - يقول الرسول ﷺ :

« ليس الشديد ، بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » (٢) .

(١) سيدي عبد القادر الجيلاني — الفتوح الرباني ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

الفصل الثالث

الخفلة والنسيان

يرى فرويد أننا نفى ما لا نريد أن نتذكره .. وما لا نهتم به ، وما هو مصطبغ بصبغة وجدائية غير سارة (١) .

ويعتبر النسيان عند بعض علماء النفس .. اخفاق تام في الاسترجاع حتى ولو توافرت جميع الظروف التي يجب أن تسترجع فيها الذكريات عادة ، وقد أجريت تجارب في موضوع النسيان أدت إلى نتائج منها :

١ - أن بين الناس فروقا من حيث قدرتهم على الوعي ومن جهة سرعة نسيانهم ما قد تعدوه .

٢ - أن مراعاة شروط التحصيل الجيد .. هو أمان من النسيان إلى حد كبير .
٣ - ذلك بعض التجارب على أن النسيان يكون في أول الأمر سريعا ، أى بعد التحصيل مباشرة .. ثم يأخذ في التباطؤ تدريجيا بعض الزمن حتى يصبح في النهاية بطيئا جدا .

ومعنى ذلك أن النسيان له علاقة بمرور الزمن ، كما أن له علاقة بالاهتمام بما يحدث كما يؤكد بعض علماء النفس أن الاسراف في تعاطي المواد المخدرة يؤدي إلى النسيان ، وكذلك فإن كثرة الدوافع تساعد على النسيان باعتبارها عجز عن الاسترجاع ما تم تحصيله .. .

ويخلص علماء النفس الحديث إلى أن النسيان راجع إلى الاهتمامات الراكدة وليس راجعاً إلى عدم الاهتمام... فالنسيان في رأيهم ليس عملية سلبية، بل هو عملية ناشئة عن تداخل أوجه النشاط المختلفة.. ولذلك ينصح أصحاب هذه النظرية بوجوب التريث فترة من الزمن في تحصيل موضوع ما، وعدم المبادرة بتحصيل موضوع جديد غيره.. حتى لا يتلف أحدهما أثر الآخر، كما ينصحون بالاسترخاء.. أو النوم فترة من الزمن كوسيلة لاسترجاع ماثم تحصيله.

ويعتقد هؤلاء العلماء أن الوعي الجيد لا يتضمن الاسترجاع الجيد، إذ أن هناك عوامل تعوق الفرد عن الاسترجاع.. كالخوف من الاسترجاع، والخلل من محادثة الفتاة، والصدمات الانفعالية، والتداخل.. كأن يتذكر اسم شخص معين.. فتتداخل أسماء أخرى، فيستعصى استرجاع الاسم المطلوب، أو أن تعرض للخطيب طريقتان في التعبير عن نفس الفكرة، فيتردد ويختلط عليه الأمر.

ويستخدم علماء النفس طرقاً عديدة للخلص من النسيان منها :

١ - الاسترخاء وعدم بذل الجهد... كأن يترك الموضوع الذي يريد تذكره فترة معينة، وموضوع آخر، فإذا به يتذكر بعد أن يتضجع... أو يسترخى.. ليتذكر كل ما يطرأ على ذهنه.

٢ - ما يسمى باكتحال الملابسات، كأن يؤخذ المشاهد إلى مكان الجريمة ليتذكر ما قد لسه، لأن وجود المرء في نفس المجال السلوكي يساعد على استرجاع الذكريات.

٣ - التنويم المغناطيسي.. وهذه وسيلة بها يتذكر الإنسان حياته الطفلية، وقد قام بعض العلماء بتجارب على بعض الأطفال، وكادت من نتائجها أن الأطفال

استطاعوا أن يصفوا الأحداث وصفا واضحا وكانلا وصفيهما .

٤ - طريقة النظر في بلورة ، إذ ثبت أن النظر في بلورة من الزجاج يساعد على استرجاع الحواطر .. بل قد يرى بعضهم صورا وهمية ، ولا يعرف أنها جزء من خبرته السابقة .

وقد دلت التجارب العملية على أن الذكريات المؤلمة أعصى على الاسترجاع من الذكريات التي لا يهتم بها المرء ، فقد طاب من مجموعة من طلبة الجامعة أن يذكروا بعض الذكريات السارة (١) ، فوجد أنهم تذكروا نسبة ٥٤,٤ ٪ من الذكريات السارة ، وأعيدت التجربة على نفس الطلبة على أن يسترجعوا الخبرات الغير سارة ، فكانت نسبة الاسترجاع ١٣,٤ ٪ ، وكان الفرق هو ١١ ٪ ...

ومعنى ذلك أن الإنسان يستطيع أن يسترجع الخبرات السارة أكثر من الخبرات المؤلمة ... ١١

ويذكر فرويد (٢) أن النسيان ... أو فساد الذاكرة .. ليس اختفاء حقيقيا لاطباعات الطفولة ، وإنما هو أشبه بفقدان الذاكرة لدى العصاةين ، أى هو عبارة عن محو ذكريات أحداث طرأت في عهد متقدم أى أن النسيان نوع من الكبت للأحداث .

ونحن نرى أن هذه التجارب إذا أدت إلى بعض النجاحات ، فهي مجرد

(١) أصول علم النفس : ٢١٩ وما بعدها .

(٢) سيجموند فرويد - الموجز في التحليل النفسى ص : ١٠٣ ترجمة د . سامي

عمود على .

فروض أو استنتاجات طير محقة .. فلا يعقل أن يكون النسيان السبب المباشر للإهتمام الزائد بالموضوع ، أو أن الغفلة لا علاقة لها بالوعي والرشد ..
لقد ربط علماء النفس النسيان والغفلة بالتحصيل والحفظ ، لكنهم لم يهتموا بنوعية العلم المتحصل ... هل هو صالح اللسان ... وهل النسيان المقصود عامس بموضوعات محقة الكمالات الأخلاقية أم موضوعات مؤدية إلى الأباطيل والأوهام وغلبة الأهواء ؟ ..

إن علم النفس الاسلامي يعالج موضوع الغفلة والنسيان من قاعدة أكثر شمولية ... فينظر للسان كوحدة .. ولا يركز على الذاكرة أو الحافظة . أو الوعي فحسب . إنما ينظر إلى النفس الانسانية في غفلتها ويقظتها .. كما أوحى الله لبعض أنبيائه :

«إني آليت على نفسي أن من ذكرني .. أذكره ، فإذا ذكروني بوصف الغفلة ... أذكرهم بالغضب عليهم » (١) .

وهذا تنبيه .. بل وزجر عظيم للغافلين ، كي يحافظوا على أوصاف العبودية ، أي يراقبوا الله في أعمالهم .. ويشكروه على ما أسبغ عليهم من النعم ... فلا يغفلوا أو يتغافلوا ..

وآية الذاكر أن لا يميل نفسه إلى هوى ... إنما سر كاته ... وسكنااته لله ... ومن الله .. وفي الله ..

فيري علم النفس الاسلامي أن الغفلة باب للنسيان الحق ، ومنبج للآلانية ، والشره ، وقسوة القلب .. ولأنه من طول استحواذ الغفلة على الإنسان يأتي

النفاق .. والكذب .. وأباطيل الشيطان ، وثمره الغفلة الخيانية .. وغلبة الأهواء ..
بقوله تعالى :

« استحوذ عليهم الشيطان فأنسوا ذكر الله » (المجادلة : ١٩)

وفي الخبر أن آدم استوحش كلام الملائكة فقال : « يا ربى .. لم لا أسمع كلام
الملائكة ، فجاء الرد :

« خطيئتك .. يا آدم » (١) .

فاذا زادت الغفلة .. غلب على الطبع السيئ ، وكان البعد وقسوة القلب ،
لأن الله وضع مقاديرا محددا للدوب إذا تمارزه اللسان طبع على قلبه .. فلا
يوفق إلى الخير أبدا ، وإذا غفل اللسان ونسى ، فإن الله لا يغفل ولا ينسى ..

« وما الله بغافل عما تعملون » (البقرة : ٨٥)

ولقد قسم سيدنا علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - الشرك بالله إلى
أربعة مقامات ... الشرك ... والجفاء ... والعمى ... والغفلة ... فاذا زادت الغفلة
في القلب ، ضعف استلهاام الإنسان للحقائق ، فلا يسمع ولا يرى :

« والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات » (الانعام : ٣٩)

وعدم رؤى وسماع خاطر الحق ، يبعد الإنسان عن الخير والرحمة فينقاد بذلك
إلى الأهواء ويتبع في التهلكة والضلال والظلمة :

« والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير » (العنكبوت : ٨)

« ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » (الأعراف : ١٤٦)

والغافل ينسب جميع الأعمال والأعمال إلى نفسه تكبرا وغورا ، وينسى أن هناك عالما مديرا فيرجع إلى نفسه كل توفيق ونجاح ويصبح زهوا واستعلاء .. ماذا أفعل اليوم ؟ ... وينسى أن الله هو العامل على الدوام ، وأن العبد مهما ينجح ويوفق مفتقر إلى الحق تعالى على الاستمرار ، لأن كل فعل وأمر بهميته تعالى .. والناسي لله .. ينساه تعالى لقوله :

« نسوا الله فأنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون » (التوبة : ٦٧)
أما العاقل ، فلا ينسى الحق تعالى ، ولا يغفل عنه ، كما أن كل ما يحول بخاطره يرجعه إليه ، فيقول : ماذا يفعل الله اليوم بي ؟ ... فهو عبد ذاكر له ، موافق لقضائه ، يدفع عن نفسه ذرائع الشيطان التي هي الغفلة والنسيان ، بدوام التفكير وذكر الله عملا بقوله تعالى :

« واذكر ربك إذا نسيت » (الكهف : ٢٤)
والخاطر الشيطاني يغري الإنسان ويدفعه إلى الانحراف والميل به عن جادة الحق وعن سبيل الرشاد والسواء ، بل أنه يورده مورد التهلكة ، وأما الخاطر الملائكي فإنه يوافق العبد بالله ، فيوفقه ويرشده ويثبته بالأمن والأمل والسكينة ، ولذلك فإن الآيات القرآنية الكريمة تحت الإنسان دوما على البعد عن الغفلة والنسيان ، لأنها طريقا الضلال والانحراف لقوله تعالى :

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وأبغ هواه » (الكهف : ٢٨)

« قال كذلك أتتك آياتنا فلنسيها ، وكذلك اليوم نسى » (طه : ١٢٦)

والتمييز بين العبد الغافل والعبد العاقل ، إنما يظهر في القدرة على استخدام الميزان العدل الذي يحكم به على الخواطر الشيطانية والملائكية ، فإذا كان العبد

حكماً عرف طريقه إلى التوحيد ، فلا يرى فعلاً ولا قولاً ولا عملاً إلا وينسبه إلى الله تعالى ، ولا يرجع إلى نفسه حولاً ولا قوة ، وإنما يرى ما يراه الله بإرادته وحوله وقدرته ..

أما الغافل ، فيؤن بميزان حظوظ نفسه ، ويحمل في حرامتها ويرجى محاسبتها لها ، ويؤخر التوبة ، ويترك الاستغفار ولا يقبل على الندم ، وينسى الرعاية لحقوق الله ، فيغلب على القلب الهوى ، والبعد عن الاستقامة ، ويمضى في طريق الغفلات ، وأصل ذلك كله راجع إلى حب النفس ، والانغماس في شهوات الدنيا .

« وقيل اليوم نذاكم كما أسيتم لقاء يومكم هذا » (الجاثية : ٢٤)
وأفضل السبل لعلاج الغفلة ، إنما يكمن بالتوبة ، وهي الندم على ما اقترفته الإنسان من الذنوب والآثام ، فإذا تاب العبد توبة نصوح :

« فيكشف ما تدعون إليه إن شاء الله وتأسون ما تشركون » (الانعام : ١١)
كما أنه لكي يصلح العلاج بالتوبة .. لابد أن يبدأ العبد بالاستغفار والاعتذار إليه تعالى ، وهذا باب الهداية ، إذ أن الذي ينقاد إلى حظوظ نفسه ، لا يمكن أن يهتدى إلى الله ، ولذلك يتوجب على الإنسان أن يراقب نفسه دائماً ، وينظر إلى ما يغفلها فإذا واجه قلبه ثم وجده يرد الأفعال إلى حوله وقوته ، فليعلم أنه سينقطع عن الله ، أما إذا واجه قلبه فوجد مشغولاً بالله ، فهو المتصل بالحق تعالى فيقول (١) :

« اللهم وفقني لمسالكه وترعاه من القول والعمل في طاعته ، إليك ذو الفضل العظيم .. »

ومن هنا نجد اختلافا بين نظرة علماء النفس الحديث ، ونظرة علم النفس الاسلامي .. فنظرة الاسلام إلى الانسان الغافل ترتبط بالسلوك الاخلاقي في الدنيا والآخرة ، كما ترتبط بالصدق والاخلاص والطاعة لله جميعا .. وكلها غفل أو تغافل الإنسان ، فان ذلك معناه أن الشخص يسير في طريق الغواية والبعد عن الحق ، والالتقياد إلى الشهوات لذلك كان التذكير هاما لتجنب الغفلة ، وكان التهيب وسيلة لرجوعه من غيه ، وكان الترغيب طريقا لتحلية نفسه بكل وصف محمود ، وتزكيتها بالاعمال الصالحة ...

وهكذا يصبح الإنسان آفة يجب القضاء عليها لأنه يباعد بين العبد وربه ، بل يجعل بينه وبين الله حجابا كثيفا ، مما يوقعه في الانحراف والغواية .. بل في الضلال والضياع .. فلا يعرف طريقه لا في الدنيا ولا في الآخرة ..

وبالجملة فان أصحاب القلوب السليمة يخلدون إلى الراحة ، وينعمون بالطمأنينة لقواه تعالى :

« إلا من أتى الله بقلب سليم ، (الفرجاء : ٨٩) وما دام الإنسان بعيدا عن الغفلة ، متجنباً الأهواء ، فإنه ينعم بلذات عظيمة في المعاني (١) .. ، فكما تنعم البطون بلذات الأطمحة ، تنعم القلوب بلذات الفكر ، والذي يتذوق هذه اللذات حقا .. من وصى بالله رباً .. فوجد لذات المعاني في التفويض ، وعدم التدبير مع الله .. فيحيا حيا هنيئة بالرضا مع الله ، ويحمد جلالة ذلك في قلبه ونفسه وعقله جميعا ...

الفصل الرابع

الوسواس

يرى بعض علماء النفس المحدثين أن الوسواس تطلق على فكرة أو مجموعة أفكار تفرض نفسها بالحساح على لا شعور المريض ، بخالفة إرادته ورغبات نفسه ، حتى أن المريض النفسى يستطيع أن يتعرف على شذوذ هذه الفكرة ، بل ربما يشكو منها .

فالوسواس بهذا المعنى عند علماء النفس حالة نفسية قهرية تبدو فى صورة فكرة متصلة أو شعور متسلط أو اندفاع اجبارى للقيام بعمل معين (١) ..

ويصف علماء النفس حالة المريض المصاب بالوسواس بأنه تسبب به أفكار وخواطر تلازمه كالظل ، فلا يستطيع منها فكاً ، مهما بذل من الجهد والطاقة أو حاول اقناع نفسه بالبعد عنها بالعقل والمنطق ، إذ أنها تهاصره وتضيق عليه ، فلا يستطيع أن يتخلص منها بأى صورة مهما حاول اقناع نفسه بنسائها ..

يقول فرويد (٢) : « كان المرضى الذين حللتهم يتمتعون بصحة نفسية جيدة حتى عرضت لحياتهم النفسية حالة لا تطاق ، أى حتى واجه الآنا لديهم خبرة أو تصوراً أو عاطفة أثارت انفعالا من العنف جعل الفهم يقرر لسيانه لأنه فقد الثقة فى قدرته على إزالة التناقض بين التصور المؤلم والآنا ، أى أنه عجز عن دفع هذا التصور عن طريق حمل الفكر ، فسد إلى أن يتعامل معه وكأنه لم يحدث على

(١) د. أحمد عزت راجح — أصول علم النفس ، ص ٢٠٣

(٢) سيجموند فرويد — لاوريل التحليل النفسى — ترجمة د. سالى محمود ،

الاطلاق ، الأمر الذي ينشأ عنه صراع يؤدي في النهاية إلى استبعاد هذا التصور من الشعور ، ولما كان ذلك محالاً .. لأن هناك التفاعلات مرتبطة بهذا التصور بل هناك ذكريات لا يمكن محوها من الذاكرة ، لذلك فإنه في حالة العصاب الوسواسي ينفصل الأفعال من الفكرة المأولة ، ويستبدل بها فكرة أخرى ليس فيها الطابع المؤلم ، ...

فريض الوسواس بهذا المعنى تكتنف نفسه قوى شعورية قهرية كالاحساس بالنقص أو الشعور بالخجل ، أو الاندفاع للقيام بنشاط معين ، أو التلطف بالفاظ نابية أو جارحة .

ويمثل بعض علماء النفس المحدثين لعصاب الوسواس بأمثلة عديدة كشعور الموسوس أنه لا يفلق لثوبه .. أو أنه مريض بمرض معين ، أو أنه سيكون ضحية لحادثة في الطريق ، أو أنه آثم أو عاجز ، كما تتناوب أحياناً مشاعر وحالات وجدانية ، كأن يستبد به الشعور بالخجل ، أو الخوف أو القلق أو الوحدة ...

ويرى بعض علماء النفس أن الفرد الذي يصاب بعصاب الوسواس يرغب على أفعال معينة تكون غالباً ضارة أو سلبية ، يمكن أن ينفذها عملياً وقت تسلطها أو لا ينفذها ، ويميل علماء النفس إلى اعتبار عصاب الوسواس حيلة دفاعية لتخفيف عما يعانيه المريض من شعور نفسي بالآثم والذنب ، كأن يغسل المريض مראوا ، أو يسرف في تنظيف يديه ، أو أدواته وهذا يقترن عادة بخوف ساذج من التلوث والقدارة ، كما أنهم يرون أن عصاب الوسواس يرتبط بالأفعال التكفيرية التي تتخذ طابعاً معيناً ، كأن يعذب المريض نفسه ويعاقب ذاته ، ويرجعون ذلك الشعور إلى أن الوسواسي صاحب ضمير قاس وصارم لا تهدأ شدته إلا إذا عوقب صاحبه عقاباً شديداً (١) ..

(١) أصول علم النفس - ص ٢٠٣ وما بعدها .

أى أن المريض يشعر بالذنب ولا يذهب قائمه إلا إذا وقع عليه العقاب ،
ويضربون أمثلة بمرضى مصابين يحرمون أنفسهم من مباحج الحياة ومن الظفر
بالنعم الذى فى تناول أيديهم ، بل يرون أن هناك من المصابين من يسرف
اسرافا شديدا فى إقامة الشعائر والعبادات ، أو يجهد نفسه فى العمل دون جوار ..
ويتفق كثير من علماء النفس المحدثين على أن الوسواسى يفتن إلى ما يسلبه به
من وساوس وأموور سخيفة حتماء ، لكنه لا يملك أن يخالفها ، كأن يشعر الزوج
برغبة فى إبداء زوجته التى يحبها كثيرا ، أو أن يلتقى بنفسه من مبنى مرتفع أو
يرى بنفسه فى البحر وهو لا يجيد السباحة . . .

ومريض الوسواس يشعر بشذوذ تصرفاته ، بل ويستبصر حاله ، وهو بذلك
يختلف عن مريض الفيليان الذهنى والجنون ، ، وهذا الاستبصار من الوسواسى
دليل على أنه غير مجنون ، إلا أنه يقف حياال المضغوط من حوله موقفا سلبيا ،
ولو لم يفعل ما يؤمر بفعله . . . اشتد به العلق والضيق ، وكأن عصاب الوسواس - فى
رأيهم - هو نوع من المخدرات والمكيفات التى اعتاد المريض على تعاطيها ، إذ أن
المصابين بهذا المرض يخلب على قلوبهم العناد والحذافة والتردد والتشائم ، كما أن
بعض هؤلاء المرضى يغاب عليهم المبالغة فى ادعاء الذمة ، والتظاهر بالعلم ، كما
ينصب اهتمام بعضهم بالمظهر السلوكى أكثر من اهتمامهم بروح القانون ، وسرعة
الدقة الغريبة أكثر من انجاز عمل خلاق ، وكلها تعد سمات خلقية تسلطية .

وينتهى رأى هؤلاء العلماء إلى أن المرضى بعصاب الوسواس هم قوم
فصلاء ، لكنهم غير سعداء ، ويرون أن الخلق الرفيع ليس دليلا على صحة النفس ،
إذ أن الوسواسى يبدو أحيانا هادئا هالما ونخبولا ، لكنه بركان يغلى من الداخل

فهو في دخيلة نفسه عنيد يتوق إلى السيطرة والتسلط والعناد ، ويرجعون بعض أمراض الوسوسة إلى الوراثة ويؤكدون أن السمات الوسواسية إنما ترجع إلى أمر الوسواسيين ، بل يحددون ذلك بأن تلك آباء المرضى ونحس أبناءهم تبدو لديهم أعراض وسواسية . . . (١)

بعد أن عرضنا لموقف علماء النفس الحديثين من الأمراض العصابية الوسواسية، نود في هذه المقالة مناقشة هذه الآراء . . .

يصف علماء النفس الحديث أعراض الوسواس ، فيزعمون أن الوسوسة قوة قهوية لا يستطيع الإنسان منها فكاً منها بذل من الطاقة ، واستخدم من الطرق لاقتناع نفسه بفسادها . . . انهم يرون أن الوسواس يستخدم بعض الحيل الدفاعية الإجبارية للدفاع عن الذات ضد القوى الغريزية المتسلطة ومنازعة الداس والشهوات ، ثم ينتهون إلى أن العتاب هو الوسيلة الوحيدة لتعقل الوسواس ، بل هو الطريق الذي يحل به مشاكله . . .

وهم يؤكدون على العزلة والسلبية كطريقتين وحيدتين يدافع بهما العصاب عن نفسه باعتباره رداً فعل للأفكار المتسلطة عليه ، والتي لا يستطيع منها فكاً منها بذل من الجهد والطاقة . . .

ولكننا نقول : إلا تفسد العزلة أو السلبية توازن الذات وتدفقها إلى الأهواء والتخيلات ، بل إلى الظلمة والهواجس ؟ . . . دعنا نرى إذن كيف ينظر أئمة الإسلام إلى الوسوسة . . .

ينظر أئمة الإسلام إلى الوسوسة على أنها نتاج حديث النفس (٢) ، وأما أنها

(١) د. أحمد عزت راجح - الأمراض النفسية والعقلية ص : ١٤٢ - ١٥٠

(٢) الأيام الممركدي . تنبيه الغافلين ص ٢٠٥ وما بعدها

وأحلامها في الشهوات والذات، وتوقد نارها الغفلة واسيان الحق، ويؤيد مسيرها الشيطان، وذلك بتحسين الأفعال والأعمال، وما يفتأ يزيد في طيبتها حتى يتعرف المومنون إلى الغواية والضلال ويرتكب أفحش الأعمال ويستقط في النهاية صريع الفتنة وتقل الأمراض، وإذا اعتاد الإنسان على الغفلة أصبحت الوسوسة طبعه الغالب. واستمر ذلك الطريق الذي لا يملك منه هروبا.

ويمالج علم النفس الاسلامي مرض الوسواس بنير الطرق المستخدمة في علم النفس الحديث، فالأصل في الوسواس عند الأئمة أنه شيطان رجيم يدخل إلى صدر العبد الذي يوسوس له، فإذا ذكر الله خنس الشيطان وخرج من صدره... والشيطان يزين للعبد طريق الضلالات ويحسن له سبل العصيان ويغذيه بوسوسته، إلا أنه لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك لقوله تعالى:

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، (ق : ١٦)

ويستطيع العبد أن يجتهد في دفع وسوسة الشيطان عن نفسه وذلك بمخالفته، والابتعاد عنه، لأنه عدوه اللدود، كما ورد في قوله تعالى:

« إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا . (فاطر : ٦)

والعاقل (١) يعرف عدوه من صديقه، فيطبع صديقه، ولا يتبع عدوه، أما الجاهل فيتبع الشيطان. لأن الجاهل له أوصاف أربعة:

- ١ - الغضب بنفسه سبب ٢ - اتباع الباطل ، ٣ - انفاق المال بنير حق ،
- ٤ - قلة معرفة صديقه من عدوه ...

(١) الإمام السمرقندي - تنبيه النافلين ص : ٢٠٥

لذلك فهو يختار طاعة الشيطان ، وهذا هو طبع الجاهلين ، تصديقا لقوله تعالى عن الشيطان :

« أفتنذر به وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ، (الكهف : ٥٠)
 أما العاقل ، فله أربع علامات ، ١ - الحلم ، ٢ - رد النفس عن الباطل ،
 ٣ - انفاق المال في الحق ، ٤ - معرفة الصديق من العدو ... »

ويروي لنا صاحب تنبيه الغافلين (١) . . . أن الشيطان قابل سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام - فقال له يحيى : « أخبرني عن طبائع بني آدم ، فقال إبليس : « هم ثلاثة أصناف : صنف منهم مثلك . . . معصومون لا تقدر لهم على شيء ، وصنف منهم في أيدينا كالكرة في أيدي الصبيان ، وأما الصنف الثالث فالتنازل على أحدهم حتى نغريه وندرك حاجتنا منه ثم ما يلبث أن يستغفر الله فيفسد علينا ما أدركناه منه فلا نحن في يأس منه ، ولا نحن ندرك حاجتنا منه . . . »
 وهناك موعظة (٢) تبين كيف يستخدم إبليس وأصحابه مكائدهم وحيلهم في الإيقاع بالناس وقتلهم :

« كان هناك رجلا متعبدا بأبيه الناس بمرضاهم فيدعوا لهم ويستبشرون به ، فبمرأ كثير من المرضى - بإذن الله - على يديه فاغتاظ إبليس منه واجتمع مع الشياطين وقال لهم : من يفتن هذا العابد الذي لم تفلح معه حيلة من الحيل لغوايته . فقال أحدهم : أما أفنته . . . فان لم أستطع فلست من حزبك . . . فقال إبليس : إنه لك . . . »

فانطاق الشيطان حتى أتى منزل ملك من الملوك له ابنة غاية في الجمال والحسن ،

(١) الامام السمرقندي - تنبيه الغافلين ص : ٢٠٥

(٢) المرجع السابق ص : ٣١٦ و ٣١٧

وكانت جالسة مع أهلها فأفرعها وأطار عظامها ، فصارت كالمنونة ، وحرار الملك في علاجها ، وحزن حزناً شديداً ، فأتاه الشيطان بعد أيام في صورة إنسان ، وقال له : إذا أردت أن تشفى ابنك فاذهب به سراً إلى فلان العابد ... يعالجه ويدهو لها ، فهو خير طبيب للنفوس ...

عند ذلك (١) ذهبوا به سراً فبرأت من مرضها ، ثم عاودها المرض ثانياً ... فجاء الشيطان وقال لذلك : إذا أردت أن تبرأ ابنك تماماً فاستبقها عند العابد أياماً ... فلما ذهبوا إليه رفضها العابد في أول الأمر ، ثم أحسوا عليه وتركوها هنده ...

وكان العابد دائم الصيام ، كثير الزهد ، فلم يستطع الشيطان أن يغويه ، إلا أن الشيطان كان يحد من الفرس ، وعاصمة عندما يقوم العابد إلى طعمه فيكشف له الشيطان عن جمال الفتاة ويوسوس لها ، فتراوده عن نفسه ، فيعرض العابد عنها ، حتى غفل مرة ولسى ، فنظر إلى جمالها فرأى جسداً والعالم ير مثله أبداً ، فلم يستطع أن يصبر ، فأقرب منها حتى ضعف فأغوته فجاءتها فحملت منه ...

فجاءه الشيطان وقال له : إليك قد فعلت فعلتك هذه ، وإن ينجيك عما صنعت إلا أن تقتلها وتدفعها عند صومعتك ، فإذا آتاك الملك وسألك عنها فقل : أن أجلبها فالت ، وسوف يصدقك الملك لما له من الثقة بك ويخلقك ، فقام العابد إلى الفتاة فدبحها ودفنها ، فلما سئل عنها أخبرهم أنها ماتت ، فصدقوه ...

ولما رجع أهلها ... جاء اليهم الشيطان وقال : إن العابد قد كذب فقد ربا بابنتكم .. وحملت منه .. فلما خاف أن يكشف أمره ذبحها ودفنها ، وأطلق الملك

مع حاشيته فحفر في المكان الذي دله عليه الشيطان ، فوجد ابلته مذبوحة ، فأمسك بالعابد وصلبه ، فجاءه الشيطان وهو مصلوب وقال له : أما الذي فعلت بك كل هذا ، وأنا قادر أن أنجيك من هذه الغمة ، وذلك بأن أدعى أن الذي ذهبها غيرك كما أنهم سوف يصدقوني ، ولكن لي شرط واحد ، هو أن تسجد لي سجدة من دون الله ، فقال العابد : كيف يتسنى لي أن أسجد لك وأما على هذا الحال ، فقال الشيطان : يكفيني أن تومي برأسك ... فسجد له العابد سجدة ، فقال الشيطان قول الله تعالى :

« إِذ قَالَ الْإِنْسَانُ أَكْفَرُ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ »
(الحشر : ١٦)

ويكشف لنا الامام السمرقندي (١) عن مكال الشيطان ويبين لنا أنه يأتي للإنسان من عشرة أبواب :

الباب الاول :

يقبل الشيطان على الإنسان في صورة الخرص وسوء الظن ، فإذا قابله الإنسان بالثقة في الله والقناعة به تعالى ، وردده مستعينا بقول عز من قائل :

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا »
(هود : ٦)

ينحسر الشيطان عندما يجد العبد يحسن الظن بالله ويثق به منه وعطاياه وفعله ، فيهرب الشيطان من هذا للعبد القانع الشاكر ..

الباب الثاني :

يأتي الشيطان أحيانا إلى الإنسان من باب الحياة الدنيا ، وزينتها وطول

الآمل فيها ، فإذا قابل الإنسان بالزهد فيها والخوف من الله ، ودفعه بقوله
أن الدنيا قصيرة مهمل طالت وأن الموت آت لا ريب فيه ، وهنا يزداد الشيطان
عاساً عندما يذكر العبد الموت ويتلو الآية الكريمة :

« وما تدري نفسي بأي أرض تموت » (لقمان : ٢٤)

وعندما يسمع الشيطان هذه الآية يعلم أنه لا يستطيع أن يخون هذا العبد
فيهرب ...

الباب الثالث :

يأتى الشيطان من ناحية طلب الراحة والاستجمام والميل للأيسر ، والرغبة
في التمتع (١) ، فإذا ما صدق الإنسان نفسه وخالف هراساً ، وذلك بطول
المجاهدة والزهد في النعم وتذكر عاقبة الخول والتبطل والتنعيم ، وسوء العاقبة ،
وعمل بقوله تعالى :

« خرم يا كلوا وتمتعوا » (الحجر : ٢)

« أفرايت إن متعناهم سنين » (الشعراء : ٢٠٥)

المحسر الشيطان ، وكسرت شهوته ، وابتعد عن العبد وهرب منه ...

الباب الرابع :

أحياناً يوسوس الشيطان للإنسان من باب التعجب والغرور ، فيعسن له
عمله ويرين له المعاصي ، وهنا يتوجب على العبد الصادق أن يقابل الشيطان بخوف
العاقبة ويصده مستعيناً بقوله تعالى :

(١) تنبيه الطالبين ص ٢٠٥ وما بعدها .

« فمنهم شقي وسعيد » (هود ١٠٥)

وهنا ينكسر الشيطان ولا يستطيع ان يأتي إلى العبد في هذه الصورة من ذلك الباب ...

الباب الخامس :

يدخل الشيطان أحياناً موسوساً في صدر العبد من باب الاستمراء والإستغاف ، بل والتعالى على الاخوان وعلى العبد أن يصده ، وذلك بالقيام بواجباته نحو أخوته في الدين ومعرفة حقوقهم عليه وحفظ حراماتهم ، ويتقوى الله ويستعين بقوله عز من قائل :

« وقه العزة ورسوله والمؤمنين » (المنافقون : ٨)

وبذلك ينكسر الشيطان ويتبعد عن وسوسته من هذا الباب .

الباب السادس :

يأتي الشيطان إلى الإنسان من باب الحسد والحقد على غيره من الناس ، ويجب أن يتقوى العبد من هذه الغواية ، ويقابل الشيطان بالعدل وقسمة الله التي قسمها على عباده ، كما يجب أن يرد وسوسة الشيطان مستعيناً بقوله تعالى :

« نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » (الزخرف : ٣٢)

وهنا يهزم الشيطان وينكسر ويهرب من العبد ولا يأتيه من هذا الباب .

الباب السابع :

يدخل الشيطان أحياناً من باب الرياء ، وهو نوع من الشرك الخفي ، فيحسن العبد أعماله ، ويمتدح أفعاله ، ويشكره على إحسانه ، ويشق على أخلاقه ، وهذا الباب باب خفي إذا لم يفتقه العبد بالإخلاص ، ويرد على الشيطان بالإشارة

والتواضع ومخالفة الأهواء والحظوظ ، وقع في غواية إبليس العين ، ولذلك
يتوجب أن يرد العبد هذا الوسواس بقول عز من قائل :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ،

(الكهف : ١١٠)

فإذا رد العبد على الشيطان بأنه مخلص لله على الدوام طائع له على الإستمرار
متبعاً شريعته التي شرعها لعباده من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتخلق
بأخلاقه تعالى مسرعاً إلى أعمال البر ، إنكسرت شوكة الشيطان ولم يستطع أن
يتقوى الإنسان .. وابتعد عنه ولا يرجع إليه من هذا الباب ..

الباب الثامن :

يأتي الشيطان أحياناً من باب البخل ، والبخل جيلة في الإنسان فطر عليها ،
وهوى من أهواء النفس تنزع إليه ، فإذا لم يخالف العبد وسوسة الشيطان ، في
هذا الباب انتصر عليه وأغواه ، لذلك يتوجب على العبد أن يقابل الشيطان الذي
يوسوس له بالشح والبخل ، بأن يقول : كل ما في يد الخلق فان .. وما عند الله
باق ، أى عليه أن يتقوى ضد الشيطان مستعيناً بقوله تعالى :

(النحل : ٩٦)

« وما عند الله باق »

وهنا ينكسر الشيطان ولا يستطيع إلى صدر العبد نقاداً ، ويرجع غامراً
مذخوراً ...

الباب التاسع :

يدخل الشيطان موسوساً إلى العبد من باب الكبر ، وهو آفة مدمومة ،
وعلى العبد أن يقاوم الشيطان بالتواضع ، ويعلم أنه عبد مخلوق لله ، وأن الله هو

الكامل على الحقيقة ، ويشذ كر قول الله تعالى :

« إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن
أكرمكم عند الله اتقاكم » (الحجرات : ١٣)

وهنا تنكسر شوكة الشيطان ، ولا يستطيع أن ينفذ بالوسوسة العبد من هذا
الباب ...

الباب العاشر :

يدخل الشيطان إلى صدر العبد وسوساً له من باب الطمع ، وعلى العبد
الصادق أن يصدّه باليأس في الدنيا والثقة في الله ، أي اليأس فيما عند الناس ،
والثقة فيما عند الله ، ويتقوى بالله تعالى ويصد الشيطان بقول عز من قائل :

« ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » (الطلاق : ٢)

وهنا ييأس الشيطان من هذا العبد ، ويهرب منه ولا يرجع لغوايته من
هذا الباب .

هذه هي الأبواب التي يأتي منها الشيطان ليوسوس في صدور الناس ، كما
يتأيد ذلك في الآية الكريمة :

« قل أهرذب رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ،
الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس » (الناس)

والوسوسة بهذا المعنى تحتاج في ودعها إلى الاستعاذة بالله من الشيطان الذي
لا يفتأ يعاود منازعة الإنسان إلى التشكيك في دينه ، ويؤين له قبح أمره ، ويحسن
له سوء أفعاله ، بل ويأتيه من جهة الدين والطاعات ليفسدها عليه ، وبأية من
شماله ، ومن جهة المعاصي ليحسنها له وبأمره بالفحشاء والمنكر ، وفي ذلك بقوله

الله تعالى :

و الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ،

(البقرة : ٢٦٨)

ولكن الوسوسة ليست فقط من الشيطان فحسب ، فهناك أعداء للمؤمن من غير الشيطان ، كما ورد ذلك عن الرسول - ﷺ - من حديث أنس بن مالك (١) :

(قال الرسول - ﷺ - : للمؤمن خمس أعداء ...

١ - مؤمن يحسده ٤ - شيطان يضله

٢ - منافق يتلبه ٥ - نفس تفويه

٣ - عدو يقاتله .

(١) ورد في حديث آخر عن ابن عباس قوله - صلى الله عليه وسلم - للمؤمن أربعة أعداء .. مؤمن يحسده ، ومنافق يتلبه ، وشيطان يضله ، وكافر يكفه - الله - ذكره الديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة ويرى السيوطي أن هذا الحديث ضعيف ...

الفصل الخامس

اليأس والقنوط

اليأس هو انقطاع الأمل والرجاء ، والوصف من اليأس — يائس — ويقال
أن من كثر يأسه فهو يئوس لقوله تعالى :

« وإذا مسه الشر كان يئوسا » (الإسراء : ٨٣)

واليأس أعلى درجات القنوط .. والقنوط انقطاع الأمل في الخير ، أو اليأس
منه ، فيقال رجل قاطط .. وإمرأة قاططة ، وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى :

« ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » (الحجر : ٥٦)

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله »

(الزمر : ٥٣)

اليأس صفة لازمة .. دائمة للشرك والكافر عند تجربته بالفاجعات وإمتحاناته
بالمصائب ، وإخباره بنقص في الأموال والأموال ، لأنه يظن أن الأحداث يجب
أن تسير وفق هواه ، فإذا جاءت بخلاف ما يهواه ، ضاق وتبرم ويأس من رحمة
الله ، ونعم الله ، وفضل الله .

وكذلك القاطط ، شديد اليأس في الخير والبركة والهدى :

« وإن معه السر فيئوس قنوط » (فصلت : ٤٩)

إذن سليم القلب لا ييأس ، ولا يقنط من روح الله . لأنه يعلم أن الله يختبره
بهتى أنواع الإبتلاءات ، ويختبره ليعلم هل هو مؤمن حقاً أم مرء ... فإذا أئتمه
إلى الله وعلم أن لا ملجأ إلا إليه ، وضائق عليه الدنيا بما رحبت .. جاءت رحمة
الله ، فتاب عليه من الهم والغم ، وبشره بالنجم :

« ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ،

(الفرقان : ٧١)

« ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ، (النحل : ١٠٢)

الله يهرب عباده ويختبرهم ، فمنهم من يصبر ويتق ويحسن ومنهم من ييأس
ويقنط ويكفر لبعضى إلى الضياع ، ويقع فى الانحراف ، ويهوى إلى الضلال ،
ويصبح صدره ضيقاً حرجاً :

« ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ،

(الانعام : ١٢٥)

فإذا جرب القنط فى إمتحان أو إختبار أو إبتلاء ما نهار ولم يتحمل وسقط
وفقد ثقته فى نفسه التى يعبدها ، وشيطانه الذى يؤله :

« ولإن أذقنا الإنسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه أنه ليكفر كفوراً ،

(هود : ٩)

أما إذا تاب وأتاب ، كشف الله عنه الغمة ، ورفع عنه القنوط وفتح له باب
الرحمة .. وأغلق عنه باب اللذة :

« وضائق عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب

عليهم ليتوبوا ، (التوبة : ١١٨)

ويبدو على اليأس والقنوط الخول والتبطل والبلادة، ونقص شديد في النشاط والحوية، فلا يتكلم كأنه أبكم، ولا يجيب كأنه أصم ولا يبذل جهدا في عمل شيء من الأشياء، إذ يسلط عليه الخوف الدائم، والرهب القائم.

« سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله »

(آل عمران : ١٥١)

قد يصرخ اليأس أحيانا بلا سبب واضح، أو يعتدى على الآخرين، أو يلطم على وجهه أو يؤذي نفسه، كل ذلك ناتج من هلاوس باطنية، واضطرابات داخلية وخوف وفرج ورعب...

وقد ينسحب اليأس من الجماعة، ويتوقع مع نفسه، ويتعدى عن الأصحاب ويرتاب في الناس، ويقطع كل صلة بخيره، ويحبس في عالم من الخيالات والأوهام حتى أنه يعتقد أن كل شيء وهم، وكأنه يحاط بعالم من الأشباح كما يتخيل صورا خيالية، ولا يصدق واقع، ولا يثق في أحد.

« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين »

(الأعراف : ٩١)

واليأس بهذا المعنى كبلد حركته، ويغمد جسمه، وتسود الدنيا في عينيه، وتكتنفه الوسوس، ويسحقه القلق، ويحتويه شعور أليم بالذنب، وإدانة شديدة لنفس، يحيا في الماضي، ويعتقد أنه هو السبب في موت ابنه.. أو قتل جاره.. فيصبح أحيانا صارخا، ويتم نفسه بشئ أنواح الاتهامات...

وأحيانا يوجه يأسه إلى العالم الخارجي أو إلى نفسه.. فيقدم على الانتحار، وتظهر هذه الانفعالات في صور مختلفة، وليس لها من سبب ظاهر.

يقول ربيع بن النسر (١) :

« إن البعوضة تها ما جمعت ، فإذا شبت ... سمحت ، وإذا سمحت ... ماتت
وكذلك ابن آدم ، إذا امتلأ من الدنيا مات قلبه ،

لذلك يرى الصوفية أنفسهم بالرياضات ، خوفا من الوقوع في البعد
والغفلات ، لأن الذي يشغل بهوى نفسه وتحقيق طلباتها ، ومراقبتها في شهواتها
لا يتحمل العوائق ، ولا يقدر على الصبر في اختبار أو امتحان ..

والقائد لا يقدر على تحمل صدمة من الصدمات ، أو مصيبة من المصائب لأنه
عود نفسه على اشباعها بما تحتاج إليه ، دون التوفيق فيما يهمله ، ولم يأخذ نفسه
 بالرياضة والتربية ، حتى يتسوى عزمه وثباته ... لذا فهو فريسة سهلة
للأمراض والآفات .

أما الذي ينظر إلى الدنيا كدار فناء ، وينظر إلى الآخرة كدار بقاء ، لا يمكن
أن يأس أو يقنط من رحمة الله .

الفصل السادس عشر

الطمع

تميل النفس الانسانية بطبيعتها إلى الطمع الكاذب ، وتصديق الأمور الوهمية التي تستحوذ عليها ، والتي تقودها إلى عالم متوهم .. فتعيا حياة عالية من كل حق وصدق .. لأنها تتبع الظن ، وتنزع إلى الهوى الذي هو دليل الانحراف لانه ضد الفطرة السليمة :

« إن يقبضون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، (النجم : ٢٢)

ولذلك فإن العارفين بالله يدأبون على التخلص من الطمع الكاذب وتصديق الظنون ، وموافقة الأوهام الفارغة ، فيرون أنها طمع في غير طمع ، وأصحاب الحق يهتمون في أن تكون همهم مع الحق .. بعيدة عن الأوهام والأمانى الكاذبة ، فلا يلجأون إلا إلى الله .. ولا يتوكلون إلا عليه .. وقد اعتقدت قلوبهم معه تعالى فلا يحمل بهم طمع متوهم .. ولا أمانى كاذبة .

لذلك فإنهم يختارون حياة القناعة خوفا من الانحراف إلى هوى النفس الأمارة التي تقودهم إلى الضلالات والآلام الخيالية الكاذبة .

فاذا تخلص الإنسان من الطمع .. فرغ قلبه لله ، فلا تشغله الشهوات ، إذ الشهوات أطاع لا تسبيح ، فهي عبودية للمادة الصماء ..

وإذا تزهد الإنسان وقنع ، عاش حياة الحرية ، وامتلأ قلبه بها ، فتحرر من كل شيء ولم تعد الدنيا وزخارفها الرائقة تشغل قلبه ، ولم تعد الآمال والأطماع المتوهمه .. يحد فيها لذته .. إذ يرى لذته الحق في القناعة مع الله .. وهي تفرغ خالص من شوائب المادة .

يقول الشاعر الصوفي :

العبد حر إن قنع والحر عبد إن طمع
قانع ولا تطمع فلا شيء يشين سوى الطمع

العبودية المقصودة هنا عبودية النفس والشهوة والطمع جميعا ، أما الحرية
فتحرر من الطمع ، والقبال على القناعة بالله فهي دليل الحب الالهي ..
والعبودية هنا دليل حب النفس المنحرفة .. إذ أن الطمع يحركها ..
والهوى غايتها ..

أما العبودية الحققة .. فهي المتوخية درما للحق تعالى العاملة له على الحقيقة ..
العارفة بمقامها على الاستمرار ، السائرة في رحابه على الدوام .. لا تطمع إلا
في رحته ، ولا تقنع إلا بقربه ..

« نعم العبد إنه أواب ، (ص : ٣٠)

« قال أنى عبد الله أتانا الكتاب وجعلنى نبيا ، (مريم : ٣٠)

القناعة إذن طريق إلى الله ، والطمع باب الأمان المتوخية ، والآمال الباطلة ،
والظنون الكاذبة ..

والقلب السليم لا يقبل على الطمع ، وإنما يقبل بكامل حرية على الله .. لأنه
يعرف أنه المحسن على الدوام .. السخي على الاستمرار وهو موطن من قوله تعالى :
« ان كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ، (مريم : ٩٣)
أما القلب المريض ، فيتعلق بأحبال واهية ، في عالم متوهم فيختار الأدنى
المشبهالك .. ويترك الخير الدائم ..

إلا أن هناك نوع من الطمع المحمود ، هو طمع في عفو الله وتجاوزة تعالى

غن السيئات ، وعما اقترفت العبد من المفورات عندما يأتي يوم الحساب ، وهو
 طمع المؤمن الصادق في الله الرحيم القادر كما في قوله تعالى :

« والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ، (الشعراء : ٨٢)

« تتجافى جنوبهم في المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا ،

(السجدة : ١٦)

« انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا اول المؤمنين ،

(الشعراء : ٥١)

الفصل السابع

الغرور

من الأمراض التي قلَّ أن يعصم منها الإنسان ... الغرور ، وهو آفة خطيرة تصيب المؤمن والكافر على السواء (١) ، وغرور الكافر ينحصر في قسمين (٢) :

١ - الاغترار بالدنيا .

وهو اعتقاد الإنسان أن الدنيا هي كل شيء بالنسبة له ، فمن الغاية والرسالة والأمل والقصد ... فيحسب عن جهل أن لذاتها دأمة ... وشهواتها يقيلية ...

والمغرور يستند عن فساد في طبعه ، وبعد عن الفطرة السليمة ، أن الحياة الآخرة مشكوك في وجودها .. لذلك فهو لا يترك لذات الدنيا التي لا يؤمن بنعيمها .. ولا ينتظر لذات الآخرة المشكوك فيها .. كما أنه يقيس قياسا فاسدا الدنيا بالآخرة ... فيظن أن الدنيا هي الباقية والآخرى ليست آتية ...

وعلاج هذا النوع من الغرور لا يتم إلا بالتصديق بالإيمان ، وهو طريق إلى الصحة النفسية ، كما ورد عن الله تعالى :

« وما عند الله خير وأبقى ، (القصص : ٦٠)

« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، (الحديد : ٢٠)

فيؤمن الإنسان أن متاع الدنيا قليل وأنها قصيرة مباهلات ... كما أن الغرور بالدنيا يحتاج إلى تربية نفسية قوية لتخليه نفسه من العادات الفاسدة ،

(١) الشيخ الدسوقي — تنبيه الغافلين

ص : ٢٥٣

(٢) الإمام الغزالي — الكشيب والتبيين

ص : ١٠٨ — ١٢٩

والإعتقادات الكاذبة ، إذ أن سبب فساد عقيدته ناجم عن الجهل بالله ... ومصدر هذا الجهل هو الإغترار ، لذلك يتوجب توجيه المغرور بالتربية السليمة ، وترشيده بالعلوم النافعة ، وتحمليه نفسه بالقيم السليمة ، وتغذية عقله بنور الحكمة ، فإذا بدأ الإنسان في سلوك طريق العلم ، وتخلص من العادات السيئة .. كان قابلاً للاقتناع بالحق ، مؤثراً الصدق ، متوجهاً بنور العقل إلى تجنب الإغترار بالحياة الزائلة ، متمسكاً بالحياة الأشرف والأبقى .. (١)

٢ - الإغترار بالله .

والآفة الثانية هي اغترار الكافر .. وتتمركز في اعتقاده الفاسد أنه إذا كان الله معيده إليه في الآخرة ، فإنه أحق بمردته وإحسانه .. وقربته من غيره في الدنيا ، وذلك بناء على قياس كاذب ، وشرط باطل ، وهو أن الله قد غمره في الدنيا بنعمة .. لذلك فإنه تعالى حتماً سيخمره بنعمه في الآخرة أيضاً !! أي أنه يقدر الدنيا على الآخرة ، فيعتقد كذباً وغروراً بخدمية الثواب والرحمة والنعم ... كما أنه يناصر شيطانه ويوافق هوى نفسه ... فيزعم أنه ما دام الله قد أخرج عنه عذاب الدنيا ، فقياساً على ذلك سيؤخر عنه عذاب الآخرة بالضرورة .. إذا كان هناك آخرة حقاً !!

والمغرور ينظر إلى الفقراء نظرة ازدراء ، فيستخمر منهم قائلاً : دأ هؤلاء بيمين الله عليهم حقاً بنعمه ؟ ... لو كان ذلك صحيحاً وأن الله يحبهم حقاً ، لأحسن إليهم في الدنيا ... ووزقهم وحرمني .. وأعظامهم ومنعني وشفاهم وأمرضني !!

(١) لمزيد من الاطلاع في هذا الموضوع يرجع إلى كتاب الرعاية لحقوق الله - للامام الحارث المحاسبى المتوفى ٢٤٣ هـ - ص ٥٠٨ إلى ٥٦٥ بتقديم الدكتور عبد الحليم محمود - تحقيق الاستاذ عبد القادر أحمد مطا .

« فلا تغربكم الحياة الدنيا ولا يغربكم بالله الغرور » (لقمان : ٢٣)

هذا هو الغرور العظيم ، فالصحة والمال والجاه لا تدل على رضا الله وسبه تعالى ، فكم يعطى الله الإنسان وهو كافر لا حياً فيه ، وإنما امتحاناً له ... كما أن الله وبما يتفضل على الإنسان بزخارف الدنيا ولذاتها لتكون سبيلاً في هلاكه ، وبالعكس فإن إمساك الله عن العطاء - ربما يكون حجة للإنسان من الانحراف والهلاك ، وخوفاً عليه من ضياع الإيمان والانشغال بالشهوات واللذات التي تفسد علاقته بربه .. مثل ذلك مثل الأب الذي يجمع إبنه عن كثرة الطعام .. فيمسكه عنه .. وهو يحبه حفظاً له وصيانة لصحته ..

ويؤكد بعض الأئمة (١) أن لشاة الغرور تأتي من الجهل بالله تعالى ... وصفاته ، فأن الله ربما يعطى الإنسان وهو كافر ليستدرجه ، فلا يكون له بعد ذلك قائمة . ومن عرف الله فإنه لا يأمن مكره ، وقصص فرعون وهامان ... والفرود ، شهادة على مكر الله . واختبار الله .. وامتحان مخلوقاته ..

« وغربتم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين »

(الأنعام : ١٢٠)

أما غرور المؤمن .. فينصب في اعتقاده أن الله غفور رحيم ، فيأمل هفوه واحسانه ، ويهمل الأعمال الصالحة ، ويتكل على رحمة الله وتسامحه تعالى ..

ومن هنا هذا الاعتقاد قياس فاسد لتصوره أنه ما دام أبواه صالحين فإنه سينعم حتى برحمة من الله مثل آبائه .. ويقبس ذلك فيقول : « أن الله إذا أحب إنساناً أحب أولاده » ، وهذا افتراء وغرور ، إذ الشيطان يحسن له الأفعال الفاسدة ..

والأعمال الباطلة ليرى به إلى التهلكة ...

« وما يعدم الشيطان إلا غروراً ، (الأنعام : ٦)

والدليل على فساد هذا الاعتقاد .. أن نوحاً - عليه السلام - أراد أن يحصل ابنه المشرك في السفينة .. فنهاه الله عن ذلك .. وغرق مع القوم الضالين ، فالذي يظن أنه ينجو بتقوى أبيه ، كمن يظن أنه يشبع بأكل أبيه ، مصداقاً لقوله تعالى :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى ، (الأنعام : ١٦٤)

« وإن ليس للإنسان إلا ما سعى ، (النجم : ٢٨)

« واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ، (لقمان : ٢٣)

« لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ، (البقرة : ٢٣٣)

فكل إنسان مسئول عن عمله ، فإذا اجتمع في سلوك طريق الله وخاف الله . وابتاع ما أمر به .. ثم رجاء ، فإن الله يفيض عليه بالنعمة .. ويظلمه بالأمن والسكينة فضلاً ومنه منه تعالى .

والرجاء بهذا المعنى أمر بمعروف .. ونهى عن منكر ولا يكون رجاء إلا إذا تقدمه عمل ، فإذا لم يتقدمه عمل فهو مغرور !! لأن الرجاء تبريد لحرارة الحروف وتبديل لحال الحزن ..

وهناك نوع آخر من المغرورين لهم طامات .. كما لهم معاصي (١) ، ومعاصيهم أكثر من طاماتهم ، ثم أنهم يظنون أن ترجيح كفة حسناتهم على كفة سيئاتهم ، وهذا جهل عظيم ، ومثلهم كمثل من يتصدق بمال فيه حرام وفيه حلال فيتداخلك في هذه الصدقة ما يتناوله من أموال الناس .. وما يشتبه فيه .. ويظن أن ذلك لله ، وهذا غاية الجهل ..

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا »

(التوبة : ١٠٢)

وهناك بعض من المغرورين طاعته أكثر من معاصيه ، بسبب ضعف مراقبته لحاله ، فلا يتفقد نفسه ، ولا يحاسبها على معاصيها .. ومثله مثل الذى يقوم الليل سجوداً وتسبيحاً ، ويستغفر الله بلسانه .. ثم أنه يغتاب الناس ، أى أنه يعتمد بصلاته وتسبيحه .. ويتفافل عن غيبته ونعيمته ومكذبه ، وذلك بعض غرور .. (١)

الغرور العلمى :

١ - هناك نوع آخر من الغرور يتجاوز العامة من الناس إلى المتعلمين والمثقفين من أصحاب العلوم العقلية والشرعية والتجريبية .. الذين تعمقوا فيها ، واشتغلوا بها ، واغتروا بعلمهم ، وظنوا أن لهم مقاما عاليا في العلم وظنوا كبيرا أن الله لن يعذبهم .. وبناء على هذا الاعتقاد الباطل أهملوا حفظ جوارحهم من المعاصى والتزام الطاعات .. وهم مغرورون .. لأنهم نسوا أن العلم علان .. علم معاملة وعلم مكاشفة .. ويهنا هنا أن نعرض لعلم المعاملة .. أما علم المكاشفة فنعرض له في موضع آخر (٢) (٣) ...

علم المعاملة :

وهو معرفة الحلال والحرام .. من تجنب للأخلاق المذمومة .. وتحمل

(١) الكشف والبيان ص ١٠٨ - ١٢٩

(٢) المرجع السابق ص ١٨٢ - ١٢٩

(٣) لزاد من الاطلاع في علم المكاشفة المحكومة الباطنية الباب الثانى

بالأخلاق المحمودة ، فإذا لم يبدأ اللسان بمخالفة نواته الأتانية ويبتعد عن
عن الأهواء .. جنح عن التبصر والحكمة .. ووقع في الآفات ومثله في ذلك
كمثل الطبيب المريض الذي يعالج غيره ، وهو مصاب بنفس الداء ، فرغم قدرته
على معالجة نفسه .. فانه يهملها .. فهل يصلح الدواء بالوصف دون
الاستعمال...!!!

ان الدواء لا يصلح إلا لمن شربه ، فليس من المهم أن يعرف الإنسان
أمراض النفس وعائلها ويبين أوصافها .. ويعلم الناس صفاتها وجبلاتها ..
وكيفية تربيتها .. وترويضها في طريق الله .. دون أن يكون ذلك من أخلاقه
إذ المهم أن يقرن كلامه بالعمل ، وعلمه بالسلوك الأخلاق القويم .. تأييداً
لقول الرسول ﷺ :

« من إزداد علماً .. ولم يزد هدى .. لم يزد من الله إلا بعداً » (١)
وقوله ﷺ :

« ان أشد الناس عذاباً يوم القيامة ، ظالم لم ينفعه الله بعلمه » (٢)

ب — وهناك صنف آخر من العلماء المفروين الذين اعتدوا إلى الأخلاق
الباطنة وتيقنوا أنها مذمومة شرعاً إلا أنهم تعجبوا بأنفسهم فظنوا أنهم أرفع
عند الله من أن يبتليهم ، لأن الذي يبتلى بالأمراض الباطنة هم عوام الناس ،
فظهر عليهم الكبر والرياسة .. واعتقدوا أن ذلك هو للدين .. وشرف للعلم ،
ولسوا أن ذلك من أخلاق إبليس !! بل نسوا تواضع الرسول ﷺ والمصاحبة
رضي الله عنهم أجمعين ..

ومن علامات غرورهم .. الحسد ، وإطلاق اللسان على زلاتهم وأقرانهم ،

(١) ذكره الامام الغزالي في الكشف والتبيين

(٢) ذكره ابو هريرة ورواه الامام الغزالي في السيوطي .

ويعتقدون أن هذا ليس حسداً ، وإنما غضب الحق .. ورد على الباطل كذباً ..
واقترأ على الله .. إذ أن ذلك من صفات المغرورين ..

وبعض هؤلاء المغرورين .. إذا اختبرته ، تجده يدخل على أصحاب السلطة
فيتودد إليهم .. ويمتدحهم ثمناً ، فإذا تشبكت في أمره قال : إنما أهدف إلى نفع
الناس ! ! ودفع الضرر عنهم .. والواقع أنه مغرور .. إذ أنه لو كان صادقاً ..
لفرح حقاً بمن يقوم بخدمة الآخرين ، والذي يسعى مثله عند أهل السلطة لحل
مسا كل الناس .. لكنه عندما يجد أحد أقرانه يشفع لأحد أصحاب السلطة ،
يغضب ويشور ، ويتهمة بالنفاق والرياء .. حسداً وحقداً .

ج - وهناك صنف ثالث من العلماء ، طهروا جوارحهم .. وابتعدوا عن
المعاصي وتفقدوا أخلاق النفس .. ومسحوا عن قلوبهم الرياء والحسد والكبر ..
لكنهم مع ذلك لم يتخلصوا من الغرور ، إذ ما تزال في روابي قلوبهم شوائب ..
وما يزال يلعب بزقوسهم شيطان ماكر .. يخدع النفس وهم لم يفتنوا إلى ذلك !
ومثلهم كمثل الزارع الذي قطع الحشيش لتقية أرضه ، إلا أنه لم يفتش عن
الحشيش الذي لم يخرج رأسه من الأرض بعد ! ! معتقداً أنه قد أباد كل حشيش
الأرض ! وفي أثناء غفلته .. ظهر الحشيش وأفسد عليه الزرع ، وهؤلاء ينظر
بعضهم إلى الناس نظرة الاستكبار والاستعلاء عليهم (١) ..

د - وصنف رابع اهتموا بعلوم المعاملات الدنيوية .. وتركوا الأعمال
الظاهرة والباطنة ، ولم يؤدبوا جوارحهم ، ويمسكوا ألسنتهم عن الغيبة
والحرام ! أو عن الكبر والرياء والحسد ، وهم مغرورون ، ومثابهم مثل الطيب
الذي تهلم صناعة الطاب .. ولم يشتغل بها . وإنما اشتغل بكتاب الحيز أو
الإجهاض (٢) .. وبمسائل الجنس ، فهم يهتمون بالمجادلة ، وإقحام الخصوم

(١) الكشف والتهيين ١٠٨ - ١٢٩

(٢) المرجع السابق

بمحبتهم ، والتفتيش عن المتناقضات في كلام غيرهم ، وكل قصدهم للباهانة والغلبة .. ولو اهتموا بتصفية قلوبهم .. لكان خيراً لهم من علم لا ينفع في الدنيا ولا الآخرة ..

وكثير من العلماء يمجنون بأنفسهم غاية الإعجاب .. ومنهم علماء يظنون أنهم يبحروا في علوم المحبة الإلهية .. وأنهم من الناجين ، ويعتقدون أنهم يذكرون الله وهم ناسون ، ويذمون الصفات المذمومة وهم بها متصفون !!

ومنهم من يعصى الله ، ويلفق إفتراء ما لم يرد من كلام الله للأغراب والعامه ، ومنهم من يستخدم مجمع الألفاظ .. والاستشهاد بأشعار الوصال .. والفراق لأغراض قاسية ...

ومن المقرورين أيضاً من يقلد كلام الرهاد فيرددونه ، ويهفون الناس به في الأسواق ... وهم أشد الفاس غروراً ...

كما أن هؤلاء المقرورين من يجمع الأحاديث والأقوال ، ويقول : أنا مع أساليب ليست عند غيري ويقتصرون على النقل دون فهم المعاني الواودة .

وبعضهم يدرس علوم اللغة ، ويعتقد — أنه من العلماء الكمل ، وهذا غرور عظيم ، فلو علم هؤلاء أن لغة العرب كلغة العجم ... وأنه يحسن الاكتفاء في معرفة اللغة بما يتعلق بالكتاب والسنة ، أما التعمق في دراسة اللغة بدرجة لا تقاها للباهانة ، فهذا من الغرور (١) ...

وبعض العلماء من يكون غروزه في الصلاة والصيام والحج والوحد

والجهاد ، أو الاشتغال بالنوافل ... ثم أنه يحمل القرائن ، ومثله كمثل الذي
يبالغ في الوسوسة في الوضوء ، فلا يرضى بالماء المحكوم بظهارته ...
فلا يصل ...

وربما تنتقل الوسوسة من الماء إلى الطعام ، فيقدر المومنون الاحتمالات
البعيدة قريبة ... وربما وصل في وسوسته آخر الأمر إلى أكل الحرام ...
وبعض المغرورين من يقرأ القرآن بالليل والنهار ... لكن قلبه في وادي
الاماني متفكراً في الدنيا ، وربما يقرأ القرآن ويتأذ به ، ولكنه لا يعمل بما جاء
فيه ... ومنهم من يهتم ويشتغل بمخارج الالفاظ ولا يتفكر في أسرار قاصدة
الكتاب ومعانيها ...

الفصل الثامن

المعجب

يتوسع فرويد في مفهوم الحب ، فيجعله يمتددا حتى يشمل حب الذات ، بالإضافة إلى حب الوالدين والأبناء ، والحب بالمعنى الفرويدي يسميه اصطلاحاً بالليبدو ، وهو البحث عن الإشباع الجنسي ، فيقول فرويد أن الليبدو هو الذي يفسر لنا الحاجات الجنسية لدى الإنسان والحيوان (١) ..

وهو (١) يفترض وجود حب جنسى وغريزة جنسية ، كما يفترض غريزة التغذية لتفسير الهرج ، والليبدو أو الحب يعتبر الانانية وعشق الذات شيئاً واحداً ، ويبرر عن ذلك بالترجسية ..

أما علم النفس الاسلامى ، فينصب الاهتمام فيه على دراسة النفس الإنسانية دراسة متعمقة متعمقة ، ويبين أن الاعجاب بالنفس يورد الإنسان مورد التهلكة ، فيبين الله في كتابه العزيز أن الوسط العدل هو الدليل على الصحة النفسية في الملوك والأخلاق ، وذلك وارد في قوله تعالى :

« ولا تصغر نفسك للناس ولا تمشى في الأرض مرفحاً » (لقمان : ١٨)

ومعنى ذلك أنه لو ترك الإنسان دونما تهذيب أو تربية ، فإنه سيتملكه العجب بنفسه ، والحب لها ، ويركبه الغرور ، فيستحسن أفعاله ، ويظن أنه خالق أحسنه فيها ، بذلك ويهن على الناس بأحسنه فيرضى عن نفسه ، والرضا عن

(١) سيجموند فرويد - الموجز في التحليل النفسى ص : ١٠٦ ترجمة سامى محمود على

(٢) بارسك ملاهى - عقدة أوديب - ترجمة جيل سعيد ص : ٤٨

النفس من علامات النقص والوقوع في الضلال والانحراف .

العجب بالنفس إذن آفة خطيرة ، تعمى القلوب ، وتخفى الذنوب ، وتزين الأخطاء ، وتستظهر الرائل ، حتى يحسب المعجب بنفسه الاساءة إحسانا ، ويظن البخل سخاء وجودا . وهو واهم في ظنه ، كاذب في حديثه ، هالك حيث يستعد النجاة ، غريق في بحر الظلمات .

« وإذا انعمنا على الإنسان أعرض ونأى بحاجبه ، (فصلت : ٥١)

والمعجب بنفسه يركن إلى الغرور ، فيستصغر ما أتاه من الكبار ، ويستكثر ما أقدمه من الخير ، وينسى ويتناسى فواحشه ، ويعمى عن الحقائق حتى يجعل من الخير شراً ومن الشر خيراً ..

« إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصيبهم سئمة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ، (الشورى : ٤٨)

وغرور المعجب يقوده إلى الكذب على نفسه .. فيحيا في عالم الأوهام الذي أقامه على الاقتراف ، فيقل خوفه من الله ، ويرداد غروره به تعالى ، بل قد يتناول بالكذب على الله وهو يظن أنه صادق ، وبالضلال وهو يرى نفسه مهتديا (١) ..

يقول النبي ﷺ :

« ثلاث مهلكات : « شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، (٢) »

والإنسان إذا أعجب بأفعاله وأعماله ، لم يفتن إلى ضلاله وانحرافه ، ولم يز ما يجب أن يتوب عنه ، لأنه مستصغر لما أتاه من الذنوب محترقا لما ارتكبه من

(١) الرحاية لعتوان الله م : ٣٩٨ وما بعدها

(٢) رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

آثام بالنسبة إلى ما فعله من طاعات وجهادات وأعمال الخير والبر . يقول ابن مسعود (١) رضى الله عنه :

« الهلاك في اثنين : القنوط .. والعجب .. »

والعجب احساس بالرضى عن النفس ، وهو شعور غامر بالفرجة الكاذبة والأمن المصطنع ، لأن المعجب يرى أنه في أحسن حال ، فليس هناك ما يفرضه ليقلع عن سلوكه الشاذ ، وحملة الضال : وبذلك يتجاذى في غيه بجملة حتى يقع في بحر الجهل ، فيهلك إلى الأبد ..

ومن ناحية أخرى ، فإن المعجب بنفسه إذا تم له كشف دخيلة نفسه ، وتبين كثرة ذنوبه ، وعرف حقيقتها ، لم يرتدع راجعا إلى الحق ، وإنما يقنط بالسا ، ويتردى معترضا ، ويتمرد كافرا بنعم ربه ، ويتوأنف عن العمل لله ، ويهملك عن أعمال الخير ، وينتهى إلى الهلاك ..

حقا لقد صدق ابن مسعود - رضى الله عنه - في ربط القنوط بالعجب ، والعجب بالقنوط ، إذ أنها يقودان حقا إلى الهلاك لأن المعجب بنفسه يركى نفسه بما لا تستحقه ، وإذا زكاهما فعنى ذلك أنه لا يتبهها ، فلا يهمل بمخالفة لحقوق الله ، ويظن النجاة وهو غريق في الضلالات .. يقول تعالى :

« فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن أتقى ، (النجم : ٣٢) »

ويرتبط العجب بالكبر والاستعلاء ، فيتمخيل المعجب أنه فوق سائر العباد ، ويغتر بالله ، فيدهى أنه قريب من الله ، وذلك باستعراض ما يقوم به من أعمال الخير ، وترديد مزيد من عليه وتمجيده ، حتى وكأنه صاحب المنة على الخلق أجمعين ..

يحدثنا الرسول ﷺ عن المتكبرين والمتجبرين فيقول :

« تصاحبت النار والجنة ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ..
وقالت الجنة : فإلى لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطتهم وهجرهم ؟
فقال الله عز وجل للجنة : « إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي »
وقال للنار : « إنما أنت عذابك أشد بك من أشياء من عبادي » ، ولكل
واحدة منك ما ملؤها . فاما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله قدمه عليها فتقول :
قط قط .. فهنا لك تمتلئ . وينزوي بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحدا .
وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا (١) ..

تقول عائشة - رضي الله عنها - عندما سئلت عن المسوء :

« هو المحسن إذا أعجب بعمله » (٢)

لأن هذا المحسن منان ، فهو قد أساء إلى نفسه حيث ظن الإحسان عليها ،
إذا الإحسان من الله والله ، فكيف يحسن وهو يظن أنه الذي يعطي وينسخ ،
لنقله تعالى :

« لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والاذى » (البقرة : ٢٦٤)

فالعامل العليوب يجب أن يقرن بحنة الله وفضله على صاحبه ، وذكر توفيقه له
تعالى بالأقدام عليه ، أما إذا فسر هذا العمل بنسيان الله وإرجاعه إلى النفس ،
كالقول : لو لم أحسن إلى فلان لما مات جوعا (٣) .. فالثناء والحمد منا ليسا لله في

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(٢) المعاصي - الرحابة ص : ٤٠٠ - ٤٠١

(٣) المرجع السابق ص ٤٠٠ وما بعدها

هذا العمل ، وإنما هما راجعين إلى عجب النفس ، وبذلك يبطل العامل أفعاله
الحسنة وأعماله الطيبة بالمن والاستعلاء والتكبر والتعجب .. يقول الرسول ﷺ :

« أن الله تعالى ينظر إلى الكافر ، ولا ينظر إلى المزهى ، ولقد حملت سليمان
بن داود الريح وهو منكى فأعجب واختال في نفسه فطرح على الأرض (١) .. »

والعجب - بهذا المعنى - يحتاج به النفس ، وتنزع إليه ، فتقول مباهاية :

« لقد جاهدت .. وصبرت .. وتخلصت من أهوائى ، وأحسنت إلى غيرى ،
ثم تفرح بذلك وتغتر بقوتها وعزتها وإشراق بصيرتها وتقاء سريرتها ، وهذا
ما يوردها مورد التهلكة .. »

« ويوم حنين إذ أجبتمكم كثرتكم ، (التوبة : ٢٥)

وأحيانا يظهر العجب في صورة نجوى ، وهى حديث النفس تقول فيه :

« لقد صمت كذا ولم أفطر منذ كذا .. أو صليت كذا ركعة .. »

وما تزال تستكثر النفس أفعالها مع نسيان نعم الله ، وإضافة ذلك إلى
صاحبها دون أن تدرك أن ذلك يحبط من أعمالها ، ويحجبها عن الوصول إلى
منازل المتقين ..

كما أن العجب يظهر في إستهسان النفوس بجمال جسمها في قوته وتوأم خلقته ،
وبديع صنعه وعظيم هيئته ، والعقل ورجاحته ، والعمل ودقته ، والصوت
وحسنه .. وما زالت النفس تثق على حالها وتفتن بجمالها حتى يغفلها عن ذكر
ربها ، فتقع في الغرور وتظن التفوق على غيرها .. فتهلك مع الهالكين ..

الفصل السابع

الحقد والحسد

من أمراض القلب التي قل أن يخلو منها إنسان .. الحسد، إلا أن من الحسد ما هو مباح ، بل ومنه ما هو نقص وحرام ..

وتعد المنافسة من الحسد المباح لأنها مسابقة بين العباد ، وبمادة في طريق الله ، لتوثيق عرى الإيمان ، والمسارة إلى طلب صفوه ومغفرته تعالى ، وبذلك يكون هذا الحسد المباح فرضاً على كل مسلم تأييداً لقوله تعالى :

« وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، (المطففين : ٢٦)

« وساروا إلى مغفرة من ربكم ، (آل عمران : ١٣٣)

ولا يتم التنافس إلا بين عبادين يحاول كل منهما أن يسبق الآخر ، أي يسابقه ويسرع قبله .. ومثل ذلك كمثل عاملين متنافسين يتبارح أحدهما أن يكون السباق في خدمة سيده ، ليتقدم على زميله في حبة مولاه وتقربه إليه ويقلقه تقصيره ، فلا ينال الخطوة عنده كما نالها زميله (١) .. وكذلك المؤمن فانه يسارع إلى أعمال الخير وينافس غيره في طاعة الله والإخلاص له تعالى .. يقول النبي ﷺ :-

« لا حسد إلا في اثنين ، رجل آتاه الله عز وجل مالا فسلطه على ماله في الحق ... ورجل آتاه الله عز وجل علماً فهو يعمل به ويعلمه للناس ، (٢) ... »

(١) الامام الحارث المحاسبي - الرماية لحقوق الله ص : ٧٢ تحقيق د. عبد الحليم محمود

(٢) المرجع السابق .

وعند ما سئل الرسول عن ذلك قال - ﷺ - رجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما ، ورجل آتاه الله - عز وجل - علما ولم يؤته مالا ، فيقول صاحب العلم لو أن لي مثل مال فلان .. كنت أعمل فيه بمثل عمله .. ويقول صاحب المال لو أن لي مثل علم فلان كنت أعمل فيه بمثل عمله فيها في الآجر سواء (١) ...

هذا هو الحسد المرغوب فيه ، لأنه منافسة شريفة ، إذ يأمل طالبه أن يلحق بمن يسابقه في الخير ، ويغتم أن يكون دوره .. وهو في ذلك لا يريد به شراً ولا يجب له أذى ...

وأما الحسد المكروه ، كأن يأتي الله رجلاً مالا فينفقه في المعاصي ، فيتمنى الحاسد أن يعطيه الله مثل هذا المال ليصرفه كما يصرفه الآخر ، فهذا في الآثم سواء (٢) ...

وأما الحسد المحرم كله فوارد في قوله تعالى :

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً »

(البقرة : ١٠٩)

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » (النساء : ٥٤)

والحاسد هنا يريد لنفسه الرياسة والرفعة وعلو المنزلة ، وينكرها على غيره ويكره أن يكون تابعا لاحد أو مؤتمرا بأمره ، كما أنه يرغب أن يزول عن ظهره ما فيه من نعمة وجاء فيخالف المتحاسدون بعضهم بعضا بغيا وحقدآ ، ويلعنوا بأهوائهم ، ويتركوا الحق ويشهدوا عن الخير حسداً بينهم ...

(١) ذكره الخاسبي في الرماية

(٢) الامام الحارث الخاسبي - الرماية لحقوق الله ص : ٥٧٤ وما بعدها تحقيق د .

« إن تصيبك حسنة نسوّم وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل وبنولوا وهم فرحون ،
(التوبة : ٥٠)

يقول وهب بن منبه (١) : « إن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام —
الحاسد عدو لأعمق راد لقضائى ، ساخط لرزق الذى قسمت لعبادى ، غير
ناصح لهم ، .. »

والحسد المذموم يقع فيه المؤمن والكافر ويظهر الحاسد فى كراهية النعم لغيره
وعبة زوالها ، فاذا رأى نعمة لغيره فى دين أو دنيا أو بلغه أن أحداً فى نعمة ،
كره ذلك واستاء لسببها ، وتسمى زوالها عنه وفى ذلك يقول تعالى :

« إن تمسكم حسنة نسوّم ، وإن تصيبكم سيئة يفرحوا بها ،
(آل عمران : ١٢٠)

فالحاسد يشمت عند زوال النعمة عن غيره ، ويسؤه أن استمرت النعم ، ولو
كانت نعمة الإيمان .

« ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ، (النساء : ٨٩)

وما زال الحاسد يجر بلسانه عما فى قلبه حتى يتدفع آخر الأمر إلى المنحرف
عن الرشيد فيؤذى ويتطاول على صاحب النعمة كما فعل أخوة يوسف — عليه
السلام — به :

« ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لى ضلال مبين ،
إقتلوا يوسف أو أطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً
صالحين ، (يوسف : ٨ ، ٩)

(١) الحافظ أبى نعيم الاسيهمانى — حلية الأولياء المجلد الرابع ص :

أراد الآخرة الحاسدون أن ينفردوا بحب أيهم من دون يوسف فلم يجدوا
وسيلة — لظلمة قلوبهم — إلا أن يخاصروا من يوسف الذى قدمه عليهم يعقوب
— عليه السلام — وقربه اليه . . فكرموا ذلك وتصاعد حقدهم وحسدهم على
يوسف ، وأقدموا على فعلتهم النكراء ظنا منهم أنهم بذلك يكتسبون محبة أيهم .
يقول أبو قلاية : وما قتلوا عثمان إلا حسداً ، أى حسده على الخلافة
وأحبوا أن يزيلوها عنه . . . (١)

والحسد المذموم بهذا المعنى نتاج الكبر والعجب والحقد والبغضاء والرياء
فينغم الحاسد عند سماحه الخير ولا يسعده إلى الإضرار بمن يحسده . . فإذا سمع
من إنسان كلمة حق يحقد عليه ، ويقول بما لم يقل ، بل ويكيد له ويخطئه فيما يقول
حق لو كان صادقاً ويستهدف من ذلك أن يبعد الناس عنه ليعطف نوره بينهم
لحقدته عليه وكراهيته أن ترتفع منزلته عندهم ومثاله ذلك ما فعل اليهود بالرسول
— ﷺ — عندما بشر بدعوته ، فرغم علمهم بنبوته ، تملسهم الحقد والحسد ،
وخافوا أن تذهب الرئاسة عنهم اليه ، فيكروا أنباطاً له بعد أن كانوا متبوعين . .
ولا يقتصر الحسد على العامة ، بل لا يسلم منه العلماء والعباد ، إذ ينشأ الحسد
المذموم بينهم نتيجة الخوف من زوال الرئاسة ، كأن يحزع الحاسد إن ترأس
غيره عليه ، أو أن يحظى بمرتبة عالية لم يصل إليها ، فيرغب لذلك أن تزال عنه
يحسده كل منزلة في مجالس العلم ، حتى تبقى له الرئاسة مهما كان ما يحسده صاحب
رأى سديد ، وفكر خصب ، وعلم غزير . . .

الباب الثاني

الطريق إلى الصحة النفسية

ملحظة :

يمتد بعض علماء النفس أن علم النفس الحديث بمناهجه العلمية المختلفة يمكن أن يهيئ الإنسان للصحة النفسية ، فيدعون تسميها مع النظرية التطورية (١) أن الإنسان كان عبداً للطبيعة .. جرماً .. غائفاً فرحاً منها ، حتى اكتشف أسرارها وتعرف على كثير من عالمها وأسبابها ، فزال عنه خوفه خاصة في عصرنا هذا الذي تقدمت فيه التكنولوجيا والعلوم الطبيعية ..

وقد زعم ليف من هؤلاء العلماء أن المعرفة التجريبية والموضوعية .. هي الطريق الوحيد الموصل إلى الحرية ، ومن ثم إلى الصحة النفسية ، لذلك فقد تخرج دستور التحليل النفسي بلفظ : « الحرية » حتى أصبح هذا اللفظ غاية وحيدة لمدرسة التحليل النفسي .

ولقد غلاد فرويد وتلامذته في ظاههم أن الأسباب الجوهرية للأمراض النفسية والعقلية ترجع إلى الطفولة المبكرة التي تعتبر المصدر الأساسي لمكونات الشخصية (٢) ، فالشاعر المكبوتة هي التي تؤذى المريض ، أما إذا أطلع عليها أو إذا استدرجت إلى مستوى الشعور فإن المريض يشفى منها تماماً ..

وبمثل أصحاب التحليل النفسي ذلك بالطفل الذي يرفض أن يفتح يده .. فيفسر ذلك السلوك على أنه دليل على أن هناك شيئاً يحظروا يريد الطفل ألا

(١) وحيد الدين خان - الدين في مواجهة العلم ص : ٢٤ - ٢٨

(٢) Edward Glover - The Birth of the Ego - Chapter VII

يستظهره . (١)

والتحليل النفسي بهذه الصورة يدعى أنه طريقة لمقارنة المكبوتات ومعرفة
المصادر اللاشعورية للإضطرابات . . . ولقد استخدم (فرويد) في بداية ممارسته
العلاج بالتنويم المغناطيسي كأسلوب ظن أنه صالح للعلاج النفسي ، ولكنه عدل
عنه عندما وجد أن كثيرا من الناس يستعصي عليهم النوم . . . فهداه عقله إلى
طريقتين للعلاج . . .

١ - التداعي الحر . . . (٢)

٢ - تفسير الأحلام . . . (٣)

وفي التداعي الحر يطلق المريض - المستلقي - العنان لخواطره ، ويلاحظه
المحلل في نقطة تامة ، ويسجل ما يظهر على وجهه من انفعالات وما يأتيه من
حركات ثم يلى ذلك تفسير السلوك بإرجاعه إلى نظرية الدوافع . . .

ورغم أن التداعي الحر يسمى حرا . . . فإن بعض علماء النفس يرون أنه ليس
كذلك فزعم أنه موجه ، توجيهها شعوريا إلا أنه مع ذلك يتحكم في الدوافع
والصراعات اللاشعورية .

كما أن أصحاب التحليل النفسي يستخدمون تفسير الأحلام كطريقة مكحلة
لتداعي الحر ، وتقوم نظرية الأحلام على طلب المعالج من المريض أن يقص

(١) دكتور عزت راجح - الأمراض النفسية والعقلية ص : ٣١١

(٢) روبر هاربر - التحليل النفسي والعلاج النفسي ص : ٢٥ - ٨٠ ترجمة

دكتور سعد جلال

ما رآه في نومه في الليلة السابقة دون حرج . . ثم يسجل ذلك كله ، ويلاحظ
المحلل النشاطات المريض ويدونها بصفة منتظمة . . (١)

والغريب أن التحليل النفسي قد كشف عن ظواهر غريبة تحدث أثناء التحليل
ولتشد في نهايته ، إذ أنه أحياناً تختبر المريض النشاطات شتى . . كحب مروج
بكرامية وغضب وعناد واليهاب واستخفاف . . وأحياناً يبدو ذلك في اعتداء
المريض على المحلل بالقول والفعل . .

ويفسر ذلك بأن المحلل يتخذ صورة الوالد المتسلط ، فيسقط المريض
النشاطات عليه ، ويصبح هدفاً للمدح والذم الذي لم يكن . موجهاً إليه في الحقيقة
ويعتبرون ذلك نوعاً من تحويل الدوافع . . (٢) (Transference)

ونحن نرى أن نظرة علم النفس الحديث قد جانباها الضراب في فهم وتفسير
النفس البشرية ، وأكبر دليل على ما نقول هو ما أعلنه السير وايم جيمس ، وهو
من أكبر علماء النفس ، وصاحب الكتاب الشهير "مبادئ السيكولوجيا" ، إذ
أعلن في تراجمه بعد أبحاث عديدة قام بها أن كتابه هذا يمثل كتلة كريهة
متفحمة تشهد أن لا شيء هناك يسمى بالسيكولوجية . (٣)

وفي نفس الوقت يقوم أستاذ كبير وعالم هو الاستاذ (T. B Rhine)
بجامعة (Duke) يقول :

إن الباحث عن النفس لا يجد عنها شيء في كتب السيكولوجية الحديثة ، كما لا

يهد شيئاً في المحاضرات التي تكتب عنها . (١)

كما أن البروفسور W. McDougall وهو من كبار علماء النفس في العصر الحديث ، وصاحب كتاب التحليل السيكولوجي والسيكولوجية الاجتماعية ، قال :
« أعلم تمام العلم أن التخلي عن فكرة عقد أريديب قد يتطلب جهداً جباراً من المؤمنين بفرويد ، بل أن التخلي عن هذه الأفكار إنما يعد كفراً بمعبود مقدس . (٢)

ثم يقول :

« ولكنني أناشدهم باسم الإنسانية أن ينكروها ويلبذوها نبذاً ، (٣)

يسلط علماء النفس المحدثون الضوء على الغرائز خاصة الحيثية باعتبار أنها المتحركة والسيطرة على الإنسان ، ويقولون أن هذه الغرائز هي التي تتحكم في السلوك الظاهري ، ومما فعل الإنسان فانه لا يستطيع عنهما فكاً ، فالشخصية الإنسانية إنما تكتمل في النامية أعوام الأولى من حياة الطفل ، ومهما بذل الإنسان من جهد لا يخلص من سطوتها فانه لا يستطيع أن يغير من سلوكه ، وبالجملة فان اللاشعور أو العقل الباطن هو المهيمن على طبيعة النفس البشرية .

ولقد زعم علماء النفس أن الإنسان مجبور على الشر والخبيثة والإثم والمدون واسوا أن في الإنسان قوة أردعها الله فيه وهي قوة لطيفة تدفعه إلى طريق الخير والاستقامة والموازاة والقسط والاعتدال والاقتصاد والاعتصام والايثار والتسامح والاحسان . . وهذا مؤيد في قوله تعالى :

(١) د . رؤوف عبيد — الانسان روح لا جسد ص ١٢٤ وما بعدها

(٢) نفس المرجع .

ص : ١٢٤ وما بعدها

(٣) المرجع السابق

- « وهدينا النجدين » (البلد : ١٠)
- « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (الشمس : ٨)
- « فأما من أعطى واتقى ، وصديق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من
يخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى » (الليل : ٥ - ١٠)
- « ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا » (العنكبوت : ٧٦)
- اذن هناك طريقان ، أحدهما طريق الخير والآخر طريق الحوى . . طريق
لسلامة القلب وطهارته ، وطريق لحب الديس ، وموافقة النفس والشيطان ،
والطريق الأول لصاحب القلب السليم والنفس المؤمنة . . والطريق الثانى لمريض
القلب صاحب النفس الأمارة ، ويؤيد وجود قلب سليم وقلب مريض قوله تعالى :
- « إلا من أتى الله بقلب سليم » (الشعراء : ٨٩)
- « إذ جاء ربه بقلب سليم » (الصافات : ٨٤)
- « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » (البقرة : ١٠)
- « وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم »
- (التوبة : ١٢٥)
- « إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض عن هؤلاء دينهم »
- (الانفال : ٤٩)
- « لأن لم يلقه المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجعون فى المدينة
لنخرينك بهم » (الاحزاب : ٦٠)
- والقلب السليم إنما هو قلب صادق طاهر ، أما القلب المريض فهو القلب
الغافل الجاهل بالله ، هناك تشابه فى قلوب المرضى ، كما أن هناك تشابه فى
قلوب الأصحاء .

« تصابحت قلوبهم ، قد بينا الآيات لقوم يؤمنون » (البقرة : ١١٨)

ويختلف علم النفس الاسلامي في النظر إلى الإنسان من جهة المرض أو السواء عن علم النفس الحديث فيما يتعلق بالقلب والنفس ، فيركز علم النفس الحديث على آفات النفس وهي صفات مفطورة عليها ككومات للشخصية ، ويلقى المجاهدة والرياضة النفسية والتوكل وإسقاط التدبير مع الله كطريق إيماني للصحة النفسية ، بل يتغافل عن ذكر الطوائف الربانية التي أودعها الله في الإنسان وجعلها براساً تستضيء به القلوب ، كالروح .. والعقل .. - لذلك نعرض في هذا الباب الطرق الموصلة للصحة النفسية من وجهة نظر علم النفس الإسلامي ...

النفس الأذن

الوسط العدل . . . الخير الفاضل

ان مفتاح الصحة النفسية في الإسلام هو الوسط العدل ، والوسط العدل عملية تخلية وتخليية ، تخليية عن الاوصاف المذمومة ، وتخليية بالآوصاف الحمودة ، فهو بهذا المعنى استقامة واقامة للحق والصدق وهو موازنة واعتدال ، وقد وردت الآيات الكريمة التي تحث الإنسان على اتباع طريق الله ، وهو لاشك أيضا الطريق الموصل الى الصحة النفسية فقله تعالى :

« فاستقم كما أمرت ، (هود : ١١٢)

تكليف من الله للإنسان الذي وهبه العقل ، وميزه عن سائر الحيوان ليختار طريق العدل في نفسه كما أمره تعالى باختيار العدل مع غيره .

« وإذا كنتم فاعدوا ولو كان ذا قربى ، (الأنعام : ١٥٢)

والعدل من الاعتدال ، والاعتدال وسط ، معناه الموازنة والقسط والتناسب والاقتصاد والقسمة العادلة . .

« وما خلقتنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، (الاعراف : ١٨١)

فالوسط العدل خير فاضل ، وهو ضد الجور والظلم والجور والظلم والفساد ، وهو طريق الصحة النفسية لانه اعتدال ، أى عدم الميل الى الانحراف ، وهو ترويض أى صلاح واصلاح واقامة ضد السقوط ليكون الشيء معتدلا وقائما ومقصودا الى هدفه ، متضمنا الأمن والصحة والسلامة ، وقد وردت في هذا المعنى آيات كريمة متعددة منها :

« والدين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ،

(الفرقان : ٢٧)

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ،

(الإسراء : ٢٩)

« وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ،

(المائدة : ٤٢)

« وكلاهما واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، (الإعراف : ٣١)

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ، (البقرة : ١٤٣)

« قال أوسطهم ، - أى أفضاهم رأياً وأفهم حكمة - (القلم : ٢٨)

« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، (الأنفال : ٦١)

والوسط العدل صالح للتطبيق في الرمان والمكان ، لأنه شريعة الله للناس ،
وليس هذا الوسط وسطاً ظاهرياً ، كمن يأمر بالمعروف ويرتكب الفواحش
نفاقاً ورياء ، أو كالذي يقترب المحرمات ، ويدهى الودع والتقوى ، إنما الوسط
العدل ظاهر وباطن ، عمل صالح في الظاهر ، ونية طيبة في الباطن ...

« هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ،

(النحل : ٧٦)

فليس الوسط العدل كلاماً عن عيوب النفس حتى نجعل من الحديث عن هذه
العيوب غاية ومقصدآ ، وإنما هو تربية وأخلاق وآداب ، تبدأ من النفس ،
وتنتهي إليها ، قاصدة الوصول إلى الكمالات الأخلاقية .. علماً وعملاً .. ظاهراً
وباطناً .. وسيلة وغاية (١) ..

« أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله » (المائدة : ٨)

وإذا كان الجسم لا يعالج إلا بأضداد الأشياء ، كان يكون به برودة فيعالج بالحرارة ، أو يكون به حرارة فيعالج بالبرودة ، فكذلك حال النفس .. إنما لا تعالج إلا بأضدادها ، أي بخالفة أهوائها وحظوظها فإذا نزعت إلى الغرور كان علاجها التواضع ، وإذا مالت إلى الهوى .. كان علاجها الاستقامة ، وإذا طلبت التسلط والسيطرة والتجبر ، كان علاجها في الزهد ، وإذا انحرفت إلى طريق الانماية ، كان دواؤها الإيثار .. وهكذا الطريق لمعالجة آفات النفس حتى ينصلح حالها ، وترجع عن تقائصها وعيوبها إلى الصراط المستقيم .

وإذا كان من الضروري لمريض الجسم معاناة مرارة الدواء وتعمل مريض الجراح والصبر على المشتبهات ليستقيم حال بدنه ، ويشفى من عاهه ، فكذلك الحال بالنسبة لمريض النفس ، فإن عليه مغالبة النفس ومنازعة الشيطان ، وذلك بكثرة الرياضات والصبر على الأذى والاعتناء ، ثم عليه المعاناة والمكابدة للتخلص من الآفات والحظوظ النفسانية حتى ينصلح حاله ، ويشفى من أسقامه ، وينظر علم النفس الإسلامى إلى أمراض النفس على أنها ثمرة فجوة وتحتاج طبيعى الجبل ونقص التربية ..

ويختلف مريض الجسم عن مريض النفس اختلافاً ~~بين ذلك وبين مريض~~ لأن مريض الجسم إذا تراكت عليه العمل والأوجاع اتقى به المرض آخر الأمر إلى الموت . أما مريض النفس فإنه إن لم ينصاح حاله ، فإنه لا يتخلص من آفاته وأمراضه بالموت ، إذ أن هذا المرض يدوم في الدنيا والآخرة ..

الوسط العدل إذن صالح للتطبيق في كل زمان ومكان لأنه خير فاضل وأقرب إلى الاعتدال والتصد ، وأبعد عن الغلو .. سواء في المصلحة .. أو الضرر ..

ويستخدم في الفضائل ، كما يستخدم في الرذائل :

فالتجاعة وسط بين الجبن والتهور ، وليس هذا الوسط وسطاً حسابياً وإنما هو وسط مرن ، وذلك كما ورد في قوله تعالى :

« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » (البقرة : ٢٣٨)

فالمراد أن في الصلاة فرائض خمس ، والوسط العدل هنا أما صلاة العصر أو صلاة الفجر ، فالصلاة الوسطى إذن ميزان وقسط واعتدال واستقامة وإقامة ، ويستهدف بها الصراط المستقيم ..

والعبد الذي يحافظ على صلاة العصر فإنه يصل الظهر حاضراً ثم إنه لا يصل المغرب مع العصر ، ومعنى ذلك أنه يصل جميع الفرائض في مواعيدها ..

وإذا طبق الإنسان الوسط العدل على نفسه ، وبالنسبة لغيره ، فإنه يصل إلى أعلى درجات العلم والعمل ، وذلك وارد في قوله تعالى :

« شهد الله أن لا إله إلا هو والملائكة وأولى العلم قائماً بالقسط »

(آل عمران : ١٨)

وهنا يكون الإنسان حكيماً ، صائب الرأي ، سليم القاب ، مطمئن النفس :

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » (البقرة : ٢٦٩)

وكما سبق القول فإن الوسط العدل هو قصد وقسط واستقامة وموازنة واعتدال ، لذلك فإننا سنحاول أن بين معانيها كما وردت في القرآن الكريم ، إذ بها تسهر ذفة النفس في طريق الصحة النفسية .

يقال قصد في أمره أي اعتدل أمره وسلك مسلكاً وسطاً لا مغالاة فيه ولا تقصير وقصد السبيل هو الطريق المستقيم الذي لا انحراف فيه ولا منحرج ، اقتصد

في أمره ، أى اعتدل بلا إفراط أو تفريط . (١)

وقد وردت آيات عديدة في السلوك السليم الذى مبشئه القصد والإعتدال وهو الطريق المستقيم الذى يقود الى الصحة النفسية .

« واقصد في مشيك ، (لقمان : ١٩)

« أى توسط في مشيك ، فلا تسرع الخطى ، ولا تبطئ ، ، وهذا هو خير الأمور ...

« منهم أمة مقتصدة ، (المائدة)

« فلما نجاهم الى البر فزهم مقتصد ، (لقمان : ٢٢)

والمقتصد هو المعتدل الذى لا ينحرف أى الملتزم الحد الوسط بلا إفراط أو تفريط ، وهذا هو الطريق المستقيم المؤدى الى الهداية ، لقوله تعالى :

« وعلى الله قصد السبيل ، (النمل : ٩)

والله خلق للالسان عقلا يدرك به ، وإرادة توجهه ، وتركه لاختياره فهو تعالى يبين الطريق القصد — أى المستقيم — فإذا البعده الالسان فانه يوصله للخير ، لأن من الطريق ما هو منحرف مائل لا يوصل الى الحق بل يقوده الى الضلال والانحراف (٢) .

القسط :

القسط يدل أيضا على الوسط العدل ، وهو مفتاح الصحة النفسية في الدنيا والآخرة ، لأن القسط عدل في النفس ، فيعرف الالسان بالقسط حقوقه وواجباته فلا يجهل ولا يستذل ، كما أن الحكم القسط هو العادل الذى يحبه الله تعالى :

« وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ، (المائدة : ٤٢)

(١) مجسم الفاظ القرآن الكريم - المجسم القنوى ج ٢ ص : ٢١٣

(٢) المنتخب في تفسير القرآن - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص : ٣٨٤ - ٣٨٦

والمقسط ميزانه لا يمتريه عوج ولا خال ، لآله لا يعتمد عن الحق ، وهذه
 هي التربية النفسية السليمة التي توصل الى القسطاس المستقيم ، أى العدل التام، الذى
 هو من صفات الله تعالى ، والتي تشهد به الملائكة الأطهار كما يشهد به أهل العلم
 يقينا وصدقًا، وهما يسلم المؤمن من الغرور والرياء والنفاق، ويتصف بالاخلاص
 والطاعة والصدق لله جميعا ..

فلا اعتراض ولا تدبير مع الله ، وإنما سكينة وأمن ورضا وطمأنينة :
 وشهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وألوا العلم قائما بالقسط (آل عمران: ١٨)

الاستقامة :

تدل الاستقامة على النهوض أو انتصاب القامة أو الاعتدال بالمعنى المادى
 والمعتوى ، والاستقامة من القيام بالشئ دون عوج أو التواء ، كأن يقوم
 بالصلاة وأن يقوم بالعدل ، وأن يقوم نحو أهله أى يراعى ويتولاهم بعناية . (١)
 والاستقامة هى سلوك طريق الحق والخير :

وقاستقم كما أمرت، (هود: ١١٢)
 ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، (التوبة: ٧)
 وترتبط الاستقامة بالقسط والعدل والاعتدال ، كما ترتبط بالقيام ، فيه
 فيه صلاح الأمور الدينية والدينية ، لأنه مأمون للناس جميعا من الانحراف ،
 والضياع لقوله تعالى :

، إلهنا الصراط المستقيم ، (الفاتحة : ٦)

إن الاستقامة توفيق إلى طريق الخير والحق والسعادة ، والتي بها يستقيم حال
 النفس وتتصف بالأمن والسكينة ...

الفصل الثاني

الصفحة الجميلة

يرى أصحاب علم النفس الحديث أن القانون الذي يسود دينا النفس هو بعينه
شرعية الغاب ، وهذا القانون ينص على قاعدة عامة شاملة للناس جميعا تقول :

« كل أرفأف مأكور ، (١) » .

ويستخلصون من ذلك القانون نتائج ومعلومات لمأ يصادفهم من حالات
مرضية ، فيقولون أن الإنسان الطيب يدفع ضريبة طيبته وتفاديه للشرور والآفام ،
وهى ضريبة يرونها قاذرة يدفعها من لحمه ودمه ..

لذلك فأن علماء النفس يرون أن من شروط الصحة النفسية السليمة ألا يكون
الإنسان طيبا ، مسرفا في الطيبة حتى يكون سويا وصحيحا ومعافيا ، فليس الخلق
الرفيع دايلا على الصحة النفسية (٢) ، ذلك إن لم يستطع الإنسان تصريف العدوان
في العالم الخارجى أو فى الغير بأى صورة من الصور ، فأن هذا العدوان يرتد على
صاحبه ويكون سببا لكراهية الذات أو فى صورة بلادة ونحول واستسلام أو
يفضى بصاحبه إلى الانتحار أو التووط فى مرض نفسى أو جسمى (٣) ..

ونحن نرى أن هذه النظرة إلى النفس الإنسانية نظرة قاصرة . فإذا صدقت
على كثير من المرضى كذبت على الأصحاء ، وإذا كانت الآثرة والعدوان والكراهية

(١) د. أحمد عزت راجح - الأمراض النفسية والعقلية ص ١٤٢٤

(٢) المرجع السابق

(٣) د. صبرى جرجس - التراث اليهودى المسيحى ص : ٢٤٣ - ٢٤٦

طبيعة الانسان المعاصر الملبذ ، فان الإيثار والتسامح والمحبة طبيعة الانسان المؤمن ، ونحن نختلف مع هذه النظرة الضيقة في تفسير دأبنا النفس ، فالطبيعة ليست دليلا على المرض النفسى ، بل على العكس من ذلك إنما تدل على الصحة النفسية . بل والكمال الاخلاقى ، ودليلنا فى ذلك ما ورد عن الله فى كتابه العزيز من آيات بينات تشجب هذه النظرة السطحية بقوله تعالى :

« هب لى من لدلك ذرية طيبة » (آل عمران : ٢٨)
 وذلك يدل على أن هناك أناسا طيبون وأناسا مجرمون ، وذرية صالحة وذرية طالحة .. تأييدا لقوله تعالى :

« حق يميز الخبيث من الطيب » (آل عمران : ١٧٩)
 ولذلك فان القاعدة الاسلامية أكثر عمقا وشمولية عندما تحدد صنفين من الناس ، ويعرفنا القرآن الكريم فيما يتعلق بالزواج بأن الطيبين من الناس للطيبات ، وكذلك فان الخبيثين للخبيثات .

« الخابات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » (النور : ٢٦)

فالطيب هو المسلم الذى يعلم الناس من يده وإساءته غير المحرم المعتدى الآثم تصديقا لقوله تعالى :

« أفجعل المسلمين كالمجرمين » (القلم : ٣٥)

والطيبة ليست دليلا على كبت العدوان ، وإنما هى مراقبة علم واختيار تصدر عن طبيعة مسالمة وقلب سليم ، وأعية بما تفعل .. مسترشدة بقوله تعالى :

« وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » (الفرقان : ٦٣)

والم النفس الإسلامى يؤسس العلاقات بين الافراد على أساس الخير ، وينبذ الشر بكل صوره ، فيدعو إلى المحبة والآلفة والتعاون والاخوة والصنيع والتسامح والعفو والإصلاح والاخوة وعدم الإعتداء ، والآيات القرآنية والاحاديث النبوية عديدة هادفة لتنظيم العلاقات الاساسية .. ولا يحض الله تعالى على العدوان والاعتداء ، بل على التسامح والسلام ...

فليس إذن المرض النفسى نتيجة لكبت العدوان ، بل على العكس من ذلك فان الاعتداء وذيلة وظللة تسبب المرض النفسى ، وتحمل قلب الانسان جميعها لا يطاق ، فالمعتدى آثم ظالم لنفسه ولغيره ومغرور ، لذلك ينصح الله الناس في قوله تعالى :

« ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (البقرة ١٩٠)

ويقول الرسول - ﷺ - :

« المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » (١)

والأمن . والأمل ، إنما يملأ قلب الصابر على الأذى ، الكاظم للغضب الذى يدفع السيئة بالحسنة تأييداً لقوله - ﷺ - :

« من كظم غيظه وهو يقدر على إنفاذه ملك الله قلبه أمناً وإيماناً » (٢)

(١) ذكره أحمد فى مسنده والبخارى فى الأدب ، والترمذى وابن ماجه ، والسيوطى فى الجامع الصغير ..

(٢) ذكره أحمد فى مسنده ، والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى ، وابن ماجه والسيوطى فى الجامع الصغير ..

ليس قلب المؤمن غابة تسكنها وحوش كاسرة .. كما يدعى (فرويد)
وتلاميذته ، إنما قلب المؤمن عامر بالمحبة ، مفعم بالخير ، لا ينطق عليه شعار
« كل أوفات ما كول » ، !! يقول الرسول - ﷺ - :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (١)

وإن هذا الحب ليظهر في سلوك المؤمن في جميع أفعاله وأعماله ، ويعتبر سمة
ملازمة لشخصيته ، فلا يتأثر بضروب الأذى والعدوان ، بل يحيلها جميعاً إلى عفو
وتسامح وإحسان ، فيرتفع عن الانتقام بكظم الغيظ والصبر على الاعتداء ، ثم
يرقى إلى مقام العفو عن الإساءة ، فيصبح قلبه نوراً بلا ظلمة ، وسكينة بلا قلق
وزهد ، حتى أنه في آخر الأمر يحسن بدلاً من الاعتداء ، ويعطى بدلاً الاستئثار
والاستحواذ ، تصديقاً لقوله تعالى :

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »

(آل عمران : ١٣٤)

هذا هو السلوك السوي لكمال الإنسان في أروع صورته ، وأجمل حالاته
متملاً في قوله تعالى :

« فاصفح الصغ الجليل » ، (الحجر : ٨٥)

« فاعفوا وأصفحوا » ، (البقرة : ١٠٩)

« وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا المسوا الفضل بينكم » ، (البقرة : ٢٣٧)

هذه هي التربية الحقة للنفس ، والتي تستهدف الصحة النفسية ، ليصبح الإنسان

(١) ذكره ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن أبي هريرة والسيوطي في الجامع الصغير.

ألفاً ، طاهراً منطهراً ، ولا يحمل بغضاء لأحد ولا ينافق ولا يرائي أحداً
ولإنما ظاهره كباطنه وقلبه يسمع نورا ومحبة ويتأكد ذلك في قوله تعالى :
« إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ،

(آل عمران : ١٠٣)

فالتسامح والغفران والتوبة قوام الحياة الإنسانية السليمة ، ويقول
الرسول ﷺ :

« من لا يرحم لا يُرحم ، ومن لا يَغفر لا يُغفر له ، ومن لا يُقْبَل لا يُقْبَل
عليه . (١) »

والماؤمن جواد .. سخي .. صديق .. صدوق يسارع إلى الخير ويذكر
نفسه ، ويظهرها بصالحات الأعمال .. لكن نظرة علماء النفس الحديث
للإنسان العليوب سطحية جداً يعولها الفهم الرشيد لنفسية الرجل المؤمن ..
ويقول الرسول ﷺ في ذلك :

« المؤمن حين لين حتى تحاله من الدين أحق . (٢) »

وسلاح المؤمن الذي يتقوى به في رحلة الحياة الشاقة هي حب الله تعالى تجمده
راضياً أبداً ، ذا كرامة في السر والعلانية ، مطمئناً إلى طريقته ، فلا نزعات
لا شعورية عدوانية ، ولا مكبوتات أو دوافع غامضة ، ولا تصرفات إنحرافية
قسرية ، ولا أفعال تحريكية تدميرية إلى الذات ، أو ما يسميه علماء النفس العدوان
المرتد أو العدوان على الذات إذا فشل العدوان على الغير أو إلى الموضوحات
الخارجية لقوله تعالى :

(١) ذكر هذا الحديث الطبراني في الكبير عن جرير والسيوطي في الجامع الصغير .

(٢) البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة والسيوطي في الجامع الصغير .

(آل عمران : ١٤٦)

« فلما وهبنا لما أصابهم »

إنما المؤمن بطء عبور ، راسخ العلم ، مطمئن القلب في جميع الأحوال
لقوله تعالى :

« هو الذي أمهل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »

(الفتح : ٤)

« والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا »

(آل عمران : ٧)

فأى طريق إلى الصحة النفسية أفضل من هذا الطريق ، وأى الطريقين أسلم
مسلكاً ، وأى غاية أسمى من هذه ؟ .. وبمعنى آخر أى الطريقين أفضل للصحة
النفسية ، طريق الحب والآلفة والخير والاحسان والسلام ، أم طريق التنقيص
بالمعدون والظلم وإثبات الذات ؟ .. أو بمعنى آخر : « كل أو فائت ما كول .. »

أم قول الرسول ﷺ :

« تبسلك في وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر
صدقة ، وأرشادك الرجل في أرض الضلال صدقة ، وإسماطتك الحجر والشوك
والعظم عن الطريق صدقة » (١) .

(الزلوة : ٨)

« ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

أمن الأفضل أن يسعى الإنسان في الأرض فساداً وضياعاً ، وأن يهيباً في
قرع دائم وخوف مستمر أم يدخل إلى حظيرة الإيمان فتقبل الظلمة نوراً ..
والخوف أمناً ..

(١) سيجموند فرويد - الموجز في التحليل النفسي

هل قول الحق تعالى .. وهو الخالق للنفس البشرية ، العالم بالطريق الصالح
لسلامة القلب ، وكمال النفس ، في الدنيا والآخرة أفضل ، وأصدق أم .. طريق
أصحاب التجارب السطحية التي تصدق حينها ، وتفشل أحيانا ، وبكذب أحيانا
مع بعضهم البعض كل يوم ، فتتعرض نظرياتهم وتظهر انا عن تفهم قاصر للحقيقة
النفس البشرية ، أو بمعنى آخر .. قول الحق تعالى :

« ولا تسئوى الحسنه ولا السيئه ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه
عداوة كأنه ولي حميم »
(فصلت : ٣٤)

أم زعم أصحاب النظريات النفسية الحديثة ، الواسعة الانتشار ، والذي يزعم
أصحابها أن الاضطرابات العصابية هي نوع من تفجر للرغبات الجنسية ، والخاوف
المكبوتة في اللا شعور ، والتي تم كبتها في سنين العمر المبكر ، والتي بقيت على
هذه الحالة في اللا شعور ، ثم حدث شيئا ما فحركها ، فبرزت في صورة أعراض
عصابية (١) ، والله لا يمكن في رأيهم علاجها إلا عن طريق التنفيس منها إلا
بطريق العدوان ..

لقد جاء الرسول ﷺ رجلا فقام : إن لي جارا يؤذيني قال الرسول ﷺ :
انطلق فأخرج مناهك إلى الطريق .. فأخرج مناهه .. فاجتمع الناس
إليه .. فسأله بعضهم : ما شأنك ؟ .. قال : إن لي جارا يؤذيني .. فذهبوا
على المحدثين قائلين : اللهم إلهه .. اللهم أخرجه .. فبأنه ذلك .. فأثنى المحدثي
عليه وقال له : ارجع إلى منزلك والله لا يؤذيك أبدا (١) ..

هذه الحيلة الطيبة المهدبة في معالجة العدران قد أباحها الاسلام لأنها سبيل

(١) الامام ابن القيم الجوزية - الطرق الحكيمية في السياسة الشرعية - تحفيظي

لتخليص الإنسان من ظلم غيره دون رد العدوان ، وبديل لاستمساك الحرمات واستقاط الأمر بالمعروف ، واستخدام القسوة في رد الاعتداء ..

لذلك فإن علم النفس الاسلامي يستهدف العمل الطيب ، والكلمة الطيبة ، التي يجهدها أجدى في علاج النفوس المريضة من العدوان ، فالصفح الجميل علاج نفسي يميل البغض والكراهية حبا ، والبعد والنفور قريبا ..

« وقولوا للناس حسنا ، (البقرة : ٨٢)

والخطاب هنا لجميع الناس .. كل الناس .. مسلمهم وكافرهم .. طالعهم وحاصيهم .. فالصفح والهدوء ، والكلمة الطيبة أبواب الحب والرحمة والنورانية والصفافية والصفاء ..

« وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، (النور : ٢٢)

وإن في معالجة العدوان بالصفح الجميل والرد على الافراط والتفريط بالاعتدال والاستقامة ، هو الطريق على تبدل الخوف بالآمن ، والشك بالإيمان ، والحقد والحسد بالآلفة والمودة .. والبغض بالحب ..

الفصل الثالث

التوبة ميلاد جديد

يخالف علماء النظريات النفسية الحديثة بعضهم البعض في الاتجاهات الخاصة بتأثير الماضي على الحاضر فيما يتعلق بالسلوك الإنساني ..

ويرى المدافعون عن أهمية الحاضر المستمر بأن الماضي يمكن أن يكون له دلالة في الحاضر .. وذلك من خلال تأثيره على الدوافع المعاصرة ، فليس هناك حاجة إلى تناول الماضي ، والرجوع إليه كما يفعل أصحاب التحليل النفسي .. إذ الحاضر هو الماضي الممتد ..

ليس هناك إذن أي معارضة حقيقية في تأثير الماضي المستمرة على الحاضر ، وذلك من خلال قناعة الدوافع والقوى والمؤثرات المعاصرة التي تتمثل في الأفكار .. والذكريات .. والاستعدادات ..

ومن ناحية أخرى .. فإن هناك من العلماء من يدافع عن أهمية الوقائع الماضية .. مستقلة عن الحاضر .. بزعم أن هذه الوقائع تلعب دورا هاما في تغيير الشخصية الإنسانية ..

ويظهر الخلاف الرئيسي بين الموقفين .. حول مسألة ما إذا كانت الدوافع الماضية التي تلعب دورا رئيسيا وتوجه وتؤثر في السلوك الحاضر يمكن التوصل إليها من خلال النظر في هذا السلوك وحده دون الرجوع إلى الماضي .. كما ينصب اهتمامهم أيضا حول مسألة أخرى يمكن صياغتها في التساؤل الآتي :

(١) ك. ميسول - نظريات الشخصية من ص ٦٩٣ وما بعدها ترجمة د. فراج

هل المعرفة الخاصة بوقائع الماضي تقدم لنا معرفة جديدة ذات طبيعة حاسمة؟
 لقد وقف المتخصصون من أصحاب النظريات النفسية مواقف منقسمة
 ومتناقضة حول هذا الموضوع ، فبعضهم يرى أن الوقائع التي تحدث في الحاضر
 ترتبط ارتباطاً جذرياً وبانتظام بوقائع حدثت في الماضي ، وأن ارتقاء السلوك
 الحاضر هو نتاج عملية منتظمة ومستمرة . يمكن حصرها في مجموعة من الأسس ..
 وعلى العكس .. يرى غيرهم مثل .. ليفين وروجرز (١) .

افتقار التقدم الارتقائي إلى الاستمرار اسقناده إلى ما يلاحظونه في الناضج
 الراشد .. إذ أنه يستغل استقبلاً جزئياً عن الوقائع التي حدثت له في فترة
 الطفولة المبكرة .. أو فترة المهد ..

ويؤكد ليفين ، آتسيا مع هذه النظرة ، أن هناك تفككاً في إرتقاء
 الشخصية عبر رحلتها من الطفولة إلى الشباب ، بل يرى أن هناك فصلاً واضحاً
 بين سني الطفولة والبلوغ ، وذلك عندما يعمل الراشد على إحلال الاحتياجات
 الحضارية والروحية كبديل للدوافع البيولوجية ..

وعلى العموم .. فإن نظريات الشخصية لا تهتم كثيراً بعملية الارتقاء إلا
 باعتبارها عملية مستمرة في بناء الشخصية . يتوجب بحثها في ضوء مجموعة مفترضة
 من الأسس النظرية ..

ومن وجهة النظر الإسلامية بعد الارتقاء المقصود نوعاً من الربط النفسي
 الشخصية في أدوارها المختلفة .. إذ أن تفسير الحاضر عن طريق ماضي الشخص
 إنما هو في واقع الأمر ، رجوع إلى مواقف الطفولة غير المميزة ، وإرتداد

(١) ك. د. د. نظريات الشخصية ص ٦٩٣ وما بعدها ترجمة د. فريج أحمد وآخرين

الخصية التي لم تنضج بعد ، أو التي لم تنبأ لها بعد تكامل ملكاتها .. وقدراتها ،
إذ أن قواها المدركة لم تنم بعد ليقسنى الحكم عليها على نحو سليم ، بل لم يتم العقل
فيها تموا يجعله قادراً على فهم ما يقوم به من ضرب السلوك المختلفة ..

إذن فالدهري القائمة بربط الحاضر بالماضي ، والإدعاء بوجود اتصال وثيق
بين السلوك الحاضر والماضي ، ليس بعيداً عن النقد والتفكير ، إذ أنه بما لاشك
فيه وجود تفرج جذري عند انبوج الفرد ورفض طبيعي للسلوك الطفلي ، خاصة
إذا ارتبط ذلك بالعقيدة الدينية والمعايير الأخلاقية ، والعلوم المختلفة ..

ويبدأ الفرد في مرحلة المجاهدة لنفس ، بنقد كل ما هو مردود ، والتحمل
بكل ما هو محمود .. وهذا ما يعبر عنه بالتوبة عن المعاصي ، أو الصبر على
المحجوب لنفس ، أو تحمل المحنكر لها ..

وهذا بما لاشك فيه نوع من الرياضة النفسية التي يتطلبها الفرد ليدفع بها
النقص والعجز والضعف ، ليكمل ما هو ضروري .. فيتخلى بالقيم والأخلاق
القيمة ، ويتخلى عن أنانية الطفل ، وكلية الغضب ، وشهوة الخنزير .. وينتعد
على الاثارة والبذل والعطاء ..

أما ارتباط الماضي بالحاضر بالصورة التي يفترضها علماء النفس الحديث ..
فانه يلغى تقدم الخصية وتطورها نحو كمالها .. كما يضرب عرض الحائط بالمجاهدة
ويطلق باب التوبة التي هي عنصر أساسي لتكامل الخصية الإنسانية بقسور
الرجول عليه السلام :

« من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » (١)

لذلك ، فإنه من الخطأ ربط الفرد بماضيه الطفولي بصورة من الصور والادعاء بأن السلوك الحاضر ما هو إلا ماضٍ ممتد .. إذ العبرة حقا لفهم السلوك بحالة الفرد في معوجه ، أي عندما يكتمل العقل .. ويستطيع الفرد التعرف على الخطأ والصواب ، والحلال والحرام ، والخير والشر ..

وأول الطريق إلى ذلك التوبة .. والتوبة مرش الإيمسان ؛ والتقوى دواء النفس ، كما أن الطاعة لله هي الشفاء الناجع لكل دواء (١) ، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ :

« ألا أعلمكم ما درأؤكم ودأؤكم ؟ .. قالوا : بلى يا رسول الله - فقال : دأؤكم الذنوب ودوأؤكم التوبة ، (٢) .

والتوبة بهذا المعنى رجوع الإنسان عن إثمه وذنبه ، فيخرج من نفسه حلالة الفعل الذي كان سببا في مدميته وانحرافه خروجاً أبدياً ، حتى كأنه لم يكن هو الذي اقترف هذا الذنب (٣) .

« ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً » (الفرقان : ٧)

إذن يستطيع الإنسان بالتوبة أن يتخلص من أمراضه وآفاته ، ويرجع إلى صحة النفس ، وسلامة القلب ، معافياً من كل مرض ، وليس معافياً ما يردده بعض علماء النفس الحديث من أن هناك أفعالا قسرية تتحكم في الشخصية فتدفع

(١) الإمام الجيلاني - الفتح الرباني - ص : ٨٩ .

(٢) الرسالة الشريفة - الجزء الأول - ص : ٢٦ .

(٣) باتريك ملاهي - عقدة أوديب - ترجمة د. أحمد زروقي - مراجعة جيل سعيد

الإنسان بدون وعي منه إلى طريق الانحراف ، ويرونها أفعالا لا يستطيع المرء عنها فككا ، لأنها تقسطن عليه وتسيطره حسبما تريد .. فكان الفرد ، شاء أو لم يشأ ، يسعى وراء الاحساس باللذة وتجنب الألم بصورة اتوماتيكية مدى الحياة .

ويرى بعض العلماء أن بعض من هذه الأفعال لا شعورية ، وبعضها شعورية ، أما اللاشعوري ، فيقدم عليها الإنسان دون يقظة أو وعي منه ، أما الشعوري من هذه الأفعال فإنه يعرفه ، ولا يسعى إليه ، ولكن هناك قوة قسرية تدفعه دفعا للإقدام عليه ، وتمنعه من التوقف عنه ..

والواقع أن ذلك الاستبساط وهم واهم ، واقتراض لم يثبت له صحة نظراً أو سلوكاً ، ذلك أن الإنسان ما دام سليم العقل ، يستطيع أن يتعد بانزادته عن الخطأ والوقوع في الآثم .. إذ أن الفطرة السليمة تبصر الإنسان بطريق الحق ، وتحذره من طريق الباطل ليرقى في سلم التكامل الأخلاقي بإتباع السلوك السوي ، إلا أن ذلك يتطلب من الفرد أن يصدق بغير نفسه ، ويتوب عن ذنوبه ويندم مما اقترف من إثم .. ثم عليه أن يستشير بالقيم العليا ، ويبدأ ذلك بالسلوك الآن :

١ - أن يملك لسانه من الضرر بنفسه ، وأن يتجنب الغيبة والنميمة والكذب ..

٢ - أن لا يحسد أحداً ، ولا يرى في قلبه حقداً على أحد .

٣ - أن يفارق أصدقاء السوء ، إذ أنهم السبب المباشر في الانحراف لأنهم يهودونه إلى طريقهم فيضيضون عليه عزمة في التوبة ..

٤ - أن يكون نادماً ومستغفراً عن ذنوبه ، مجتهداً في طاعة ربه (١) ..

وليس جميعا أن النائب يحمل عقدة ذنب أو شعورا بالذنب إنما الصحيح
كما يقول الرسول ﷺ :
« الندم توبة » (١) .

والندم موقف علم ، وهو ثمرة التوبة ويتحدد الندم في الغرم على :

١ - عدم العودة إلى الإثم ..

٢ - البعد عن الرذائل .. والفرح باتيان الخير والتوبة عن الشر ..

وبذلك يصدق في النائب قوله تعالى :

« ان الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين » (البقرة : ٢٢٢)

« إنما التوبة على الله للذين يعملون سوءا بهالة ثم يتوبون من قريب »

(النساء : ١٧)

« وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (النور : ٣١)

ويرى الأستاذ على الخواص (٢) أن من شروط التوبة النصوح أن لا يصير
العبد في قلبه حلاوة لذلك المعصية التي تاب عنها حتى في حال النوم .. إذ أن
احتلامه بها - أي التحلم بها - يدل على بقاء حلاوتها في قلبه ولولا وجود تلك
الحلاوة في قلبه لما تفكر ولا حلم أو احتلم ..

وإذا اهتدى العبد الصادق إلى طريق التوبة ، فإنه يصالح ما بينه وبين غيره ،
ويسترضى خصومه ، ويعمل على إذلال كبر نفسه ، فيقبل الآلام بصبر وحب ،
ويسعى لراحة الناس بقدر ما يستطيع ..

(١) ذكره ابن ماجة وأبو حيان والحاكم وصححه لسناده من من حديث ابن مسعود ..

(٢) الامام النعماني - الأخلاق النبوية - تحقيق د. شيخ عبد الحليم ص : ١٧٧

ثم انه يسعى الى الله بأنواع الطاعات (١) ، فيقوم الليل ، ويصوم النهار ،
ويؤدى الفرائض ويزيد كل يوم فى مجاهداته ويوجب على نفسه تحصيل أعمال
جديدة ، ويمتنع عن القعة الحرام ، ويواظب على تلاوة الذكر ، ولا ينظر إلى
المهرمات ، ولا يستعبد أحدا ، ولا يسأل أحدا شيئا وهو قانع مستسلم لإرادة
الله مملا بقوله تعالى :

و يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ، (التحريم : ٨)
إذن التوبة موقف جديد يفسل الإنسان فيه أحواله القديمة ، وغسلاته
الماضية ، وأعماله السيئة ، وسلوكه المنحرف .. ليبدأ من جديد ميلاداً جديداً ..
ويؤيد ذلك حديث الرسول ﷺ فى قوله :

، ان الله تعالى يمسح يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويمسح يده بالنهار
ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها ، (٢) ..

(١) ابن أبى سعيد أبى الخير - أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ص : ٥١
ترجمة اسعاد عبد الهادى - مراجعة د. يحيى الخشاب - دار المصرية للتأليف والترجمة .
(٢) رواه مسلم

الفصل الرابع

العمل الصالح

يعتبر العمل عند علماء النفس المحدثين طريقاً علاجياً مألوفاً للأمراض النفسية والعقلية ، وترجع قائمة العمل عندهم إلى أنه يفرغ المريض من عالم الخيال الذي يسبح فيه ، ويرده إلى عالم الواقع ، كما أنه وسيلة لدفع المال وتمضية أوقات الفراغ أو الترفيه عن النفس ، ويرى هؤلاء العلماء أن العلاج بالعمل هو الخطوة الأولى التي يسترد بها مريض الاكتئاب العنيف الأمل والثقة في نفسه ، والعمل هنا طريق للتعبير والافضاء المريح ، كآله بمثابة اللعب عند الأطفال (١) .

ولا يوافق علم النفس الاسلامي على هذه النظرة القاصرة للعمل ، فالعمل ليس لغاياتاً هادفاً يقصد منه إرضاء المريض النفسي ، وتقوية قدرته على التركيز ، وإشعاره بالفوز ، إذ أن هذا الأسلوب العلاجي مؤقت ما يلبث أن يرجع المريض بعده إلى حالته المرضية السابقة ..

أما العمل في التشريع الاسلامي ، فإنه يستهدف مصلحة العامل في الدنيا والآخرة ، فهو بهذا المعنى طريق عدل للصحة النفسية ، فلا يعمل العامل لرغبة إشباع ذاتي ، ولا يقصد منه الترويح عن النفس وإنما العمل هو الوسيلة الناجمة للاستقامة والاعتدال ، كما أنه السبيل الطيب للتوابع في الآخرة ، وإذا فهم العامل ذلك جيداً ووعاه ، فإنه سيقبل على عمله حتماً برضى واطمئنان وإخلاص ، وهذا بما لا شك يحقق الصحة النفسية المأمولة (٢) .

(١) د. أحمد عزت راجح — الأمراض النفسية والعقلية ص ٣٧٣-٣٧٤ .

(٢) يقول تعالى : «لأننا لا نضيع أجر من أحسن عملاً» (الكهف : ١٨) .

« لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، (يس : ٢٥)

للعمل لا يقتصر على ضروب النشاط البدوي والذهني المختلفة ، وإنما يدخل في باب العمل ، الأمر والمعروف والنهي عن المنكر ، وأعمال البر والاحسان ، والإيثار ، وخدمة الناس ، وقضاء مصالحهم ، كما يدخل في العمل كظم الغيظ ، والتسامح ، والصبر على الأذى ، فليس العمل مجرداً من الفضائل ومكادماً للأخلاق وإنما العمل مجاهدة يقصد منها الوصول إلى الخير الفاضل في الدنيا والآخرة .. يقول الرسول ﷺ :

« ان الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه » (١)
لذلك فقد قرن العمل في علم النفس الاسلامي بالأخلاق ، وبذلك يشجب كل النظريات الحديثة التي تفصل بين العمل والإيمان كسلوك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفضائل ، تصديقاً لقوله تعالى :

« من يعمل مثقال ذرة خيراً يره » (الزلزلة : ٧)

« قل يا قوم أعمالوا على مكانتكم إني عامل » (الأنعام : ١٢٥)

« إني لا أضيّع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » (آل عمران : ١٩٥)

« والعمل الصالح يرفعه » (فاطر : ١٠)

فالعمل في علم النفس الاسلامي هو جهاد النفس ضد التبطل والسلبية والضياع والهبوط والحبس واللجب ، هو رسالة انسانية تفوق في ثوابها ظاهراً المهادنات ، لأنه مجاهدة للنفس ..

(١) رواه النسائي عن أبي امامة ..

« من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة .. »
(النحل : ٩٧)

يقول الرسول ﷺ :

« الوجد في الدنيا يرجح القلب والبدن ، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن ، والبطالة
تقسي القلب ، (١) »

والنفس إذا تركت دون مجاهدة ، استسلمت الراحة واستكالت إلى الخمول
واستمرأت النقايس عن بذل الجهد وتحمل العنت والمكابدة .. وهذا بطبيعة الحال
مضية الوقت وفساد الذكر ، وطلب الحظرظ والأهواء ، ولذلك يقول الله
تعالى في كتابه العزيز :

« وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ، (النساء : ٩٥)
« فعمل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، (النساء : ٩٥)
« ومن جاهد قائماً يجاهد لنفسه ، (العنكبوت : ٦)
« لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل
الله بأموالهم وأنفسهم ، (النساء : ٩٥)

ولذلك يطلب الرسول ﷺ من الناس الدقة في العمل لإرضاء الله :

« إن الله يحب إذا عمل أحدكم العمل أن يتقته ، (٢) »

والعمل بكل صورة جهاد في الله ، والله .. وفي سبيل الله .. وهذا ما يراه
هذه كثير من الأئمة في قولهم :

(١) رواه القاضي عن ابن عمر ..

(٢) رواه الطبراني ..

« من زاد عليك في العمل .. زاد عليك في الخلق »

والعلم إذا لم يصاحبه العمل لم يكن إلا غنا ، فإذا صاحبه العمل كان جهاداً ،
لأنه إيجابى مشمر ، والعلم الذى لا يكون سلوكاً ينصرف بالإنسان ويهوى به لأنه
لا نفع فيه ، ومثل ذلك كالذى يحمل الماء بيديه مع وجود حرة فارغة فهو لم
يربط العلم بالعمل ، وكان الامام مالك - رضى الله عنه - يقول : لا أشتغل إلا
بما تحته عمل !

والعمل المنتج لثمرات يؤمن الإنسان من أسوأ التفتكك والافتراء
والريبة والشرود ، بل من الحرف .. والمجرع .. والجدل الذى لا طائل تحته ،
فهو وقاية للإنسان من التعلل والتفكك والضياع ..

والعمل المستهدف في علم النفس الاسلامى إنما هو العمل الصالح الذى يرمى
إلى الخير للإنسان ، والمنفعة للناس جميعاً ، وليس العمل الصالح الذى يستند
صاحبه أنه خدم به غرور نفسه لقره تعالى :

« أفن زين له سوء عمله فرآه حسناً » (فاطر : ٨)

والعمل هنا يتجاوز النشاط الظاهرى إلى الباطن ، فهناك النية والقصد
والهمة ، يقول الرسول ﷺ :

« من هم بحسنة فلم يعلمها كتبتها الله عنده حسنة كاملة ، فان هو هم بها فعملها
كتبتها الله عنده عشرة حسنات » (١).

فالله لا يهتم إذن بالأعمال الظاهرة التى ليس فيها صدق وإخلاص ونية وطاعة له
تعالى يقول الرسول ﷺ :

(١) أخرجه مسلم والبخارى عن ابن عباس .

« ان الرجل لعمله عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، وهو من أهل النار وإن
الرجل لعمله عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » (١)

فأنته أساس العدل الصالح .. يقول الرسول ﷺ :

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » (٢)

كما أن كثرة العمل لا تعني قبوله من الحق تعالى ، إنما المهم في العمل أن يكون
مقترنا باخلاص ، سعي وان كان ضعيفا ، فكل ميسر لما خلق له ، وكل يعمل على
قدر طاقته .. يقول ﷺ :

« خذوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله تعالى لا يمل حتى تهلكوا » (٣)

ويقول ﷺ :

« شددوا ، وقاربوا ، وإشربوا ، وأهلوا أنه لن ينزل أحدكم الجنة عمله .
قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ ..

قال : ولا أنا .. إلا أن يتغمدني الله منه بعمرة ورحمة ، وأن أحب العمل
إلى الله أدومه وإن قل ..

يقول الرسول ﷺ : (٤)

« على كل مسلم صدقة .. »

قالوا : يا نبي الله فإن لم يجد ..

قال : يعمل بيده فينتفع نفسه ويتصدق ..

(١) رواه البخاري ومسلم ..

(٢) رواه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب ...

(٣) رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها .

(٤) رواه بخاري ..

قالوا : فإن لم يستطع ؟

قال : يعين ذا الحاجة ..

قالوا : فإن لم يجد ..

قال : فليأمر بالخير أو بالمعروف ..

قالوا : فإن لم يفعل ؟ ..

قال : فليحسك عن الشر فإنه له صدقة .. (١)

الفصل الخامس الرؤيا لا أضغاث أحلام

الرؤيا كعلم له أصل في الشريعة الإسلامية إذ أن هناك العديد من الآيات البينات
قد ذكرت الرؤيا في قوله تعالى :

وإذ يريكهم الله في منامك فأبلا ، (الأنفال - ٤٣)
فأكد الرؤيا الحق فقد تفضل الله تعالى على الرسول - صلى الله عليه وسلم - في
منامه فصور له ضعف وقلة جيش الأعداء ليطمئنه ومن معه على انتصارهم على
أعداء الله .. ولينبئهم في قتالهم ... ولوترك الله الرسول - صلى الله عليه وسلم -
ولم يشره بهذه الرؤيا لإعتقده في كثيرهم ، وتردد في الأمر ، وكان هناك تنازع
بين الإقدام على حريهم وعدمه ...

كما أن القرآن الكريم يفرق بين الرؤيا والأحلام في قوله تعالى :

يا أيها الملا أفترى في رؤياي ، (يوسف - ٤٣)
وقالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ، (يوسف - ٤٤)
يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنما
هي من الله فليحمد الله عليها وليستعذ بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكرهه فإنما
هي من الشيطان ، فليستعذ بالله ، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره .. »

فهناك إذن رؤى صادقة ، كما أن هناك أضغاث أحلام ، فليس كل ما يراه
الإنسان في المنام صحيحاً يجوز تعبيره ، إنما الصحيح منه ما كان من الله تعالى ،
أو يأتي به ملك الرؤيا الذي يدعى « حديقون » أو « روحانييل » أما خسراني
ذلك من المنامات فيعد أضغاث أحلام لا تفسير له ولا تأويل (١) ..

ويقسم الشيخ النابلسي (١) المنامات إلى ثلاثة أقسام :

١ - البشريات :

وهي المبشرات أو الرؤيا الصالحة والصادقة ، ولقد سأل أبو ذر الغفاري عنها
ولقد سمع أبو هريرة - رضى الله عنه - الرسول ﷺ يقول :

« لم يبق من النبوة إلا المبشرات » : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة (٢)

٢ - رؤيا تعذير :

وهي من تخاريف الشيطان وافترائه للنائم ، وهذه رؤيا باطلة لانه لا يعقل
أن يفرع الله تعالى النائم أو يخيفه .. يقول ﷺ :

« إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليصق عن يساره ثلاثا .. ويستعمل بالله من
الشيطان ثلاثا ، ويتحول عن جنبه الذي كان عليه (٣) .. »

٣ - رؤيا أماني النفس :

وهي أحلام النفس وأمايها ، وهي تعد رؤيا باطلة ..

اذن هناك فرق بين الرؤيا والأحلام ، فالرؤيا لا تكذب ، والحلم لا يصدق ..
والحلم بهذا المعنى هو الرؤيا الباطلة لقوله تعالى :

« بل قالوا أضغاث أحلام ، بل اقراء بل هو شاعر ، (الانبياء : ٥)

والحلم أو الرؤيا الباطلة تنقسم إلى سبعة أقسام :

(١) الشيخ عبد الفتى النابلسي - توطير الألام في تعبير المنام ص : ١ - ٨

(٢) رواه أبو هريرة - رضى الله عنه

(٣) رواه مسلم عن جابر

١ - حديث النفس :

حديث النفس تعبير عن أمانى النفس أو قناعاتها ورغباتها الدنيوية وحظرها الشهوية .. وأضغاثها وخيالاتها .. مثل أن ينام النائم وفي نفسه لذة محرمة ، أو رغبة كاذبة ينزع إلى تحقيقها ، ويود إشباعها .. وكل أمانى النفس لا يعول عليها لأنها من الشيطان .. وإن الله تعالى يمسحها فلا تحقق كما أنها كأخلام ليس لها من تفسير أقوله تعالى :

« وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانهم »

(البقرة : ١١١)

« إلا إذا تبنى القى الشيطان في أميته فيمسح الله ما يلقى الشيطان »

(الحج : ٥٢)

« ولكنكم فتنكم أنفسكم وتربصتم واربتم وغرركم الأمان »

(الحديد : ١٤)

٢ - الحلم الموجب للاتصال :

وهو الحلم الذى يتوجب فيه الطهارة من الجنابة ، وليس لهذا الحلم عند الأئمة تأويلا ، إلا أن الامام ابن سيرين (١) .. يرى أن الجنب أو المرأة الحائض يمكن أن ترى رؤيا صادقة فلا تخل الجنابة أو الحيض بصحة الرؤيا في ذاتها ، وإنما المدار على موضوع الرؤيا ، فإذا كانت تتعلق بمراقبة أو علاقة محرمة فانها تعد من الأباطيل ، ومن تحسین الشيطان الفواحش :

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء »

(البقرة : ٢٦٨)

(١) الامام ابن سيرين - منتخب الكلام في تفسير الأحلام ص ١٨ هامش كتاب
تفسير الأنعام

٣. لهاويل الشيطان :

أحيانا يتسلط الشيطان أو يسيطر ألباعه على النائم ليفزع ويرعبه ويخيفه ويحول اليه الأمر ويلقى الحزن والغم والحلم في قلبه لينخيفه وقد ورد في ذلك قوله تعالى :

« إنما للإنجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله »
(المجادلة : ١٠)

« فقاتلوا أولياء الشيطان إن مكيد الشيطان كان ضعيفا »
(النساء : ٧٦)

٤. — أفعال السحرة :

يقوم بعض السحرة من الإلّس أو الذين يعوذون بالجن في بعض أعمال السحر والممارسات النفسية ، لاستجلاب منافع .. أو موافقة بعض الرغبات الضالة المنحرفة .. ويستعين السحرة ببعض الرموز والعلامم والأدعية والتعاويذ والأوقاف لتنفيذ مآربهم ، ويدخلونها أحيانا في روع النائم .. وقد ورد ذلك في قوله تعالى :

« وإنه كان رجال من الإلّس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقا »
(الجن : ٦)

« فإذا جبالهم وعصيم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى »
(طه : ٦٦)

« يتلون النامس السحر »
(البقرة : ١٠)

« أسحر هذا ولا يفلح الساحرون »
(يونس : ٧٧)

« وقال الظالمون إن تبتغون إلا رجلا مسحورا »
(الفرقان : ٨)

٥ - غلبة الطباع :

.. للإنسان طبائع أربعة .. السوداء .. والصفراء .. والبغيم .. والدم (١) ،
وعندما تتكدر هذه الطبائع ويختلف بعضها مع بعض ، ويغلب أحدها على
الآخرى فإن النائم في هذا الحال يرى بحسب الطبيعة الغالبة عليه .. فإذا كان
غاضبا .. كان حلمه عدوانا أو انتقاما أو كيدا .. وإذا كان عاتقا كان كدوا وغما
أو حائقا فيكون حلمه حسدا وحقدا .. وإن كان راغبا في شهوة محرمة كان فحشا
وفجرا وفسقا .. ولذلك تعد هذه الرؤى من الأباطيل التي لا تفسر لها ..

يقول علي - كرم الله وجهه - : لا رؤيا للنساء إلا ما يهب ، .. ومعنى
ذلك أن إفزع النائم أو مخوفه لا يعد من الرؤيا ، أما إذا كان ما يراه للنائم
فرجا لذة ، وتقريحا عن كربته ، كانت من الرؤيا الحققة لأنها تبشر له بذهاب
الحزن والخوف ..

٦ - الذكريات القديمة :

.. يقول بعض الأئمة أن الذكريات القديمة جدا ويسمونها بالرجيع ، والتي
يرى صاحبها نفسه فيها في زمن مضى منذ عشرين عاما منها من الأصغاث
والأباطيل ... كأن يرى النائم نفسه في المناسم صبيبا صغيرا ، رغم أنه شيخ في
التحسين من عمره ..

٧ - الحلم الشيطاني :

أحيانا يتعرض الشيطان للإنسان بوسوخته لصرفه عما أمره الله ، كأن يفتنه ،
أو يحسن له أفعال الشر في النوم فيوسوس له ، برفع التكليف ، ويفويه بالانطواء

في رمضان ، أو الرّيا .. أو غير ذلك من الفواحيش ، ولا يعد ذلك من الرّيا ،
لأنه أمر منكر ونهى عن المعروف ..

« ان الشيطان يذغ بينهم » (الاسراء : ٥٣)

« وأما يذغك من الشيطان فاستعذ بالله » (فصاحت : ٣٦)

أما الرّيا الحق فهي على خمسة أقسام :

١ - الرّيا الصادقة :

وهي الرّيا الظاهرة الصّديق ، وهي جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة
وهي واردة في قوله تعالى :

« لقد صدق الله رسوله الرّيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء
الله آمنين » (الفتح : ٢٧)

فالرّيا الصادقة بهذا المعنى هي من الله مباشرة بدون واسطة ...
كما أنها لا تحتاج إلى تعبير ولا معبر أو مفسر ، والرّيا الصادقة نجدناها أيضا في
قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - في قوله تعالى على لسانه :

« يا بني اني أرى في المنام اني أذبحك » (الصافات : ١٠٢)

وفي قوله تعالى :

« ولأديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرّيا » (الصافات : ١٠٥)

ورّيا يوسف - عليه السلام - في قوله تعالى :

« يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين »

(يوسف : ٤)

روى محمد بن وزير هذه الرؤيا :

« رأيت النبي ﷺ في المنام فأنوت منه وقلت : السلام عليك يا رسول الله ، فقال لي : وعليك السلام يا محمد بن وزير .. ألك حاجة ؟ قلت : نعم يا رسول الله . دعوات أدعو بها في سفرى ، وفي حضرى ، وأستعين بها على أمورى ، فقال لي : أقعد .. هنا عليك ثلاث دعوات ، فادع بها في كل وقت شدة ، وفي دبر كل صلاة .. قل :

« يا قديم الاحسان ،

« ويا من احسانه فوق كل احسان ،

« ويا مالك الدنيا والآخرة ،

ثم التفت فقال : اجتهد أن تموت على الاسلام والسنة ، وعمل حب هؤلاء... أبو بكر .. وهذا عمر .. وهذا عثمان .. وهذا علي .. فانه لا تمسك النار (١) .

٢ - الرؤيا الصالحة :

وهي بشرى من الله إلى العبد ليحيى في بركة وسرور ويثبت بها الله سبحانه وتعالى قلبه ، وقد سأل أبو ذر الغفارى الرسول ﷺ عن المباشرة فقال :

« هي رؤى يراها المؤمن ، فتشقق له » .

وقد بينها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز في قوله :

« فلما أن جاء البشير لقاء على وجهه » (يوسف : ٩٦)

« فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى » (هود : ٧٤)

وقوله تعالى :

(١) عن المايوتى وذكره المحب الطهرى في الرياض النضرة ص : ٣ ، الجزء الأول

« لم البشري في الحياة والآخرة ، (يونس : ٦٤)

ومن المبشرات ما هي تحذير من الوقوع في الذنوب ، والتنبية على الغفلات
والإحذر من المخالفات ، فهي بمثابة النذار من الله تعالى للعبد ، وعون له في تجنب
الخطيئة ، والبعد عن الهوى ، وهي تعد بهذا المعنى طريقا للصحة النفسية في الدنيا
والآخرة ، وقد وردت في قوله تعالى :

« وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، (الكهف : ٥٦)

والمرسلون إما أن يكونوا الأنبياء أو ملائكة كلك الرؤيا الذي يبشرونه .
روى عن أبي حذيفة (١) قال طلبت النبي ﷺ فوجدته في حائط من حوائط
المدينة ، قائما تحت شجرة ، فكرهت أن أوقفه فوجدت صبيبا (أى جريدا -
وهو سنف النخل) فكسرتة فاستيقظ النبي ﷺ فقال لي : أبشر بالجنة ، فجاء
أبو بكر فاستأذن من وراء الحائط فرد السلام وبشره بالجنة ، ثم جاء عمر ففعل
مثل ذلك وبشره بالجنة ، ثم جاء عثمان ففعل مثل ذلك وبشره بالجنة ، ثم جاء
علي ففعل مثل ذلك (٢) .

وقد ورد عن الرسول ﷺ هذا المعنى إذ قال : « ألا أبلغكم برجالكم من أهل
الجنة ، قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : النبي في الجنة ، والشهيد في الجنة ، والذي
يزور أعاءة في الجنة (٣) .

وقد ثبتت الصديقية لأبي بكر والشهادة الثلاثة .

(١) هو حذيفة بن اليمان . أحد المهاجرين بالجنة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه خزيمة بن سليمان وذكره الطبري في الرضا النصره ص : ٤٥ .

(٣) أخرجه أبو بكر الاسماعيلي في مسجده .

كما روى عن عائشة بنت سعد ابن أبي وقاص أنها قالت : سمعت أبي يقول :
 رأيت أبي في المنام قبل أن أسلم بثلاثة أيام ، كائن في ظلة لا أبصر شيئاً ، ثم
 أضاء لي قرقيبته ، كائن أنظر إلى ما سبقتني إلى ذلك القمر ، فانظر إلى زيد بن
 جارية وإلى علي بن أبي طالب وإلى أبي بكر .. وكأني أسألهم : متى انتهيت إلى
 ما هنا ثم بلغني أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو إلى الإسلام في الخفاء ..
 فلقبته بعد صلاة العصر فسأله : إلى من تدعو ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله
 وأن محمداً رسول الله ؟ .. قلت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ..
 ولقد تحققت هذه الرؤيا مباشرة فلم يسبق سعد إلى الإسلام إلا من رآه
 في منامه . (١)

كما روى ابن عباس أنه رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - في المنام على برزخ
 وعلى رأسه عمامة من نور ، ويديه مضميتان من الفرووس ، فقلت يا رسول الله :
 إن في شوق إلى رؤياك ، وأراك مغادراً ، فالتفت إلي وتبسم ثم قال : إن عثمان
 ابن عفان أضاع عندنا في الجنة ملكاً عروساً وقد دعيانا إلى وليمته . وها أنا
 مبادر إليه . (٢)

كما روى ابن عمر قال : خرج علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات
 غداة بعد طلوع الشمس فقال : رأيت قبل الفجر كائن أعطيت المقاليد والموازين
 فأما المقاليد فهي المفاتيح وأما الموازين فهذه التي يوزن بها ، فوضعت في كفة
 ووضعت أمتي في كفة فوزنت بهم فرجعت ، ثم جئهم بأبي بكر فوزن بهم فرجع
 ثم جئهم بعمر فوزن بهم فرجع ، ثم جئهم بعثمان فوزن بهم فرجع ، ثم

(١) الرضا النضر - ص ١٧٦

(٢) عن ابن عباس من حديث الملا ، وذكره الطبري في الرضا النضر ص ١٧٦

قلت... (١) .

ويعلق المحب الطبري على هذه الرؤيا التي لا تحتاج إلى تعبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم - قد رجعت كفته على الأمة ، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم رفع الميزان وهذا إشارة إلى الاختلاف بين المسلمين الذي حدث ..

كما زوى عن أبي برده أنه رأى في المنام كأن ناساً جمعوا ، فإذا فيهم رجل يملو فرأهم بثلاثة أذرع ، فقلت : من هذا ؟ قالوا عمر ، قلت ولم ؟ قالوا : لأنه فيه ثلاث خصال :

١ - لا يخاف في الله لومة لائم ...

٢ - وخليفة مستخلف ...

٣ - وشييد مستشهد ...

وقد قصصت هذه الرؤيا على أبي بكر الصديق ، فدعى عمر بن الخطاب وبشره ثم قال أبو بكر - رضي الله عنه - أقصص رؤياك ، فأحدثها إلى أن بلغت خليفة مستخلف ، فنهزني عمر وقال : تقول هذا وأبو بكر حي ...

ولما ولي عمر الخلافة فبينما هو على المنبر دعاني وقال : أقصص رؤياك ، فقصصتها فلما بلغت ... دلومة لائم ، قال عمر : إن لا رجوا أن يجعلني الله منهم ، فلما قلت : خليفة مستخلف ، قال : قد استخلفني الله ... وأسأله أن يعينني على ما أولاني ، فلما ذكر شييد مستشهد ، قال أني بالشهادة وأما بين أظهركم ، تفرون ولا أغروهم قال : بلى . يأت الله بها إن شاء الله ، يأتى بها إن شاء الله (٢)

(١) ذكره أحمد في مسنده والقزويني الحاكم في الأثرين والطبري في الرياض النضرة

ص : ٥٣ ج ١

(٢) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة ج ١ ص ٢٧٥ - ٢٧٦

٣ - الرؤيا بطريق ملك الرؤيا :

وهي الرؤيا التي يراها الانسان عن طريق ملك الرؤيا ويسميه الامام بن سيرين (١) (روحانيات) ، ويسميه الشيخ الامام النابلسي (٢) (صديقون) ، وهذا الملك هو الذي جعله الله يضرب الامثال بالرؤيا ، كما هو مودع في علم الغيب ، ومسطور في اللوح المحفوظ ، وبما هو كائن من خير أو شر وهذا الملك يعرفه الله سبحانه وتعالى بكل شيء ، وبدوره يعرف الانسان ويبشره وينذره ويعلمه ، وهذا الملك اما أن يبشر برؤية حسنة ، وتأتي للرأي فتتحقق في الواقع بعد أيام ليكون الرأي في نعمة وسرور ، أو يبشر برؤية منكرة ، وهي التي تتحقق مباشرة بعد الرؤيا اكي لا يبشر الرأي مخدوما ..

روى أن الرسول ﷺ كان كارها موافقة النصارى أن يضرب بالناقوس في وقت الأذان ، فرأى عبد الله بن زيد هذه الرؤيا ، فقال : رأيت أنه قد طاف بي في الليل رجل وعليه ثوبان أخضران وفي يده ناقوس ، فقلت له : أتبيع الناقوس ؟ .. فقال : وماذا تصنع به ؟ .. قلت : أدعوه إلى الصلاة ، قال : الا أدلك على خير من ذلك ، فقلت : بلى ، قال : تقول الله أكبر .. الله أكبر .. إلى آخر ، الأذان ثم تقول إذا قلت إلى الصلاة الله أكبر .. الله أكبر ، وسرد الإقامة إلى آخرها ، فلما أصبح عبد الله بن زيد أخبر الرسول ﷺ بما رآه ، فقال ﷺ أن هذه الرؤيا حق ان شاء الله ، فقم مع بلال ودعه يؤذن بما رأيت ، فانه أهدى منك صوتا ...

ثم أذن بلال في المسلمين فسمعه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فخرج

(١) ابن سيرين ، منتخب الكلام في تفسير الأحلام ص ٣ - ٧

(٢) النابلسي - تفسير الأهمام في تفسير المنام ص ١ - ٥

من بيته قائلا . والذي بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذي رأى (بتعدد ابن زيد) فقال - صلى الله عليه وسلم - : قلله الحمد (١) ...

كما روى أن سعد ابن أبي وقاص قال : رأيت عن يمين النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يتاتلان منه كأشد القتال ، وما رأيتها قبل ولا بعد . (يعني جبريل وميكائيل) . (٢)

كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : رأيت كأنى فى غم سود ، ردفها (أى تبعها) ، غم بيض ، فلم أستبين السود من البيض ، قال أبو بكر : يا رسول الله هذه العرب ولدت فيها ثم تدخل الهجم فلا تستبين العرب من كثرتهم قال : كذلك عبرها الملك . (٣) (ملك الرؤيا) .

١ - الرؤيا الرمزية :

وهي من الروح وتحتاج إلى مفسر أو مفسر يبين معانيها ويشرح مدلولها ، وهناك شروط سند كرها فيما بعده ، يجب أن تتوفر فى المفسر الذى يفسر الرؤيا الرمزية ، ويمثل النابلسى للرؤيا الرمزية بالرجل الذى رأى ملكا من الملائكة فقال له : إن امرأتك تريد أن تسقيلك السم ، فحدث أن صديقاً له ذمها بزوجته ، وكانت رؤياه تعبير صادق عما حدث ، إذ أن السم مسطور ، كما أن الوفا مسطور ...

عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله إنى رأيت فى المنام سحابة تسقط منها سلا وسنما ، والناس يمدون أكفهم منهم

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وابن اسحاق

(٢) أخرجه أبو حاتم والحب الطبرى

(٣) أخرجه سعيد بن منصور فى سننه والحاكم ابن عبيد الله بن الريم واللفظ له

المقل ومنهم المستكثر في الطلب ، ثم رأيت سيبا (جبلا) واصلنا من السماء إلى الأرض ، فأمسكت به وعلوته ، وأمسك به بعدى آخر وعلاه ثم جاء ثالث وعلاه أيضا ، وإذا بشخص رابع يمسك بالحبل فينقطع ، ثم أوصل الحبل فاعتلاه فملا (ارتفع به) ، وكان يحضر مجلس الرسول ﷺ أبو بكر رضي الله عنه فقال : اتركني أعبر هذه الرقيا يا رسول الله قال : هجرها ، فقال أبو بكر : أما الغلة . . فالاهلام ، وأما السمن والعسل فهو القرآن وحلاوته ، أما من يمدون أكفهم . . منهم المقل ومنهم المكثر في الأخذ من القرآن ، وأما الحبل فهو الحق الذي أبت عليه . . أخذت به فملوت وأخذ به آخر فعلا ، ثم أخذ به آخر فعلا ، ثم أخذ به آخر فأنقطع ثم وصل له فعلا . .

كما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : رأيت كأن أعطيت قدسا كبيرا بماء لبنا ، فشربت منه حتى امتلأت ، فرأيتها تهرى في عروقي بين الجلد والمظم ففضلت منها فضة فأعطيتها أبا بكر ، قالوا : يا رسول الله هذا علم أعطاه الله لك حتى إذا امتلأت منه فضلت فضة فأعطيتها أبا بكر ، قال : قد أصبتم (١) .

• — الرقيا بالشهود :

وهي الرقيا التي تجعل من الخير شرا ، ومن الشر خيرا ، وهي التي تصح للصبي والمؤمن والكافر ، كرقيا يوسف - عليه السلام - وهو صبي لم يتجسس - اوز السابعة ورقيا فرعون مصر وهو كافر في قصة سيدنا يوسف - عليه السلام - ومثال الرقيا بالمساهد كمن رأى أنه يقرأ القرآن في الحمام ، أو أنه يرتص ، فانه يشتمر في أمر فاحش ، أو في معصية ، لأن الحمام مكان لا تدخله الملائكة ، وهذا التباس الخلد بالشر . .

(١) عن ابن عمر ، وأخرجه ابن حاتم . .

روى سيدنا علي - رضي الله عنه - لابنه الحسن في اليوم الذي نزل فيه :
 « يا بني رأيت النبي ﷺ فقلت له يا رسول الله ما أتيت من أمثلة من السلاواة
 والدود (أي الشدة والخصومة) فقال : ادع الله عليهم ، فقلت : اللهم أبدلني
 بهم خيرا منهم ، وأبدلهم بي من هو شر مني ، ثم أتته وخرج للصلاة فقتله
 ابن ماجه (١) ..

وقد وردت أحاديث بوية كثيرة فيها يختص بالرقيا عن الرسول - صلى الله
 عليه وسلم - منها :

- ١ - « من لم يؤمن بالرقيا الصالحة لم يؤمن بالله » .
- ٢ - « لم يبق من النبوة الا المبشرات يراها المؤمن أو ترى له » .
- ٣ - « أصدقكم حديثا ، أصدقكم رقيا » .
- ٤ - « إذا اقترب الزمان لم تسكذب رقا المؤمن ولا ينجى لأحد أن
 يكذب في رقاها » .
- ٥ - « ان من حلم بحلم لم يره ، كلف أن يعقد بين شترتين ولم يفعل ،
 (مثل من يصلي ولم يصم أو يضوم ولم يصل) ..

يفصل علم النفس الاسلامي بين الرقى والاحلام ، وهذا هو الخلاف الاساسي
 بين النظرة الاسلامية ، ونظرة علماء النفس الحديث الذين يخلطون بين الرقى
 والاحلام ، ويرون أن كل حلم له معنى حتى وإن كان غير معقول . إذا أنهم
 يعتبرون أن كل حلم عبارة عن حل اصراع لا شعوري يبدو في صورة ومزية ،
 ويمثلون لذلك بالاب القاسي المعتدى ، فانه يرمز اليه في الحلم بالثعبان أو بصيوان

(١) أخرجه أبو عمر والقلبي عن الحسن البصري وذكره المحب الطاهري في الرياض النضرة

حمار ، كما أن الأب بوجه طم يظهر في الحلم في صورة رجل شرطة أو ملك أو
أى شخص صاحب سلطة ، كما يرمز للآم بالأرض أو الملكة ، وللأطفال بالديدان
والحيوانات الصغيرة ، وللوقت بالرحيل والفراق ، أو الوصول للمرحلة النهائية ،
وأما صعود السلم أو نزوله فهو تعبير عن الأفصال الجنسية ، والأشياء المستطيلة
والمديبة ، وحرف ٢ هى رمز للأعضاء التناسلية ..

ويرى بعض علماء النفس (١) ، أن ظهور الأحلام فى صورة رمزية ، إنما
هى حماية للنائم ومحاولة له على النوم ، وذلك أن الرغبات المحظورة والمكبوتة لو
ظهرت سافرة صريحة لأزعجت النائم وأيقظته ، لذلك ترى فى حال النوم فى
أشكال ملتوية رمزية ..

وينتهى هؤلاء العلماء إلى القول بأن المرض النفسى حلم طويل ، وأن الحلم
ما هو إلا مرض نفسى قصير الأمد ، ثم يختصون إلى أن عملية تفسير الأحلام
مثلها كمثل تحليل الأمراض المرضية تحتاج إلى حل لهذه الطلائع والرموز ..

ولكى نفهم ما يرى إليه فرويد ، يجب اعتبار أن الحلم مرض نفسى قصير الأمد ،
ولذلك فإن علينا أن نشير إلى بعض تعريفات فرويد للأحلام .. فهو يرى فى
أكثر تعريفاته للأحلام إيجازاً أن الحلم هو قناع يحقق رغبة مكبوتة .

وتعريف الحلم بهذا المعنى يجب أن يشتمل على المظهر الكلى للأحلام المستتر
منها وغير المستتر ، أى الذى يتعلق بالأعمال ، وكذلك الحلم الجلى الواضح وهو
يرأى جميعاً مركبات لمكونات من أجزاء متعددة .

ويعتبر فرويد أن الحلم الذى يتعلق بالأعمال والأشياء ، هو أكثر أجزاء

الحلم جوهرياً ، ذلك أنه من خلال فهم الشروط والقواعد يمكن معرفة مضمون الحلم السكامن أو المستتر الذي تكمن فيه على حد قوله ، الحقيقة والرغبة المقننة أو المتكبرة ...

وبخلاصة ما يهدف إليه فرويد بنظرية الأحلام ، أن الأحلام هي تحققات وهي تخدم وتحافظ على النوم ، وذلك في سبيل تحقق الرغبات المكبوتة ، وقد قبل كثير من علماء النفس هذه الفكرة القائلة بأن الحلم هو رغبة ثابتة تريد أن تتحقق لأنهم تصوروا أن الأحلام هي نتاج للدماغ اللاشعوري الذي لا يعرف للنشاط غاية غير تحقيق الرغبات المكبوتة والدوافع المرغوب فيها ...

ولهذا السبب يقول فرويد أن تعبير الأحلام إنما هو الطريق الملكي لمعرفة النشاط اللاشعوري في العقل الإنساني ...

ويضرب فرويد مثلاً بالحلم الغير معقول والذي يرى أن له تفسيراً فيقول (١) :
إذا حلم أحد أن هناك منزلاً وعلى سطحه باخرة ، ورأى حرفاً من الحروف الأيبجدية ، ثم رأى شخصاً يجرى مزروع الرأس ...

فيقول : إذا أردنا أن نوفق في تعبير هذا الحلم - الذي هو لغز - يجب أن نستعمل الانتقادات الموجهة إليه ، وبذلك يمكن أن نركب من هذنا صورة شعرية رائعة لهذا الحلم ، فالحلم هو لغز مصور من هذا القبيل ، ويستطرد قائلاً :

إن أفكار الحلم السكامنة قد ظهرت لنا في هذه الصورة كمنى ومزى ولا يمكن ترجمة هذا الرمز إلا بتطبيقات قاعدة التداخل المطابق ، وذلك بتحديد العناصر التي

(١) فرويد - تفسير الأحلام ص ١٢٩ - ٢٩٢ ترجمة الأستاذ مصطفى صادق

يوصى إليها الحلم أو يدل عليها دلالة ملتحية ، فلي حصلنا على هذه العناصر ، تمكننا من فهم الحلم وعرفنا مقصده على وجه الدقة .

أما إذا وضعنا هذا الحلم حسب النظرية الإسلامية في تعبير الروى ، فإننا نجد أن هذا الجسم يضاف إلى الشيطان ، ولا معنى له ولا تفسير تصديقاً للحديث النبوى :

« إن الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان » .

ونحن نرى أن هذه الصورة التى يتمثل بها فرويد هي نوع من الحلم المفرع والمرعب الذى يحمل الحديعة والخوف ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا من الشيطان ، ومن ناحية أخرى فإن إمكان تفسير الأحلام عن طريق التداعى الحر إنما هو تفسير لأمان النفس وعافوها ، ولا يصلح دليلاً على الصدق والحق .

كما أن من شروط المفسر أو المعبر أن يكون عالماً بكتاب الله ، فطناً ، ذكياً ، نقياً ، فلا يصلح أن يفسر الرؤيا إذ من يسقط نظراته على الغير ، ويتدخل بفكره الذاتى فى تأويل الرؤيا والاجتهاد الفردى فيها بلا سند مؤيد أو أصول من القرآن والسنة . . .

أما النظرة الإسلامية فى تأويل الرؤيا تعتمد أساساً على كتاب الله وسنة رسوله . . .

والملاحظة الثانية التى نراها جديدة بالاهتمام أن فرويد وتلامذته يفسرون الأحلام من منطلق غريزى لا يعقدون عنه أبداً ، وهو ارتباط الأحلام بالميوكة الكامنة والدوافع والغرائز الخفية والانفعالات والرغبات المكبوتة والإحساسات السابقة ، وينتهون إلى تعريف الأحلام بأنها تعبير عن العقل الباطن أو اللاشعور

أى أن الحلم هو أروع من المكبوتات تظهر وجودها في الحلم كغلبة لم تشبع بعد ،
فهي نوع من الإرضاء الخيالي للرأى (١) .

ويجتهد بعض علماء النفس ، فيرون أن الأحلام يرجع في تفسيرها إلى المخاوف
التي يعاني منها الرأى وحدها ، بل يدعون أنها ربما تنجم عن عارلة حل المشاكل
اليومية .. وهذا بخلاف النظرة الإسلامية إذ أن ربط الرؤيا بما يرغب أو يود
الشخص تحقيقه هو نوع من الإختلالات (٢) ..

ولقد عرضنا لرأى أصحاب مدرسة التحليل النفسى لنبين إلى أى حد يختلف
المحللون النفسيون بعضهم مع بعض فيما يتعلق بالأحلام ، وليس هنا رأياً واحداً
يتفقون عليه لتفسير عن الأحلام وتفسيرها ..

وكما سبق القول ، فليس هناك في الواقع تفسيراً لحديث النفس ولا مخاوف
الشیطان ، كما اتفق الأئمة على أنها من الأباطيل ، وأنها من عمل الشيطان
أو بما تراه الطبائع إذا اختلفت وتكدورت ، وجميعها تسمى بالآضغات لاختلاطها
بعضها ببعض ، مثل الحزنة التي يختلط حابلها بنابلها ..

أما فيما يتعلق بالأمثارات فهي رؤى صادقة أو صالحة من الله مباشرة يثبت
بها الله قلب الرأى ليحييها في نعمة وسرور ، وهي من أسباب الصحة النفسية لأنها
تعلم وتهدى وتعرف وتنذر فتبين الطريق إلى الحق وتجنب طريق الباطل ..
ولقد كانت السيدة عائشة - رضى الله عنها - إذا أخذت مضجعتها قالت :

(١) أرامت جونز - التحليل النفسى ص ٥٣-٥٧ ترجمة د.م. الشلهبي .

(٢) تفسير الأحلام ص ٣-٢٠

« اللهم اني اسألك رؤيا صادقة .. صادقة غير كاذبة .. نافعة غير ضارة ..
وحافظة غير ناسية » (١) .

وهذا معناه أن الرؤيا على دربين ، حق .. وباطل ، والباطل هي الكاذبة ..
والضارة .. والمنسوخة .. والتي ينسأها أو ينسى بعضها الرائي عند يقظته .

فهنالك إذن رؤيا مضافة لله — سبحانه وتعالى — ورؤيا مضافة إلى الشيطان
والنفس ، كما أن هنالك رؤيا صادقة لا تحتاج إلى تفسير ، ورؤيا رمزية مضمرة
تودع فيها الحكمة والإنباء وتحتاج إلى معبر عالم ليفسرها بالقرآن والسنة ،
أما الأحلام التي لا حكمة فيها سواء كانت أمانى أو مخاوف ، فإنها تعود إلى
رأيتها ولا معنى لها .

ويختلف علماء النفس الحديث في تفسير الأحلام اختلافاً بيناً ، فيرى بعضهم
أن الحلم هو تحقيق لرغبة لم يستطع صاحبها أن يحققها في اليقظة ، ويخالفهم نفر
آخر في هذا الرأي ، ويفسرون الحلم على اعتبار أنه إنذار لصاحبه عن الجريمة
التي ارتكبها من قبل ... (٢)

ويرى البعض الآخر أن الحلم هو إعداد لحل للمشكلات التي تواجه الإنسان
أو أنه خداج المرء لنفسه (٣) .

أما ديونج ، تلميذ فرويد ، فيدعم أن الحلم هو تعويض عن الحياة اللاشعورية
في مقابل الحياة الشعورية التي يحياها الإنسان ، بهذا المعنى يكون الحلم ليس

(١) النابلسي — تعليق الأنعام في تفسير المنام ص ١ — ٨ .

(٢) د. أحمد فوزاد الأهواني — النوم والأرق ص ٩٧ — ١٠٠ .

تعبيراً عن الرغبات الجنسية اللاشعورية لحسب بل ويهتمل على القيم الأخلاقية
الشعورية أيضاً .. فالعلم يمثل عندهم عذاب الضمير ، أو العقاب ، لذلك فإنه ينتهي
إلى أن الأحلام لهذا السبب لا تفرع وترعب الإنسان وتخيفه .

وبعضيف يورج أن رؤية الحيوانات الكاسرة في الأحلام إنما تمثل ذكرى
الحياة التي كان يعيشها الإنسان في الغاية ، أو بمعنى آخر للحياة البدائية .

والواقع أن هناك تخطيط في آراء أصحاب التحليل النفسي - بل وحيرة .. ذلك
لأنهم خلطوا بين الرؤيا والحلم ، ولم يذهبوا إلى أن لكل منها بواعث مختلفة
لجاءت تفسيراتهم غير منسجمة مع بعض ، بل غير مقبولة منطقياً أو واقعياً ..

أما علماء النفس الإسلامى فهم يأخذون من الله تعالى ويقيسون الرؤى بما
ورد عنها في كتابه العزيز من آيات ، لذلك فإن فهمهم للرؤى فهم واضح جلي
لا خلط فيه ولا التباس ، فإذا كانت الرؤيا تدل على الفواحش والقبح فلا تقص
ولا تعبر ولا تروى ، ويرون أن النفس إذا تجردت عن الشواغل والانغماس
في الشهوات الحسية فإن الله يضرب بالرؤيا أمثلة يراها العبد حسب استعداده ،
وذلك عن طريق ملك الرؤيا فيتحقق في الواقع ما يراه النائم ، كما يرى بعض
أصحاب التحليل النفسي ، وتمنعه من النوم ولا تعينه على الاستمرار فيه ، وإنما كما
يقول سيدنا علي - كرم الله وجهه - عن الرسول ﷺ :

« ما من عبد ينام يمتلئ اوماً إلا عرج بروحه إلى العرش » (١) .

هذا يدل على أن من لا ينام اوماً عتاتاً ، أى الذى يفرج عند النوم ، فإن
رؤياه كاذبة ، أو حله لا يتحقق في الواقع ، وليس له من تأويل أو تفسير ..

(١) الإمام أبو حامد الغزالي - أحاديث علوم الدين ج ١ ص ٢٩٤ وما بعدها

ويقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حنة

« عجيبت لرؤيا الرجل ، يرى الشيء ما يخطر له على بالك فيكون أخذاً به ،
ويرى الشيء فلا يكون شيئاً » . (١)

وهذا يعني أن بعض الناس يرون أشياء تتحقق لهم رغم أنها لم تخطر على
بالهم أثناء اليقظة ، وفي الحياة اليومية ، ولم تكن رغبات مكبوتة أو دوافع
مخبوءة - كما يدعى أصحاب التحليل النفسي - ومن ناحية أخرى ، فإن هناك
بعض الناس يرون في حالة النوم أشياء لا تتحقق ولا يحدث لها في الحياة
اليومية أثراً...

الرؤيا والصحة النفسية :

يرى بعض الأئمة أن الرؤيا هي باب للتائبين والصالحين والراغبين ، وأن
أسباب التوبة ترجع أحياناً إلى إلهار في شكل رؤيا أو بشرى من الله أو من
ملك الرؤيا ، فينصلح حال الرائي ويدخل في طريق الله .

وفي الرؤيا غير الحلم ، يبرز دور القلب .. لأنه هو الذي ترد عليه أنوار
الكشف فينعكس ذلك في ساحة الصدر لتراه عين القواد لا عين العقل ، فيتم
إدراك الرؤيا بنفسه (٢) .

فالإنسان في النوم تخرج نفسه عندما تكون خالية من إشغال البدن منصرفاً
عن دواعي الشهوات ، فيسهل لها أن كانت على طهارة أن تسجد تحت العرش ،

(١) الإمام ابن القيم الجوزي - الروح ص ٢٩-٣٣

(٢) المرجع السابق .

فإذا طادت فطنت ما شاهدت من رؤى شريفة (١) .

ويبين لنا بعض الأئمة أن النفس الإنسانية إذا انصرفت عن شهواتها ، تنبأ لها استقبال الرؤى الصادقة ، أما إذا كانت سائرة في غواية الشيطان ، فإنها تصادف الشيطان فيلقى في روعها ما يفرحها ويخيفها .

فالمبشرات إذن هي رؤى صادقة وهي ثمرة الرياضات والمجاهدات الروحية فهي بمثابة مكافأة من الله ، إذ أنها دوجه من درجات الكشف ، ولذلك فالصوفية يرون أن وحى المؤمن منامه .

والرؤيا الكاذبة هي أحلام ليس فيها علاقة بين الصور الخيالية الجزئية وبين المعاني الكلية ، لذلك فهي تعبير في غير محله ، لا تؤدي إلى عالم ولا تتحقق في الواقع القريب أو البعيد .

إذن . . . فرؤيا المؤمن هي كلام الحق تعالى لعبده ، ولذلك يرى كثير من الأئمة أنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، أما الكلام على القلوب في اليقظة أو الذي يسمى عند علماء النفس بأحلام اليقظة... فهو أكثر من ثلث النبوة (١) .

وتصدق الرؤيا عند ما توافق أحكام الشرع ، وعندما ترد في آخر الليل ، أو أول النهار ويحكم على صدقها عند ما تكون لحسكة أو لسبب شرعي .

ولقد أجمع الصوفية على أن الله لا يرى في الدنيا بالابصار ولا بالقلوب إلا من جهة الإيقان ، لأن ذلك يعتبر غاية النعيم ، ولو أعطوا في الدنيا أفضل النعم ما كان فرق بين الدنيا الفانية والآخرة الباقية .

(١) الإمام ابن سيرين - منتخب الكلام في تفسير الأحلام ص ٣ - ٨

والدنيا هي دار فناء ، ولا يجرؤ أن يرى الباقي في الدار الغائية ، فلو رأوا الله - سبحانه وتعالى - في الدنيا لكان الإيمان به ضرورة . . .

فالرؤيا إذن بهذا المعنى تختلف عن الحلم ، لأنها لا تتعلق بإحساسات أو ميول أو حوادث سابقة أو مصاحبة ، وإنما تتعلق في حقيقة الأمر بحركات لاشعة وأحداث متحققة ، وهذا بخلاف ما تذهب إليه مدرسة التحليل النفسي بما يتعلق بالأحلام من أنها تعبير عن رغبات مكبوتة أو إلهار لأحداث وقعت للنائم أو عقاب له على أفعال أو تكبها ، أو تعليق على الأحداث اليومية الجارية . وعلى هذا فالرؤيا طريق إلى الصحة النفسية ، فهي بشرى للؤمن ليقوى قلبه كما أنها ثمرة من ثمرات توكله وجهاداته ، وإذاً لما يمكن أن يقهر فيه عليه ، أو يبعده عن الحق والاستقامة والصدق ، فهي بهذا المعنى تعريف بطريق الإنسان للوصول إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

الحلم والاحتلام:

أما الاحتلام . فإنه صوره من صور الأحلام ، تعبر عن أمانى النفس الحسية ويرى الإمام الشيرازي (١) ، أن المرید يؤخذ في الاحتلام ، إذ أنه أمانة من أمانى النفس تظهر عند النوم - ليكون أن الاحتلام لا يقع المرید إلا بعد استمتاع بصره بالنظر والتفكير فيما لا يحل له ، فتشتغل النفس بالأمانى في تحقيق ما يلها ، ولا تهد ذلك إلا في حال النوم فيقع الاحتلام . .

وينظر الصوفية إلى الاحتلام نظرة المرتاب ، إذ أن إبليس يحاول أن يغوى العبد في يقظته بالدعوات ، فإذا حيل بينه وبين تحقيق غوايته ، أتى عند النوم

(١) الإمام الشيرازي - الأخلاق النبوية ص ١٧٧ تحقيق د. منيع عبد الحليم محمود .

منشدها أن يشغل خاطر الإنسان بالتفكير في الشهوات ، ليتمكن من التغلب
منه ويمنعه عن الصلاة والذكر إلى أن يتطهر من الجنابة ، بل ربما يمنعه الحية
إذا ما احتلم بعد العشاء وهو نائم ..

ويؤيد الامام الشعرا في رأيه فيما يتعلق بالاحتلام فيقول : « وكذلك لم يبلغنا
أن أحد الأنبياء احتلم ، وكذلك من حفظه الله من الأولياء ، وذلك لعصمة
الأنبياء وحفظ الأولياء من أن يلعب بهم الشيطان في لحظة أو منام ، إلا أن
الشيطان يلعب بالسالك المبتدئ في النوم ، وهذا أخف من لعبه بهم في اليقظة ،
فيذنب لهم شكر الله على ذلك .. »

ويوضح أسباب ذلك فيقول : « وإذا قدر أنه وقع لأحد الأولياء احتلام ،
فإنما يكون ذلك في حليته ، وليس فيمن لا يحل له ويرجع ذلك إلى ما يتجلى
في قلوب الأولياء من عظيمة الله ، والشغاف به تعالى ، فيزدنون عن تدبير
أبدانهم ، وقد وقع أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - احتلم مرة في حلية
له ، فغسل وقال : لقد ابتلينا بهذا الأمر منذ ولينا أمر المسلمين واشتغلنا
بمصالحهم ، ومعنى ذلك أنه لا يشغله بأمور الرعية عن جماع أهله ،
حدث الاحتلام .. »

وذكر الأستاذ علي الخواص - رضي الله عنه - (١) أن الشيخ إبراهيم المثبولى
لم يحتلم قط إلى أن مات بعد مائة وسبع سنين ، وكان يقول : « من زعم أنه تاب
عن الزنا ثم احتلم بعد ذلك فيما لا يحل له ، فهو لم يتب توبة نصوح ، إذ من
شروط التوبة النصوح أن لا يصير للسان حلاوة تلك المعصية التي تاب عنها ،

(١) الإمام الشعراي - الأخلاق المثبولى ص ١٧٧ تحقيق د. منيع عبد الحليم محمود .

فلاحتلام دليل على بقاء حلاوة تلك المصيبة في قلبه ، فلولا وجود تلك الحلاوة في قلبه لما تفكر في هذا الأمر ولا احتلم ..

تعبير الرؤيا :

يرى الامام ابن سيرين (١) .. أنه لا بد للمعبر لرؤيا أن يكون حاصلًا على ثلاثة أنواع من العلوم هي :

١ - حفظ الأصول :

على المعبر أن يكون حافظًا للأصول الشرعية ، عارفًا بالقرآن الكريم والسنة المحمدية وتفسيرها ووجوهها واختلافها وقوتها وضعفها في الخير والشر حتى يتمكن أن يتمكن من الأخذ بالارجح والأفضل عند تأويل السائل ..

٢ - تأليف الأصول :

كما أنه يتوجب على المعبر أن يكون قادرًا على تأليف الأصول في آخر الأمر بعضها مع البعض حتى يتمكن أن يستخرج معنى صحيحًا واضحًا ، وبذلك يتمكن من إخراج الاضغاث والأمان النفسية وتجاوزيف الشيطان وأحزانه من الرؤيا .. فإذا كانت الرؤيا كلها من هذا القبيل ، فعلى المعبر أن يتركها .. إذ هي ليست بروية فلا يجوز أن يقبها ولا يفسرها ..

٣ - التفحص والمراعاة :

يجدر أن يقوم المعبر بالتفحص والتدبر والنسب من الرؤيا قبل تأويل الرؤيا أو تفسيرها ، إذ عليه أن يعرف الرؤيا حق المعرفة ، ويستدل عليها من

(١) الامام ابن سيرين - منتخب الكلام في تفسير الأحلام ص : ١٨ (هامش كتاب

تفسير الأحلام) .

الأصول ، ومن كلام صاحبها .. كما أن عليه أن يقتدى في تفسيره بالأنبياء
والرسل والحكام ، لأن هذا أقرب إلى الحق والصواب .. ومثال ذلك رؤيا
فرعون .. سبع بقرات عجاف يأكلهن سبع سمسان ، وتأويل يوسف .. عليه
السلام .. السمان بالسنوات الخضر والعجاف بالمقورات الجذب ..

ويرى الإمام ابن سهرين (١) . أنه يتوجب على المعبّر أن يثبت بما يروى له
والأيتصف برأيه ، وأن لا يأنف من الاعتذار عن تأويلها لعدم معرفته أو
لاستشكالها عليه ..

ولتعبير الرؤيا أصول متبعة عند المعبرين ؛ فإذا كانت الرؤيا مستقيمة فانه
يمكن تأويلها .. أما إذا كانت تضمن معنيين فعلى المفسر أن ينتظر إلى المعنى
الأقرب .. للفظ والمعنى .. ثم أنه على أساسه يعبر الرؤيا ..

أما إذا وجد المعبّر أصول الرؤيا صحيحة إلا أن بها حشو ولغو ، فإن على
المعبّر أن يترك الحشو واللغو ويقصد إلى الصحيح ، أما إذا رأى المعبّر أن الرؤيا
كلها مختلطة بعضها البهض ولا تلتئم مع الأصول ، علم أنها من الأضغاث التي
لا تأويل لها ..

كما يجب في حالة استشكل الرؤيا على المعبّر أن يتركها ويعرض عن تفسيرها
وإذا اختلط عليه الأمر طامس من الله كشفه .. كما أن عليه أن يسأل الرائي عن
تفسيره في رؤيا السفر إذا كان يريد سفرأ .. وعن عمله إذا كانت رؤياه عن
العمل .. أو غير ذلك ..

(١) الإمام ابن سهرين - منتخب الكلام في تفسير الأخلام ص : ١٩ (هامش كتاب

تفسير الألف) .

وعلى المعبر أن يعبر الرؤيا حسب ضمير الرائي .. فإذا لم تمكن الرؤيا
في ضميره ، أخذ المعبر الأشياء على ما رآها الرائي مع ملاحظة الطبائع والبيئات
والعادات ، وإذا كانت الرؤيا تقود إلى فاحشة ، ستر المعبر تفسيرها ولا ينصح
عن معناها لرائي ..

يقول الرسول ﷺ (١) .

« إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها ، فإِنما هي من الله فليحمد الله عليها وليحدث
بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكرهه إنما هي من الشيطان ، فليستعِذ بالله ،
ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره .. »

أمثله لتعبير الرؤيا بالقرآن الكريم والسنة :

تعبير الرؤيا أحياناً من اللفظ .. كتأويل « حسن » « إحساناً » واسم فضل .
أفضالاً ، وسالم .. سالماً ، ولفظ الإسم ..

كما تأول بالمعنى كرجل رأى سقوط أسنانه ، فيعبر على أنه رجل قد قطع قرابته
أو لم يفتل رحمه وتأول مرة من القرآن الكريم ، ومرة من الحديث ومرة من المثل
السائد أو الأثر كتأويل رؤيا الصائغ أنه الرجل الكذوب (٢) ، من المثل السائد
أنه رجل يصوغ الأحاديث ..

كما أن هناك تأويل بالضد .. كتعبير البكاء بالفرح . والضحك بالحزن ،
والمرض بالنفاق .. وذلك تمهيداً لما يجرى على ألسنة الناس من أن الإنسان الذي
لا يصح له وعدا بعد مريضاً .. تصديقاً لقوله تعالى :

(١) رواه البخاري عن أبي سعيد .

(٢) منتخب الكلام في تفسير الأحلام ص ٧-٨

« في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً » (البقرة : ١٠)

كما يدير بعض الآئمة من رأى أنه قد قطعت أعضاؤه بأنه سيدسافر أو يفارق أهله ، تمهيداً مع الممثل السائد ، تقطعوا في البلاد .

وأول ما يرجع إليه في تفسير الرؤيا في القرآن الكريم والسنة المباركة ، فإذا وجد المعبر فيهما شاهداً للرؤيا كان ذلك أوفيقاً من الله ، ومثال ذلك (١) : رؤيا السفينة : كأن يرى النائم نفسه راكباً سفينة ، فالسفينة هنا نجاة من الحزن والفرج لقوله تعالى :

« فأنجيناه وأصحاب السفينة » (العنكبوت : ١٥)

الوقوع في البحر : كأن يرى النائم وقوعه في بحر فإنه يحذر به لقوله - ﷺ : « البحر جبار » .

الفصل السادس عشر

صمت الحكيم

يعتبر الكلام أحيانا الطريق الذي يدخل به صاحبه إلى النار .. كما أنه يكون حينها السبب المنهني الذي يوصل إلى الجنة ، ولكن لا أطيب من اللسان إذا طاب القلب ، ولا أخيب منه إذا خبت القلب ..

لذلك كان الصمت حكمة ، ومن صمت نجما ، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوصي بالصمت ، ويعرف أن قليلا من الناس فاعله (١).

ويعد الصمت طريقا إلى الصحة النفسية والكمال الأخلاق والإيمان ، الذي يؤثر الصمت على الكلام قد غفل باطنه عن الشهوات والآفات وتحمل بمخالفات القرب من الله ، وتأديب بكمال آداب العبودية .

والصمت قدرة ، والقدرة من الحكمة .. ومن كان عنده قدرة من غير حكمة هلك .. ولذلك فكلام صاحب الحكمة مقبول في الباطن سواء وافق الظاهر أو لم يوافقه ، أما خطاب صاحب القدرة الكلامية فإنه يتظاهر وهو مكسوف الأنوار ، لأنه لم يتحقق بحقيقة كلامه ، وربما يتكلم رجلا فيتهبل من أحدهما ويرد على الآخر ، لأن هناك فرق بين صاحب قدرة وصاحب حكمة ، والحكمة هي يلبوع الحيرات ومفتاح الرزق والعبادات .

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » (البقرة : ٢٦٩)

(١) الشيخ أبو بكر بناتي - مدارج السالكين ص ٧٥ وما بعدها .

والحكيم صامت ، لذلك كان الصمت حكمة ثقيلة على النفوس ولا يتحقق بها إلا من أخذ الله بيده لأن من طبيعة النفس الميل إلى الحرية ، لذلك فهي لا تميل إلى الصمت ، وإنما تقبل عليه لأنه الميل الشرعي القائم على الوسط العدل .

ولا يتحلى بالصمت إلا أهل الصدق ، الذين عاشوا مقام العبودية ، وقالوا : ربنا الله .. ثم استقاموا ، لذلك فإن أمساك اللسان عن ما لا يعنى الإنسان هو الطريق المستقيم الذى يرصل إلى الكمالات الأخلاقية ..

يقول الشيخ عيسى الدين بن عربى : « من أراد أن يتكلم باطنه فليصمت ظاهره .. ومعنى ذلك أن قوة الباطن أظهر من قوة اللسان ، كما أن اللسان يخطئ ويصيب ، أما الباطن فهو الحق الذى لا غبار عليه .

وقد اتفق الأئمة والأولياء والعلماء على أن الصمت كله خير وبركة .. ويقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

« استمعينوا على قضاء حوائجكم بالصمت » (١) .

والصمت هو مخالفة للنفس التى تتطلب شهوة الكلام ، فهو نجاة من الهوى وفرائده عديدة ، فإذا كانت النجاة في صمت العالم ، فما بالك إذا كان عن غير علم ...

وقد ورد الصمت في القرآن الكريم على أساس أنه حكمة لبعض أنبيائه في قوله تعالى :

« قل رب أجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ،

(مريم : ١٠)

فالصمت آية من آيات الله .. وحكمة من حكمة ...

ويروي عن إشر بن الحارث قوله : إذا أصبكت الكلام فاصمت ، وإذا
أصبكت الصمت فتكلم ، .

وقال بعضهم : تعلم الصمت ، كما تتعلم الكلام ، فإن كان الكلام يهديك فالصمت
يقيك ، وأهل الحق يرون في الصمت لسان الحليم ، لأن عفة اللسان صمته ،

والصمت حرب على الغيبة والنميمة ، وهو نوع من أنواع الرياضات الكبرى
لأنه مخالفة للنفس ، ورعاية لها من الوقوع في براثن الشيطان ، كما أنه ترويض
لجنوحها وتهذيب لأخلاقها ، فبالصمت تنأدب النفس ، فيحصل العلم ، وبالعلم
يحصل العمل ، وبالعمل يحصل الزهد ، وبالزهد تحصل الحكمة ، وبالحكمة تحصل
مخافة الله ، وبالمخوف من وعيد الله تحصل منازل القرب في الدنيا والآخرة (١) .

الفصل الثاني

ذكر الله

ذكر الله طريق رائج للصحة النفسية لأنه يربط العبد بربه بعروة وثقى ،
ويقوده إلى الخير الفاضل في الدنيا والآخرة ويربي النفس على الإيثار ، ويحنبها
المجنوح عن جادة الحق ، كما يملأ القلب سكينة وطمأنينة وأمناً ..

والذكر إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب (١) .. ومختلف ثمرات الذكر من
ذاكر إلى ذاكر .. حسب الصدق والإخلاص والاجتهاد ، فإذا قال الذاكر
« لا إله إلا الله » بلسانه ، ولم يصدق قلبه ، كان الذاكر مسلماً عند الناس ، كافراً
عند الله ، كما أنه إذا ذكر الذاكر الله بقلبه دون تصديق اللسان ، كان ذلك غير
كاف .. لأن إبليس كان يذكر الله بقلبه ، ولم ينفعه ذلك حين أضربه لسانه ..
واعترض على السجود لأدم عليه السلام ...

ولذكر فضائل عديدة ، وآثار نفسية رائعة ، وثمرات جليلة .. وهو يعين
الإنسان على محاربة المصائب ، ويساعده على التغلب على العقبات ، ويجعله قادراً
على طرح رياء النفس جانباً ، كما أنه يعمل على تخلية القلب من الآفات ، ويصرف
عنها الخواطر المذمومة ، ويدفع عن الإنسان غواية الشيطان ، ويزيل عنه الحقد
والغل والحسد والاعتزاز ...

والذكر يلهم شافق ، يثق القلب ويجعله قابلاً لاستقبال المهيمنات الإلهية ،
والأسرار الربانية ، وينزل على النفس الأمن والسكينة والطمأنينة .

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (الرعد : ٢٨) .

كما أن الذكر يربط بين العبد وربه برباط وثيق لا ينضم هراه :

« ادعونا استجب لكم » (زافر : ٦٠) .

« فاذكروني اذكركم » (البقرة : ٢٥٢)

« إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » (العنكبوت : ٤٥)

والذكر باب إلى الاستقامة والاعتدال إذ يحجب الإنسان الانحراف ،
وارتكاب المعاصي لأن فيه حلوة الاتصال ، ومن ثماته .. تجاوز مألوف
العادات وخرق قوايين الطبيعة ..

« إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم مبصرون ..

(الأعراف : ٢٠٣)

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله ، (آل عمران : ١٣٥)

وعن الرسول - ﷺ - :

« من لم يأنس بحديث الله عز وجل عن حديث المخلوقين ، فقد قل عمله وعسى
قلبه وضييع عمره » (١) .

« ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها » (٢) .

وبهذا المعنى يكون الذكر اشتغال برياضة النفس ، وترويضها ، بحيث يحصل
لذاكر الله فلا يغفل قلبه أبداً ، ويشهد الله دواماً فيراه بقلبه ويراه بنفسه ،

(١) من مالك بن دينار .

(٢) ذكره الامام الشعراي في تنبيه الغشيين ص ٣٤

ويحضر بمساجد في هذه القرية لا يعادها عادة ، ويؤيد ذلك الحديث القدسي :
 « إن الله ملائكة يطوفون في الطريق ملتصقين أهل الذكر ، وإذا وجدوا
 قوم يذكرون الله تنادوا . . هلوا إلى حاجتكم ، (١) .
 ويقسم بعض الأئمة الذكر إلى عشرة أقسام (٢) .

الأول : ذكر الله . .

الثاني : ذكر الأمر والنهي . .

الثالث : ذكر نعم الدين والدنيا . .

الرابع : ذكر بالمنة . .

الخامس : ذكر بالتدبير . .

السادس : ذكر بالمهبة . .

السابع : ذكر بالشوق . .

الثامن : ذكر بالوله . .

التاسع : ذكر بالاتصال . .

العاشر : ذكر بالمرعى على الدوام .

وكل قسم من هذه الأقسام له ثمرات ، وكلما تقدم الذكر ، كلما زادت
 الثمرات حتى يصل إلى القسم العاشر (٣) .

ويروى عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ قوله :
 « ذكر الله علم الإيمان ، وبراءة من النفاق ، وحسن من الشيطان ، وحرر
 من النار ، (٤) .

(١) ذكره الإمام عيسى الدين بن عربي في مشكاة الأنوار وقصده بقية . .

(٢) راجع ألساظ الصوفية ومعانيها - المؤلف وكذلك كتاب التريفة والحقيقة - للمؤلف .

(٣) الإمام أبو بكر بناني - مدارج السلوك ص ١٣ : ١٣

(٤) كما ذكره الحديث الشيخ السبكي في تنبيه الغافلين ص ٢٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الامن والامل

يقدم علم النفس الإسلامى علاجاً ناجحاً للخوف .. والرعب .. والفزع ..
والاضطراب الذى يعانى منه أكثر الناس ، فيملا النفس بالامن بدل الخوف ،
ويبدل بالسكينة الشك :

« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً ، (الفتح : ٤) .
ويحول الرعب والفزع .. طمأنينة .

« وما جعله الله إلا بشرى لتطمئن به قلوبكم ، (الأنفال : ١٠)

ويستقى علم النفس الإحلامى أصوله من منبع أصيل فريد ، وهو .. القرآن
الكريم .. والسنة المحمدية الشريفة .. فيربط الإحلام بين الأمن والإيمان
برباط وثيق ، لا ينقسم عراه مصداقاً لقول الحق تعالى :

« الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، (قريش : ٤)

والقرآن الكريم يهذى إلى الرشده فيبين أن الطريق إلى الصحة النفسية ،
لا يتحقق بالتخويف والإكراه والضغط على حرية الإنسان ، ولذلك فإن
الظالمين هم الجهارون فى الأوجس :

« لا إكراه فى الدين ، (البقرة : ٢٥٦)

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، (فواس : ٦٩)

ومن أجل تحقيق الأمن والسكينة للنفس الإنسانية أعطى الله — سبحانه —

وتعالى - الحرية في الاعتقاد الديني ، لحرم الله تعالى ممارسة الضغط والإكراه فيها ، ودعى إلى الإلفة والمحبة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وذلك لحماية حقوق الإنسان ، وبين الله تعالى في آيات عديدة هذه الحقوق [جمالا وتفصيلا] وحدد القواعد التشريعية العامة الواجبة التطبيق والتي لا يجوز المساس بها ، ومنها حقوق اجتماعية وثقافية واقتصادية ، ومن هذه القواعد ما يتعلق بالمساواة بين الناس كما قضى بعدم التمييز بين إنسان آخر وبأي مرجع من أنواع التمييز سواء كان في الجنس أو اللون أو اللغة أو الدين أو الرأي أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة ، بل أوضح تعالى أن لا تمييز في الإسلام بين الإنسان بسببه السكراهة أو العداوة أو الحقد سواء بين الأفراد أو بين الأمم ، فالعدل هو الواجب التطبيق في جميع الأحوال :

« ولا يهرمنكم شئتان قوم على ألا تعدلوا ، إعدلوا هو أقرب للتقوى ،

(المائدة : ٢)

وتبدو أهمية هذه القواعد في القرآن الكريم من جعلها نصوص لا يجوز الإخلال بها ، كما أنها ليست عبارة عن مواظب أو توصيات ، وإنما قواعد واجبة التنفيذ فهي ليست مثل اجتهادات أو توصيات الهيئات الدولية ، وإنما ملوك مقرر ، وقواعد ملزمة ، واجبة الانباج ، لا يجوز مخالفتها أو تعديها ، فالشريعة الإسلامية حريصة على حماية الإنسان من الخوف والفرع وكل ما يهدد من حريته وإنسانيته ، حرصها على حقوقه المشروعة في الأمن والسكينة والطمأنينة ، فلا يمكن أن يفرج الله عباده وهو عاقلهم . . ولذلك تركز الآيات القرآنية على ربط الإيمان بالأمن والأمل بالطمأنينة :

« الذين آمنوا وطمأن قلوبهم بذكر الله ، (الرعد : ٢٨) »

فالمؤمن يسير مطمئن النفس ، ساكن القلب ، معداً لقوله تعالى :
 « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً » (الفتح : ٤) .
 « نعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » (الفتح : ١٨) .
 فالسكينة هدوء وطمأنينة تسكن بها النفس ، مع طمأنينة القلب ، والقلب
 مطمئن يزاد ثباتاً وثقة في طريقه . .

كما أن السكينة والأمن والطمأنينة مترادفات للإيمان ، وثمرات من ثمار التقوى
 ونتائج العلم بالله ، وذلك وارد في قوله تعالى .

« قال أولم تؤمن . قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » (البقرة : ٢٦٠)
 « يا أيها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية » (الفجر : ٢٧)
 فالأمن أمن ضد الخوف والفرج والاكتئاب والرهب والابتئاس :

« ثم أنزل عليكم بعد الغم آمنة ناعسة » (آل عمران : ١٥٤)
 « وهم من فرج يومئذ آمنون » (النحل : ٨٩)
 « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها » (النحل : ١١٢)
 « وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » (النور : ٥٥)
 « يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين » (القصص : ٣١)

ويرتبط الأمن أيضاً بالأمل ، وليس الأمل هنا في تحقيق الرغبات المكبوتة
 كما يدعى علماء النفس ، ولا حماية البناء النفسي من عدم إشباع غرائزه ونزواته
 المنحرفة كما يزعم أصحاب النظرية الأمريكية في العلاج بطريق التمرکز حول
 الحميل (١) .

ولنما الأمل هنا أمل هادف ، ودليله الإيمان ، وهذا الأمل هو ثمرة بركة
من ثمار الخير على العمل الصالح كشواب من الله :

« والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً ، وخير أملاً ، (الكهف : ٤٦) »

« ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ، (الطلاق : ٤) »

وايس الخير في تحقيق المال والأمل ، ولا في إشباع رغبات النفس

في الظاهر بحسن الزي والرياش ، إنما الخير حقاً في تحقق الأمن والسكينة . .
يقول الرسول ﷺ :

« ليس البر في حسن اللباس والزي ، ولكن البر السكينة والوقار ، (١) » .

—————

الفصل التاسع

الحبة

الحب كما ورد في القرآن الكريم على دربين :

الأول : حب الله ومن الله تعالى :

وهو الحب الحق من عبادة ورضا وشكر وإسقاط للتدبير ومجاهدة لله بالعمل الصالح ، تقرباً إليه ، ووسيلة لمرضاته ، وعملاً بأمره . .

« يحبهم ويحبونه » (المائدة : ٥٤)

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » (المائدة : ١١٩)

يقول الرسول — ﷺ : —

« إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل . . ثم ينادى في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبوه . . فيحبه أهل السماء . . ثم يوضع له القبول في الأرض . .

وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه ، فيبغضه جبريل ثم ينادى في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض (١) .

الثاني : حب الدنيا وما فيها :

كحب النفس . . والشهوات . . والنساء . . والمال . . والفساد في الأرض .
والعدوان ، والإصراف في الذات ، والشهوة . . والطبع .

« زين الناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة
من الذهب والفضة ،
(آل عمران : ١٤)

والحب الإلهي هو الذي يستهدف إليه علم النفس الإسلامي لأنه يحقق الصحة
النفسية ، أما حب الإنسان للإنسان فهو نتاج هذا الحب إذ أنه مقتضى الحب
الإلهي .. فالأصل هو الحب الإلهي ، وأما الحب الإنسانى فحب في الله ،
وفي طريقه ، وهو ألفة ومودة ورحمة :

« إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ،
(آل عمران : ١٠٣)

« وجعل بينكم مودة ورحمة ،
(الروم : ٢١)
« وألقيت عليك محبة مني ، ولنعصج على عيني ،
(طه : ٢٩)

والمحبة بهذا المعنى لإثراء العلاقات الإنسانية ، وثمرة لصحة المجتمع ، وتعاون
على البر والصلاح والألفة وأخوة بين الناس ، ومودة ورحمة بين الأرحام
والأزواج ..

فالمحبة تستهدف الحياة الأخلاقية المثلى ، والخير الماضى ، وبالإضافة إلى كونها
أصل من أصول الدين :

« ولما كن الله سبحانه يحب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ،
(الحجرات : ٧)

وبدون المحبة الإلهية تنفهم الروابط الإنسانية ، وتظلم النفس ، وتتجبرم
القلوب ، ولا يستقيم للفرد بديان ، ولا ترق أخلاق ، ولا يثمر عمل صالح ،
ولا تتحقق المودة والرحمة بين الناس ، فتتربط العلاقات الإنسانية بالمصالح المادية
والنفوذة النفعية لحسب ، مما ينفأ عنه العدوان والكراهية والمفاسدة والبغضاء

والحقد والظلم والانتقام ، فيقوى في النفس الحب الشهوى ، ويعظم طلب الدنيا ،
والذات الحسية ، كما ورد في قوله تعالى :

«وتحبون المال حباً جماً» (الفجر : ٢٠)

«امرأة العزيز ترارذ فتاها عن نفسه قد شغفها حباً» (يوسف : ٣٠)

وهذا الحب الشهوى يمتاز به الحيوان غير المكلف ، ويندفع إليه بما ركب
في جبلته من صفات وأوصاف فطرية مثل الانانية والآثرة ، وامرأة العزيز هنا
اندفعت إلى الحب الشهوى الذي هو صفة ملازمة للحيوان غير المكلف ، فهبطت
إلى مرتبة الحيوان ، لاتباعها أهواء النفس ، التي جنحت فقادت بها إلى الرغبة
في الشهوة المحرمة ..

وهذا النوع البهيمى من الحب هو الذى يتفق عليه علماء النفس الحديث ،
ولا يحدون عرضاً عنه ، ولذلك نجد فرويد ، يقبر عن هذا الحب العائلى أو
(Libido) (١) على أنه الغاية المثلى لتحقيق الصحة النفسية ، ويقسمه إلى معنيين :

المعنى الاول

ويسميه الحب الضيق ، ويتحقق بالإشباع الجامى ، فيقول : « أنه لتفسير
الحاجات الجنسية لدى الانسان والحيوان ، نستعين في علم الحياة بوجود غريزة
جنسية كما نستعين بالتغذية لتفسير غريزة الجوع » .

المعنى الثانى

إن (Libido) أو الحب الشيقى هو الطاقة التى تدخل فى كل ما تتضمنه كلمة
حب ، وبالملة فإن فرويد يركز على كل الحب الجامى الذى يستهدف الاتصال

(١) فرويد - الموجز فى التحليل النفسى - ترجمة د. سالى محمود على .

الجنسى ، حتى في العلاقات الانسانية المتسامية كحب الوالدين ، والأطفال والصدقات والانسانية ، بل والموضوعات العائلية والأفكار المجردة ، لجميعها ترجع إلى مصدر وحيد هو الاتصال الجنسي في صورة من الصور . .

وهذا الفرض غير المنهق استخدمه بعض أصحاب التحليل النفسى اعتقاداً منهم أن الحب النفسى هو الملازم الفعلى للشخصية منذ عهد الطفولة المبكرة ، وأنه ترجع إليه الانحرافات الدائمة ، أو المؤقتة للبالغ ، وبذلك يشمل المعنى الجنسي على كل أنواع العلاقات الانسانية ، بل وأيضاً الأفكار والموضوعات في ميدان الحياة النفسية . .

وفرويد ينظر إلى الحياة النفسية الانسانية ليس باعتبارها الحياة الشعورية لحسب ، بل والحياة اللاشعورية ، والقبلاشعورية أيضاً ، بالإضافة إلى الأحلام والأعراض المرضية والحب الشبقى (Libido) كما يقرر تليذه د يورج (١) أن الحب بهذا المعنى يشمل الطاقة النفسية في عمومها . .

والواقع أن هذا المفهوم الضيق طاهر عن إحراك الحب الحقيقي الذى ذكره القرآن الكريم ، وقامت عليه الديانات السماوية ، وتأسست عليه العلاقات الانسانية الخيرة ، وطبقه الأنبياء والمرسلين من المؤمنين كملوك أخلاق . .

الحب الحق (٢) إذن ينبع من تضحية وإيثار ويستمدد من الخير ، ويتبع الطريق المستقيم الذى أمر به الله ، ويمجر غيره ، سواء كان هذا الطريق المستقيم يحقق لذة أو يصيب صاحبه بالآلم والحزن . .

(١) فرويد — الموجد في التحليل النفسى ص ١٠٦-١٠٧ .

(٢) المؤلف — ألفاظ الصوفية وما إليها - (المحبة) .

إذن الحب الذي يتكلم عنه فرويد هو الحب الشهوى ، أو كما يسميه والشبق ،
الذي يرى أنه لا يمكن أن يحقق هدفاً طيباً ، أو غاية نبيلة أو خيراً للإنسان . .
« وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

(البقرة : ١٦٦)

والحب الصادق لا يستهدف بالتحديد الاستقرار الجنسي ، وإنما الحب
الصادق يرتفع عن الحلق ليوجه في طريق المحبوب — على الحقيقة — وهو الله ..
والله ، ومن الله ، وبالله ، وهذا في تقديرنا الحب المحقق والأمن والأمل
والطمأنينة .

« قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » .

(آل عمران : ٣١)

فالحب الصادق ليس حباً برزخياً صادراً عن طاقة غريزية ترغب في الاشباع ،
وليس أملاً في الحصول على أكبر اشباع جنسي ، وإنما الحب باب للتسامي عن
الغرائز ، والتغلب على الشهوات الحسية الانسانية ، والعمل بمكارم الاخلاق اذ أنه
إحسان وتربية وصفاء وطهارة وتقوى وعفو وكظم الغيظ وصبر على الشهوات
والميلذات ، بل هو قسط وعدل وإعطاء وإصلاح للفساد وتجنب للخيانة وبعد
عن الاسراف . . اذ أن هذا الحب يهدف الى تحقيق أمر الله ، وتطبيق أحكامه
وتفصيل مقتضى حكمته دون اعتراض . .

وإذا أحب إنسان إنساناً ، فلا يجب له غاية شهوية أو منفعة مادية ، وإنما
يجب لأن الله أمره بذلك ، ولأن المحبة هي طريق الخير والاحسان والمودة
وتألف القلوب ، كما أنه إذا أحب الإنسان شيئاً من الاشياء ، أو عملاً من الاعمال

فإنما يحبه هادفاً مرضاة الله ، آملاً في التقرب إليه تعالى بهذا العمل ، ولأن الله يرضى عن يخلقه ، فهو إذن يحب الله ، حتى ولو كان ما يحبه فيه مكابدة ومعاناة وعناء ومشقة عليه.. إلا أنه يفعل ذلك وهو راضٍ ، سعيد بذلك كل السعادة؛

« ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، (الإنسان : ٨)

« يهبرونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً له ، (البقرة : ١٦٥)

فالذي يذكر الله وينشغل بحب الله ، ويحب ما يحبه الله هو العارف بالهبة الحقة الجامعة ، وهي محبة الله تعالى :

« إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ، (ص : ٢٢)

وهو حب في الخير وجهاد في سبيل الله ينبع عن الانشغال بذكر الله ، وليس ناشئاً عن حب الشهوات والأموال وأعراض الدنيا ..

فالحب في الإسلام مخالفة لأهواء النفس وحفظها وشهواتها وحاجاتها التي لا تشبع ، والإنسان في جبلته حب القذات السريعة التي يصاحبها أو يلحقها ألم ، لذلك كان عليه أن لا يقدم على هذه القذات .. لأنها لا تقوده إلى الصحة النفسية ..

على الإنسان إذن أن يقبل على الحب الدائم الذي يوصله إلى السعادة الحقيقية ، ولن يتحقق له ذلك إلا بمجاهدة النفس :

« إن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، (آل عمران : ١٥٢)

ويمكن تشييل الحب الصادق بقصة ذلك الملك الذي كان يؤثر أحد أتباعه على غيره من المساعدين والخدم ، مما أشعل حقدهم على هذا العامل ، وتجهروا من تقرب الملك وإيثاره له ، وهو أقلام شاباً ، وأحدهم قرة .. ولما علم الملك

منهم ذلك طلب أن يبد له رحلة صيد ، واستصحب معه كل حاشيته ، فلما وصل إلى مكان الصيد اتجه بنظره إلى الجبال من حوله . . وكان طامله المقرب إليه بهابته . . وإذ به يغيب . . ويبحثوا عنه فلم يجدوه .

وبعد مدة من الزمن حضر حاملا بين يديه قطعة من الثلج ، فلما تساءلت حاشية الملك عن سبب استحضاره الثلج ولم يطلب الملك منه ذلك . . قال الملك : هذا سبب عبقى له وقربة إلى قلبى ، فهو لا يكف عن ملاحظتى إذ هو دائماً مشغولاً بى ، ومن كثرة اهتمامه بأمرى يعرف ما يدور بخلدى . . أما أتم فتمضون بمحظوظ أنفسكم . .

وسألت الحاشية العامل عن ذلك ؟ . . فقال : لما نظر الملك إلى قم الجبال ونظرة الملوك لها دلالة ، ألهمت أن الملك يريد شيئاً من ذلك الثلج ، فذهبت واستحضرت قطعة منه . .

فأذى يصب ينشغل بما يجب ، وإذا ترك اللسان لفطرته ، زينى له نفسه الأفعال القبيحة وحسن له الشيطان المستكرهات والشهوات ، فيميل إليها ويقبل على تحقيقها لأنها أسهل وأسهل ، أما إذا وقرق القلب بالإيمان ، خالف النفس والشيطان وعرف أنهما يقودان إلى الحسرة والندم والظلمة ، وأن حبه لهما ضياع لديناه وآخرته . . وأن استبدال حب الله بهما يحقق له السعادة الحقة . .

لقد ركز علماء النفس على الناحية الشبقية والجنسية والشهوية ، كقاعدة عريضة للسلوك فجعلوا الحب المنشود فى استجلاب الملمات واسترضاء الميل الطبيعى فى اللسان لبناء الشخصية السوية . .

وهذه نظرة تراها قاصرة ، إذ أن هذا النوع من الحب يدفع الفرد إلى الإلابة والإسراف فى العدوان لتحقيق شهواته وملذاته على حساب الغير . .

أما الحب في الاسلام فإنه يستمد وجوده من الحب الالهي ، فإذا تحققت منه لذة فهي وسيلة لغاية مرادة الله ، وليست اللذة من أجل اللذة ، وإنما هي ثمرة لاتباع أمر الله ، كما أنه إذا بغض شيئاً ، فإنما يبغضه بأمر الله ، لأن فيه إصراف أو إفساد أو خيانة أو إثم أو اعتداء أو ظلم فالبغض ما يبغضه الله وينهى عن فعله . . كما ورد في كتابه الكريم . . والحق أن الالهيان إذا تجنب الآفات من غرور وبنافق وعدوان وشهوات ، واعتدل مزاجه واحتقامت حياته ، وصفت نفسه ، وسمت روحه ، فصبح كالنبيع الصافي ، يستمد من حوله منه النظرة والحياة ، وبدون المحبة ، تصبح النفس ظالمة ظالمة ، تفسد أخلاقها ، وتزداد إسقامها ، وتصاب بالأمراض والأوجاع ويتصدع بناؤها . .

لذلك كان الطريق الذي رسمه تعالى للصحة النفسية يتحقق بالمحبة التي غايتها الأعراض عن السيئات ، واتباع الحسنات ، وفعل الطيبات من أمر معروف ونهى عن منكر . .

وخذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلین ، (الأعراف : ١٩٩)
وان يتحقق ذلك كما أشار الرسول - ﷺ - إلا بأن يصل الإنسان من قطعه ، ويعطى من حرمه . وينفو عن ظله . .

فالغاية من المحبة تحقيق مصحة النفسية للإنسان في الدنيا والآخرة ، وذلك برد الكراهية بالمودة ، ومقابلة الاعتداء بالصفع الجميل ، ومجابهة الظلم بالعفو ، وإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة من السمو الأخلاقي والصفاء النفسي ، يستطيع أن يحيل الظلام نوراً . . والشر خيراً ، لأن في الحب قوة سحرية تمزق غيوم الاحتماد ، فتزال الغمسة عن القلوب ، ويهتدى الإنسان إلى سبيل الخير والرحمة ، فيمضي المنيغف ويعود المريض ، ويركي نفسه بأعمال البر والمعروف ،

يبتعد عن ذواية الشيطان ، ويأمن من مكائده ووساوسه ، ويغالب أهواء النفس
الأمارة ، وهنا يرضى عنه ويحبّه ..

« يحبهم ويحبونه » (المائدة : ٥٤)

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » (المائدة : ١١٩)

فالحبة اذن ارتفاج عن الشهوة وارتقاء فوق الحاجات المادية .. الحبة بقلة
من الحب الضيق المقيد الى حب أثير واينج واشمل ، وهو حب في الله .. ومن
الله .. وبالله .. وفه ..

واذا تظاهرت النفس بالحب تقضت همدها وعالفت وغلقت (١) ، أما اذا
جاهدها الانسان .. صدقت في الحب وأخلصت وأمنت وسكنت ، واذا أفرطت
خلت وانحرفت .. كان ذلك لشهوة فرقة فريسة غرائز الحس ، ودوافع
الشبق والعشق ، وليس ذلك الا ابطالا للقوى الروحية وتقديساً للقوى المادية
في النفس ، فإذا كان مياماً وعشيقاً .. ابتعدت عن الفطرة السليمة ، وشقت عصا
الطامة على العسك ، وانحرفت عن طريق الاستقامة ، وعرفت عن الانصاف
والعدل .. وتبرأت من الحق ، وعاشت تعبد ذاتها وتوافق الى ازطائها المذمومة
الى لا تشيخ وطلباتها الى لا تتوقف ..

أما إذا اعتدلت وجمحت جماع هواها ، وانثمرت بأمر العفة ، وأقبلت بهمة
المخلصين ، وشمرت عن مساعد الحد بعزم الصادقين ، وتريضت بسلاح الطامعين ،
واستقامت على هدى الدين ، ترعرعت في جنبات الله ، واطمأنت في حجر الرحمن ،
وتسكنت وقويت .. فمكثت لذتها في القرب ، ونعيمها في التوكل ، وشربها من
الدوق ، وتوجهها الى الاحسان ، وأملها في الاجتهاد ، وأفراحها في الاصطفاء ،

والدها في الاصطلام ، وشوقها في الفتوحات ، ونورها في التجليات ، وراديا
علوم الأضراس ، وشاهدها الفيوضات ، وثمراتها المنن ، وكاساتها المطايا ، وخبها
في الله . . ومن الله . . والله . . وعن الله . .

الحب اذن في الاصطلام حبين :

حب النفس ، وحب الحق . . أما حب النفس فإنه يترد للشهوات والتهاكك
والضلالات ، وأما حب الحق تعالى فإنه يرقى بالإنسان إلى أعلى المناسزل
والمقامات . .

حب النفس يؤدي إلى التعجب والغرور . . وهذا باطل . . كما يؤدي إلى
الكذب والفجور وهذا طريق الخواية والظلمة . . أما حب الله فهو طريق الإيثار
وباب الإحسان ، وسبيل المودة والرحمة ، فيه تعمق القلوب بالمحبة وتغنم النفوس
بنور الإيمان . .

والحب الإنسان إذا كان خالصاً لله ، كان أيضاً حباً للناس لأنه مقتضى الحب
الإلهي وتابع له . . إذ يستهدف الحق ، ويهضي في رحمة الإيثار والسخاء
والإحسان . .

والله خلق الناس جميعاً من نفس واحدة (١) ، فهناك صلة ورحم فطرية وقربا
طبيعية بين الإنسان والإنسان ، فيجب أن تظل بينهم المودة والرحمة والألفة
والمحبة والأخوة في الله . .

لذلك كان حب الله متضمناً حب الإنسان . . وفي ذلك يقول
الرسول ﷺ :

(١) قال تعالى : « يا أيها الناس إني خلقكم من نفس واحدة »
(الباء : ١) .

« إن من عباد الله عباداً ليسوا بأنبيا ، ينظّمهم الأنبياء والشهداء ...

قيل : من هم يا رسول الله ؟

قال : هم قوم تعابوا بنور الله من غير أرحام ولا أسباب ، وجوههم نور ،
على منابر من نور ... لا يخافون إذا خاف الناس ...

ثم قرأ : ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، (١)

والآيات القرآنية التي تدعو إلى الحب الإلهي كثيرة ومنها قوله تعالى :

« الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون
في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، »

(الحشر : ٩)

« واذكروا نعم الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم
بنصرته إخواناً ، »
(آل عمران : ١٠٣)

سأل شاب أحد العارفين (٢) عن علامة المحبة لله تعالى ؟

فقال : يا حبيبي .. إن درجة المحبة لله رفيعة ..

قال الشاب : أحب أن تصفها لي ..

فقال : يا حبيبي .. إن المحبين لله تعالى شق لهم عن قلوبهم فأبصروا بنور القلوب
إلى جلال عظمة الإله المحبوب ، فصارت أرواحهم روحانية ، وقلوبهم حجابية
(نورانية) وعقولهم سماوية ، تدرج بين صفوف الملائكة السكرام ، وتشاهد
تلك الأمور باليقين والعيان ، فعبدوا الله بمبلغ استطاعتهم له ، لا طمعاً في جنته
ولا خوفاً من ناره ..

(١) ذكره علماء الحديث اللغوي وابن ماجه .

(٢) حجة إمام الباقى - وهو الشيخ الباقى ص : ٤٥ .

فسمع الشاب شهقة فأتت رحمة الله تعالى عليه ، فجعل الشيخ يقبله ويبيكي ويقول : هذا تضرع الخائفين ، هذه درجة المحبين ، هذه روح حنت .. فأبكت فسمعت .. فأشتاقت فسمعت .. قالت .

هذا هو الحب الحق لله .. لأنه أساس الاخلاص ، والالسان هنا لا يطاق فيه من الانتقال إلى الدار الآخرة ، بل يسعى لها سعيها وهو مؤمن ، ويشتاق لقاء الله .. فإذا أتى أمره تعالى كانت نفسه سعيدة مطمئنة راضية لأنها ستصل إلى الأبد بخالقها وحبيبها ، وهذا منتهى غاية المحبين .. وكذلك ورد في الحديث عن الله تعالى :

« يقول الله عز وجل يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني .. »
قال : يا رب كيف أعوزك وأنت رب العالمين ؟
قال : أما علمت أن عبيدي فلاناً مرض فلم تعده .. أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ..

يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني .
فقال : يا رب .. كيف أطعمك وأنت رب العالمين .
قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه .. أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي .

يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني ..
قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟
قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما علمت لو سقيته وجدت ذلك عندي ؟ (١)

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أخرجه مسلم عن محمد بن جهم .

الفصل العاشر

حزن الصادقين

يرتبط الحزن عند علماء النفس المحمدين بالكبت .. إذ أن الكبت في تصورهم
وظيفة أساسية ووقائية تمنح الإنسان ما يؤذيه .. ويقول ..

والكبت حيلة دفاعية يلجأ إليها الإنسان لخفض درجة توتره ، وإخفاء
ما يؤذيه وينكره ، والإنسان — في رأيهم — يكبت ما يسبب له الضيق والالم
وما ينكره نفسه .. وما يتناقض مع مثله .. بل وما يهيج كبريائه .. ويمن
احترامه لنفسه ..

ويفتش بعض علماء النفس إلى أن الكبت عملية لا شعورية (١) ، ويتصد منها
الخلاص من الالم والحزن والأذى ، سواء كان مصدره جسائياً ، أو نفسياً ،
إلا أنه — في كثير من الأحوال التي يكون فيها الإنسان مثالماً ألباً — يقع
فه تخرج من الضيق التي لا يستطيع منها فراراً .. وهذه الضيق تترجم في نشأتها
إلى حزن عميق إلا أنها تخف — في نفس الوقت — من وطأة ما يذكره الإنسان
بالحزن .. والخوف .. والخطر ..

فالحن بهذا المعنى .. كد .. وغم .. وهم .. يصاب به الإنسان عادة
عند ما يمر بتجربة لا يجد لها حلاً ، فيقوم بكبت دوافعه النفسية المحرمة التي
لا يجرؤ على الإفصاح عنها أو الاعتراف بها للآخرين .. فتظل في دخلية نفسه

قائمة بغير حل . . فهو إذن حيلة غير سوية لإخفاء ما يبطنه فيحيا في الحزن والهم والغم (١) .

ويربط علماء النفس بين الخوف والكبت على أساس أننا إذا أظهرنا حقيقة ما نعايه من آلام ومشاكل . . فإننا نفضح أنفسنا ، ولذلك نخاف من تعريضها أما تحاسن من العقاب . . وإما من تبكيت الضمير . . أو نخشى تعريضنا للاستهجان . . أو ما يترتب على كشف خفايا النفس من الوقوع في المآزق . . والاستهداف للنقد والتفريغ والاستهزاء (٢) .

الخوف إذن ينطوى على توتر . . وقلق . . واضطراب . . وحزن ، إذ أن كثيراً من حالات الهم . . والغم . . والمزاج السود . . والتوتر العنيف ، تصل بصاحبها إلى حد الجنون ، أو توقعه فريسة لما يسمى بالانهيار العصبي . . أو الجسمي . .

والانهيار العصبي . . انفجار مفاجئ . . أو تضخم سريع لأعراض مرض نفسي ، من نتائجه . . نقص الحيوية ، وفقد المقاومة ، وقلة النوم .

ومعظم حالات الانهيار العصبي . . تكون ناتجا للقلق . . والفشل . . والاختفاق (٣) ، ولذلك فإن بعض علماء النفس يرون في الحيل التحويلية وقاية وتجنباً للانهيار العصبي . . فبدلاً من وقوع الشخص في حالات القلق . . والخوف والحزن الذي يقوده إلى الانهيار العصبي بسبب إخفاقه وفشله . . فإنه يحاول

(١) د. عزت راجح - أصول علم النفس ص ١٥٣-١٥٢

(٢) د. ميري جرجس - التراث اليهودي المسيحي والفكر الفرويدي ص ٢٦٦ .

(٣) د. عزت راجح - الأمراض النفسية والعقلية .

هذا الحزن الداخلى إلى شخص آخر يشابهه معه في نفس الظروف والملايسات . .
يحول حزنه . . وخوفه عليه .

الحزن عند علماء النفس الحديث إذن كد . . وم . . وغم على ما يسبب
الآلم والضيق ، وما تكرهه النفس . . وتمس احترامها .

وفي رأينا أن هذا المعنى يهتم بدور واحد للحزن . . فلا ينصح عن حقيقة
الحزن في الانسان . ، فإذا رجعنا إلى معنى الحزن عند الأئمة لوجدنا أن الحزن
يتجاوز هذه الحدود الحسية ، وتلك المقاييس الجامدة ، أو الظواهر السطحية التي
يحكم بها أصحاب علم النفس الحديث .

فالحنن - كما يراه الأئمة - أين صادر من القلب (١) ، يمنع النفس من
طلب السرور والطرب والفرح ، إذ أنه يجعل الانسان دائم التفكير في حاله ،
هديم الرضا عنها ، وبذلك يعتبر طريقاً لشقية النفس ، وباباً لتطهيرها .

يقول الرسول ﷺ : « لو تعلمون ما أهمل لبيكنم كثيراً وضحكنم قليلاً » (٢) .

فليس الحزن إذن بسبب ضياع حاجة . . ولا لطلب منفعة زائلة . . ولا لتوقف
ههوة من شروات الدنيا فحسب ، وإنما الحزن هو زاد المؤمن ، فكلما زاد همه
وحزنه في دنياه ، زاد ثوابه في آخرته . .

فالحنن إذن فضيلة . . تزيد من إيمان المؤمن وإيماناً وقيناً . . يقول الرسول
ﷺ : « عليكم بالحنن . . فإنه مفتاح القلب . . أجيءوا أنفسكم
وأظفروها » (٣) .

(١) الإمام الطوسي - المص من ٢٧٢ - ٢٨٩

(٢) عن أبي هريرة - كما ذكره الحاكم .

(٣) عن ابن عباس . . والطبراني في الكبير . . وذكره السيوطي في الجامع الصغير .

وهذا المعنى يكون الحزن وجداً . والوجد تفسيراً واضطراباً لى عملية
دينامية تتحرك من القلب وتؤثر في الجوارح ..

يقول النوري الصوفي : « الحزن وجد ، والوجد هيب ينشأ في الأسرار
(القلوب) ويأتي عن الشوق .. فتضطرب به الجوارح .. »

والوجد اما حزناً .. أو طرباً (١) ، وذلك بحسب ما يرد على النفس من
واردات .. وما يقذف إلى القلب من خواطر ، وبالوجد يتغير الوجد .. إلا
أن هذا لا يدوم .. ولو دام لبقي الحزين حزينا ، والفرح فرحاً .. وهذا يؤثر
على اعتدال الأمور .. فيفقد الإنسان توازنه ويكدر طباعه ..

والحزن وجد .. والوجد يتغير إذن .. فالحزن يزول .. أما الإيمان المؤمن
فيبقى على حاله مع الثبات ، مع تغير الوجد ، وزوال الحزن .. مصداقاً لقوله تعالى :
« إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » (التوبة : ٤٠)

هذا حزن صديق هو سيدنا أبو بكر - رضي الله عنه - حزن لا لادبها
بصبيها .. ولا لامرأة يتزوجها .. لكنه ثورة الاخلاص في حب الله والجهاد في
سبيله ، والحلوف على حياة رسول الله ﷺ حزن في الله .. لأن الرسول حبيب
الله .. ودليلنا على صدق ما نقول ، أن الرسول حين علم ما بقلب صاحبه من
الحزن .. في كلمات موجزة قاطعة تنفذ إلى شغاف القلب لتؤثر في جوارحه ،
وتبعث الأمن .. وتهب الطمأنينة من جديد .. يقول لصاحبه وذلك في قوله
تعالى :

« لا تحزن إن الله معنا » (التوبة : ٤٠)

فتنزل السكينة .. والأمن .. والطمأنينة على قلب الصديق أبي بكر ، فيسمى
الحزن .. ويرتفع الألم ، ويبدل الله خوفه رجاء ، وقلقه أملا ..

فنعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، (الفتح : ١٨)

هذا الحزن الدفين .. من علامات القلوب العاصرة بالإيمان .. ويتهى عادة
بالأمل في الله .. والأمن مع الله .. والثقة به تعالى ، فلا تنافي السكينة إذن
إلا بالحزن ، ولا الأمن قبل الخوف ، مصداقا لقوله تعالى :

« إلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، (يونس : ٦٢)

وفي قصة سيدنا يعقوب - عليه السلام - أيضا معنى من معاني هذا الحزن
الجميل ، فيوسف - عليه السلام - لم يكن شخصية عادية ، بل كان نبيا .. بشرا
بالرؤيا .. ولم يتجاوز من السابعة .. وبفراصة الأب المؤمن ، عرفه يعقوب
- عليه السلام - أن يوسف يختلف عن أخوته .. فهو مراد الله ، وحبيب الله ،
فلما فعلوا به فعلتهم النكراء .. كان حزنه عليه عظيما ..

لقد بعث به أخوته .. والقوه في غيابة الحب .. لم يشك يعقوب - عليه
السلام - إلى الخلق والمخلوقات .. بما فعله أولاده .. ولم يلجأ إليهم في حزنه ،
ولم يشتم شكواه إنما قال كما ورد في قوله تعالى :

« إنما أشكو بشي وحزني إلى الله ، (يوسف : ٨٦)

والحزن هنا ليس فيه فراغ .. وليس مصدره اليأس والقنوط من رحمة الله ..
وإنما حزن قاب واثق ، ونفس مؤمنة .. صادقة التوكيد .. مسقطلة للتدبير مع
الله .. حقا أن يعقوب - عليه السلام - كظم غيظه ، وصبر على فراق ابنه
وحبيبه .. وحبيب الله .. يوسف - عليه السلام - ..

وحقاً .. لشأت ايمقوب - عليه السلام - حالة نفسية من جراء حزنه ،
وكظم غيظه .. لشأ عنها ازدياد الضغط على عيبيه ، حتى أصيب بنوع من
العمى ، فبدأت عيناه يعضان : (١)

« وأبصرت عيناه من الحزن فهو كظيم ، (يوسف : ٨٤)

لكنه من ناحية أخرى ورغم حزنه - كان واثقاً في الله ، طارفاً بأنه امتحان
منه تعالى ، وإبتلاء له يجرى على يديه ، ليحربه ويعلمه بعض أسرار .. ويفتح
له أبواب حكته ..

ثم جاء الأمل بعد كظم الغيظ والصبر على المفاجعة ، وذهبت الغمة إلى غير
رجعة .. والهم بلا عودة .. فدخلت إلى نفسه وقلبه جميعاً السكينة والأمن
والطمأنينة ، عندما بشره الله أن ابنه حي يرزق ، فقال :

« انى أعلم من الله ما لا تعلمون ، (يوسف : ٩٦)

فكظم الغيظ إذن خطوة في الطريق إلى الله ، وهو بداية المعاناة والمكابدة ..
ومع كظم الغيظ لا يرفع عن الإنسان حزنه وألمه ، لكنه - مع ذلك - لا يفقد
ثقة بالله ، فالثقة موجودة ، بدليل أن هناك صبراً على الابتلاءات ، وكظم الغيظ
في المفاجعات .. إلا أن ذلك لا يمنع من حزن الحزين .. ولا من ألين الواجد
إلا إذا تولى الله برحمته .. ومن عليه يسكينته .. وأفاض عليه من حكته ..
فأمده برحمته ..

وليس معنى ذلك أن الحزن بالمعنى السيكولوجى الحديث .. لم يبين في
الاسلام .. وإنما نحن نبين هنا أن الحزن الحق هو حزن في الله .. وليس حزننا
على مناج الدنيا .. وضياع لذاتها وشهواتها .. فلقد ذكر القرآن معنى آخر

(١) تفسير الجليلين - وكذلك للتخفيف في تفسير القرآن .

الحزن ينصرف في مقاصده إلى أهل الدنيا .. وبشهادة مرضى القلوب ..
وأصحاب الرياء والغرور .. وهذا الحزن يدخل إلى قلوبهم ، ولا يخرج منها إلا
إذا تولاها الله برحمته فيقول تعالى :

« أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ،

(محمد : ٢٩)

وهذا الحزن يزيد الإيمان شكاً وريبة ، فهو من تخايف الشيطان ..
وأباطيله ، إذ أنه نجوى .. والنجوى نوع من التناجى ، الذى يفسد النفس
اعتدالها وتوازنها واستقامتها .. يقول الله تعالى :

« لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا ، (الانبياء : ٣)

فالنجوى تماس الخائفين سرّاً .. مع تضخيم للأحداث وتهويل للوقائع ..
وظن قاصد في الحكم على الأفعال والأعمال ، وبها تشدح النفس بالحسرة والسكدة
والنكد على فقد الملمات وضياح الدموات .. ويحسّن اليأس الشر والفسوق
والعدوان .. ويبل الله قلوب أصحاب النجوى بالآلآم ، والأمراض ،
والرعب ، والخوف ، والفزع .. لقوله تعالى :

« ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ، (آل عمران : ١٥٦)

« في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ، (البقرة : ١٠)

« سنأق في قلوب الذين كفروا الرعب ، يا أشركوا بالله ،

(آل عمران : ١٥١)

وهذا المرض الذى يدخل إلى القلوب .. يكون بتسليط الشيطان عليهم ،
وغوايته لهم ، وذلك كما حدث لآل فرعون موسى عندما شاءت حكمة الله أن يرسل
موسى - عليه الله - إليهم ليكون من بعد عدوا لهم .. مشيراً لحزنهم .. منغصاً

لغيرهم ، فألدا لدينهم ، هادما له :

« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » (القصص : ٨)

إذن هناك نوطان من الحزن .. حزن على الدنيا وما فيها ، وهو يستمر مع الشرك . ويعظم مع الرياء .. ويفقد الإنسان طعم الحياة ، ويرقه في الظلالات ، وهو الذي قصده علماء النفس الحديث من أنه سبب للانقياس العصبي .. والمرض النفسى ، ونقص الحيوية والملاحة ، والحسرة ، والالام ، وشقى أنواع المكبوتات ، التى ينتهى بالإنسان إلى الفساد والعطب والضياع ..

أما الحزن الحق .. فهو حزن واع صادق ، فيه ثقة بالله ، وعلم من الله ، وفيه لا يحزن الإنسان على ضياع لذات ، أو فقد شهوات أو مقاومة الأهواء ، وإنما حزن فى الله .. ومن الله .. وبالله .. والله ..

وهذا الحزن هو باب لتطهير النفس من أدرانها ، ودرجة فى طريق تنقيتها من أومامها ، لتحقيق لها الطمأنينة ، والسكينة والأمن ، وما يحظى به المؤمن منة من الله ونعلا .

الفصل الثماني عشر

الاضطرار والافتقار^(١)

يفرض علم النفس الاسلامي إلى أعيننا النفس البشرية .. فيعرف على
جواهرها .. ورمالها .. وأحجارها .. ويكشف عن معادنها الثمينة
والخسيسة . يتفحصها تفحص الطبيب الجسود في أحوالها المختلفة .. وصورها
المتعددة ، لا فهم المفهوم .. التخيل .. المفرد ..

وقد استخلص الأئمة في سياحاتهم النفسية .. وسياحاتهم الروحية فصوصا
نادرة ... وعلوما جامعة .. في طبائع النفس وطاقتها .. وصفاتها ..
وأوصافها .. وأمايها .. وأحلامها .. وميوها .. وثمراتها .

ومن ثمرات ذلك الفوص إلى باطن النفس البشرية .. وجدوا أن الناس قبل
إلى التطبيع عادة بما قبل إليه نفوسهم ... فيحبون ما تحبه .. وبكرهون
ما تكرهه .. كما أنهم رأوا أن النفس بطبيعتها تسعى إلى الحسى الملبوس ...
وتتجنب العقل غير المنظور ...

والنفوس قبل على الملد والمستطاب .. وتتجنب الماؤم والمستكره ، فتطلب
بلا توقف ما يلد .. ولا تشبع من ذلك . وتبتعد عما يولم في أي صورة من
الصور ...

والنفس إذا سحيت بفطرتها لتحقيق لذاتها ... استدرأت الشهوات واكتسبت
الرهونات .. وترينت بالاضطرار .. وفنأت بصحة بدننا الذي نحميه .. ونسجيت

(١) لمزيد من الاطلاع راجع كتاب أقطاف الصوفية (المجلد) ٢٥١ - ٢٥٢

بعرها الذي تصايغه .. قرعى عن ذاتها كل الرضا .. وتعالى كل ما يعين
لذاتها المأمورة .. لأنها حابذة لذاتها .. ساهرة أبدا على تنفيذ شهوراتها المضمومة ..
حتى لو طالت غورها وحاربت في تحقيقها الناس جميعا .. وذلك للوصول إلى
ما تهدف إليه من إشباع ، فإذا تركت لأهوائها .. وقعت في محالها هاربة ،
وطرق مضلة ..

ومن حكمة الله امتحان النفس بشق أنواع الابتلاءات حتى يستقل معدنها ...
وتظهر بالاختبارات من مقاماتها ، وتشغف بالفاجبات من غرورها ..
وتعجبها ..

وفي هذه الأحوال تضطر إلى الاجراء إلى الله .. فتعرف أن لا ملجأ لها
إلا إليه ... وفي هذا المقام تعرف بافتقارها إليه .. وأنه — تعالى — مستغن
عنها بالكلية ... وأنها ضعيفة بدوته ... وأنه القوي على الحقيقة ..

والصادق يرى في الاضطرار إلى الحق تعالى ضرورة ، لذلك فافتقاره إليه
قويا .. مستمرا ودائما ، إذ يحقق بالاحتياج وجوده ومهما بلغت نفسه من
الكلمات الأخلاقية ، فانه يعلم أن ذلك بفضل الله ونعم الله عليه .. إذ لا تصد
نفس الصادق إلا عظيم قدرته وواسع حكمته .. ثم أنها ترى فقرها وضعفها مهما
حظت به — منة وفضلا منه تعالى — من درجات ومنازل ومقامات ..

والصادق مع الله .. لا يرى غير الله ولا يستطيع عيشا بدونه .. فلا حياة
ولا وجود إلا به .. إذ أنه يصير بوحشة مع الناس ولا يأنس إلا بالله .. (١)

الفصل الثاني عشر

محاسبة النفس

على الانسان أن يعرف نفسه على حقيقتها ، فإما من خير يسعى بجاهد لعمله
إلا وتنازع نفسه فيه وتريد خلافه ، وما من شر يقبل الانسان عليه إلا وكانت
نفسه داعية اليه ، ولا ضاع منه خير إلا وكان بسبب جنوحها وهواها ، ولا مال
إلا حرام أو محظور أو مكروه إلا من محبه لنفسه وجنوحه إلى طاعتها
وارطائها ..

وإذا أراد الانسان الحياة البالية وسعى اليها . . سمعت نفسه إلى الديسنا
القانية .. طالبة الراحة فيها ، والغفلة عن الآخرة ، وإن طارد تذكيرها بالآخرة
وتفكر في مخلود عيبتها .. بخلت ولحمك ككج وأبرعت وطابت زخرفك الديسنا
وأكثرت من التمني في طول العمر والأمان الكاذبة فيها . .

ومن صفات النفس أنها عندما ترضى (١) ، تصف بالعلم ، ورعاية الصدر ،
وتروم كظم الغيظ وتجنب الحق ، لسكنها عندما تغضب تفسى حلمها ، وتتذكر
لقولها ، فيظهر منها السفه والحنق والحق والحقده ، وسؤ الخلق ، وهي تبذل الشيء
ادطاء ونفاقا عندما لا تحتاج اليه ، ثم أنها تمنعه عند الحاجة والهمدة . . وهذا من
صفاتها المدمومة . . فهي تدهى الاخلاص وهي مرالية كذوبة . .

لقد وعدت بالعبر عند الغيظ ، وبالحلم عند الغضب ، لأنها تعلم أن ذلك
مفتاح بعيم الجنة . . وإنما إذا غفلت أغضبت الله تعالى بما يوجب العقوبة

عليها ومن ثم عذابها في النار .. واحسب ان ذلك علم نظري يقتضيه الدلوک
العلى (١) ..

وإذا امتحنتها عند الاحتياج رأيتها بائسة من رحمة ، قانطة من عفوه تعالى ،
ثم أنها تسلك إلى الوسوس والمخاوف ، وتستبعد طريق نجاتك من العذاب ،
وهكذا أن شاورتها غررت بك ، وأن سألتها كذبت عليك ، وإن امتحنتها
هزبت منك ، وإن ذكرتها غفلت وتغافل ، فأخلاصها قبل العمل .. تظاهر
بالنيات فحسب ، والنيات النفسية إنما صادرة من الخرف .. خرف النفس أن
يحبط عملها ، ويضيع ثوابها ..

فإذا امتحنت النفس بالعمل والجهاد ، وضعت الحواجز ، واضطربت الحجج
وأدعت الأكاذيب ، فإذا تمت مراجعتها وكشفت أديانها ثارت .. حائقة ،
وفرت ساخطة ، وفرت من وعددها ، وهاجت شهوتها ، وابست الحق بالإبطال
وبذلك تمتنع عن الاخلاص ، وتفسد العمل الطيب ..

والنفس لا تصدق حيث تتكبر دائماً لوعدها .. كما أنها لم تقل صادقاً أنها
ستراى عند امتحانها بالعمل ، وإنما ستمتنع عن تنفيذ ما وعدت .. لكنها
أدعت الاخلاص .. وعندما طالبتها بالعمل وقت وقت الحاجة .. تنكرت
وحشيت بوعددها ..

وكذلك حالها في إدعاء الورع .. إذ أنها تدعى الورع ، وليس موجوداً
لديها ما تمنع به . فزعم أنها تتق الله خوفاً من عذابه ، وتبعد عن المعصية
وسجاء الفوز بالثواب (٢) ..

(١) العزيمة والحمية :: المؤلف - الدار القومية للطباعة والنشر

(٢) الزمالة - ص ٢٩٢ وما بعدها .

وإذا جاء ميعاد الوفاء .. رقت الامتحان .. مالت إلى الشهرة ، وشرعت
 فيها زعمت أنها زاهدة فيه ، بل وطلبت المزيد شحسا وبخلا .. وامتنعت عن
 القيام بما أدعت القيام به من الورع .. ومثلها في ذلك مثل العدو الخبيث يعطيك
 من الأمن ما يجعلك تغتر بمفترين أحاديثه .. وعذب كلامه ، وتطمئن إليه ، فلا
 تحشى مكالده ، وتأسكن عن الظن في سوء مقاصده ، فلا تنبذ له ولا تهذره ،
 ثم إذا به على حين غرة يتقلب وحشا كاسرا عند ركوبك إليه ، وحاجتك إلى
 معرفته ، فبدلا من أن يعطيك يظلك ويطلب هلاكك ، وينكث وعده ،
 ويهتك بك ..

هكذا النفس دائما لا تصدق ، فان وعدت بالزهد عند زيادة المال والأموال
 فانها تراجع .. بخيلة شرهة ، حذينة مقتررة .. بل أنها تطالب الزيادة وترغب فيها
 لاحق لما فيه ، ولا تشبع من تغاضف الثروة وكثرة المال .. إنما تهدها حريصة
 لا تقنع .. طامعة لا تزهد .. (١)

وإذا أدعت النفس - وهي ساذجة ومعاوية - أنها سترضى بالمفاجعات
 وستصبر عند اختبارها في المحن ، حشيت في وعدتها وكذبت عند امتحانها
 بالابتلاءات ، فتفكر عند نقص المال ، وتهرض على الأمراض والأوجاع وتهزج
 عند نزول الشدائد ، وتهرم من قضاء الله .. وحكم الله ..

كما أن زعم النفس الرضا في كل حال إنما يصدق منها قبل نزول البلاء ..
 وهذا لا يعد صدقا ، إنما الرضا الحق في صدق العبد في تجربة البلاء ، والصبر
 هل الأذى ، وتحمل النوازل ، ومكابدة الأهوال ، فإذا رضى العبد على حكم الله
 وقضائه تعالى كان راضيا .. لا يتبرم ولا يستخط .. وهذا مقام حال لا يصل
 إليه إلا الصالحين ..

كما أن النفس تزعم التوكل (١) على الله ، واستعاط الدبير منه تعالى ، والثقة به عز وجل .. ما دامت في خاد الراحة والنعم ، ووافقتهم الأسباب ، ولم تنازعها في حظوظها وما تبغى من الشهوات .. فإذا عرض لها عارض .. وتغير الحال ، استشيرت في أمر يحتاج فيه إلى الانجاء إلى التوكل تعلق بأطمارها للشهوانية ، وتشبعت بأحوالها الدنيوية .. ومالت إلى حظوظها البشرية .. ووافقت الخلق ليعق لها عزها وبجودها ، وابتعدت عن الحق وبها وبهاقا .. وانسدت التوكل ، وذلك بترجيح العمل على إشباع لذاتها ، ووافقت حجابا بين الإنسان وتوكله ، كأنها لم تكن هي الداعية إليه ..

فإذا حاسب الإنسان نفسه على مذموم أفعالها ... وعرفها بحقيقة ربايتها ، ووعظها ... فعمل على تسليتها ، وداوم على تأييدها على إقتراف المستكرهات التي تقودها إلى الهلاك ، وذكرها بوعده الله ووعيده .. وما يسأل عنه غدا .. وعاون العقل الراجح في هدايتها ، فزجرها وأيقظها من غفلتها ، وأبان لها طريق الخير الفاضل ، واليقين الذي لا مرأ فيه ، وأثبت لها الفؤاد بالبصيرة النافذة ذلك جديما وتحققت منه .. وقهرها بالحجة الدامغة .. وجنت بعد طول عناد عن شهواتها الظاهرة ومطاميرها العاجلة التي لا تسبيح ..

لكن النفس مع ذلك لا يأمن (١) لها حيث أنها تتظاهر ولا تخلص وتوافق العقل لفترة حتى تغوى عليه ، فتزى بزي المتقين ، وتستر خوفها الافتضاح ، فإذا أحيل بينها وبين الشر الظاهر ، وافقت وتظاهرت بعمل الخير إلى حين ، رغم أنها تميل إلى الشر الباطن ، فهي مخادعة مرائية .. لا يعتد بكلامها ، ولا يثق

(١) الرعاية — ص : ٢٩٢ وما بعدها

(٢) المرجع السابق

في وعودها .. فهي تريد الدنيا وإن تظاهرت بحب الآخرة ..

لأن في معرفة الإنسان لنفسه وحذره منها ، ويقظته في قلبها ... ضرورة ما بعدها ضرورة لتحقيق الصحة النفسية .. فالنفس إذا غفلت سكنت إلى الراحة والحلول ، وإذا ليقظت تازعت واضطربت لتشتغل الإنسان عن معرفة الله ، كما أن هراها هو الذي يتهر العقل فيغفل وهي كعدو متربص لك لا تقدر أن تقتله ولا تستطيع منه هروبا ، فأماها لا تلتزم عند حد ، مثلها كمثل رجل له ابنين هما النفس والعقل ، لا يستطيع التخلص من أي منهما .. إذ هو مطالب برعايتها وأعمالها ، وبينما هو قائم إذ بأحد ابنيه « النفس » يحضر حجرا ليهشم رأسه ، وإذا بالابن الآخر « العقل » يوقظه وينبهه ، فيقوم من نومه لينتقف الحجر من الساعى إلى قتله .. ويلقى بالحجر بعيدا ، إلا أن الأب لا يستطيع الانتقام من ابنه .. يقتله .. وإن قرر تأديبه على فعلته ..

والأب الحكيم يجب أن يكون حذرا على الدوام عن شرع في قتله ، متمما له في أفعاله ، متشككا في كلامه مقررا بالفضل لمن نبهه وأيقظه .. وبذلك يسلم من كيد النفس .. أما الابن الثاني فعليه أن يحسن الظن به لحسن صنيعه عندما نهجه من موت محقق ، وخطر داهم ، وبذلك يسلم من كيد النفس اللوامة ..

وإذا استنامت النفس بعد طول مكابدة ، وشفيت من أمراضها بعد عناء الجهادة ، وإذا عرفت الحق وحظيت بالجنة - فضلا من الله ورحمة - اقتربت من الله خوفا وطمعا ، وهرعت إليه ثقة وتوكلا ، وأقبلت على طريقة تعالى وجاء وأملا ..

إذا عرفت نفسك إذن عريتها من قناها المستتر ، وكشفت زياها المستعار ، وتأكد لك ما استهدفه من حيل ومحاولات لرافقة الشهوات ومبا تفتن فيه

لتحقيق حظوظها ، وبذلك تأمن شرها وشرورها .. فلا تقدر أن تأب بك ،
وتجعلك هداها ، تسيرك كيفما تشاء ، إذ أنك عندما تصدقها النصيحة لا تنافها
ولا تداهنها فتكون بذلك حاكما لها ، سيدا عليها ..

فأفضل ما تفعله أن تفتش (١) عن نفسك ، وتتهمها فيما تجهله عنها من غامض
أحوالها ومن مستور كيدها ، وتظاهر لقراءها ، وتناقض أفعالها ولا تياس من
رحمة الله ، ولا تقنط وتسلم فيقطع عنك الرجاء ..

وإذا أقدمت على الخطأ فاطلب العفو ولا تشكك في واسع رحمة تعالى بل
عليك أن تلجأ إليه طالبا العفو والصفح ، عهد ملزم له تعالى بتحقيق عفو وصفحة
وإنما تطلب منه وأنت عائف عدم تحققه ، راج تحققه ، ومن يخاف ، يعفو الله
عنه ، لأنه صدق في رجائه ، ومن الزم الله بتحقيق مطالبه فقد كذب في ادعائه ،
واغتر بعفوه ورضائه .. ومن اغتر بالله .. غضب عليه .. ومن غضب عليه
فإن يعفو عنه ولن يصفح عن سيئاته . لأنه لم يعرف الله حق معرفته ..

الطريق الحق لحاسبة النفس إذن أن تخاصمها ، كما تخاصم عدوك الظالم ، البليغ
الحجة ، القوي البيان ، المعتمد بنفسه الظالم المتزين بالكاذب وعليك ألا تصالحه
حتى يرجع عن غية بهسد أن تكشف أمره فإذا كدفته فقد عرفته ، وإذا عرفته
إنه ارت حجه ، وفقد أسلحة الغواية واستسلم لك بالكلية ..

وإذا تكبرت النفس وتجبرت فارفع أمرها إلى الكتاب والسنة ، وهما الحكم
العدل .. وبها يحسن تأديبها ، وبها تقام عليها الحجة ، وينزل بها الحد الواجب
الاتباع من الوعظ والحبس والضرب ، فترفع عنها بذلك الرياء والكذب والحنث

والضلالة .. وتقطع مآذيرها ، وتترقب عن ادعائاتها وعليك ألا تتوقف عن
تهذيبها وتربيتها إلا إذا انقادت النفس إلى الحق وتبعت طريق العدل والاعتقادات
ولم يكن لها بد إلا الأذعان والندم والعزيمة .. والاستمرار مع الحق تعالى ، ورغم
ذلك فعليك ألا تتغافل أو تنفل ، وإنما عليك أن تكون حذرا منها .. مترجسا
من أن تعارذ الخرج إلى طريق الهاتل أو الميل إلى الهوى واتبع
الضلالات .. (١)

عليك أن تهديها بين الحين والآخر بالهذاب والقصاص إن فكرت في الرجوع
إلى الظلم والغدر ، وأظهر لها أبواب العطاء والثواب أن استمرت طائفة مغلصة ..
واستعن بالله عز وجل في محاسبة نفسك ، وتوكل عليه في كل أمر من أمورك ..
وأحسن الظن به تعالى .. تفوز فوزا عظيما ..

الفصل الثالث عشر

معرفة النفس

من الموازين الدقيقة التي يستخدمها علم النفس الإسلامى لمعرفة حال الإنسان في الحياة الدنيا والآخرة ، استجلاء الإنسان دخيلة النفس ، وحبر غورها ليتبين صدق وكذب دعاويها ، ويستهدف هذا التقييم معرفة حقيقة مقام النفس . .

فالإنسان يستطيع أن يزن بهذا الميزان قدره . . ومزله . . بعداً . . ولرباً ، ورعاً وغروراً ، إخلاصاً ورياءً . . ولا يتطلب هذا الميزان إلا الصدق والإخلاص في معرفة حال النفس . .

فإذا تسأل الإنسان عن حاله . . ومقامه . . أجابه المربي إذا أردت أن تعرف مقامك ، فانظر ابن تعالى أقامك (١) ١١ فإذا كانت منزلة الله في قلبك عظيمة كان مقامك عظيماً . . فحبك لله المقياس والميزان والمعيار .

فالحكم هل أفعال العبد وأعماله يمر بامتحان ما يظلب على قلبه ، وما ينفو إلى حبه . . وما يكرمه . . وعن طريق علامة القاب ومرحه يعرف مقام النفس . .

فإذا وجد الإنسان نفسه وقد أقامها — الله — على حب الطاعات ، وأصبح عليها نعمة الامثال لأوامره ، ورضاؤه الدائم لحكمه وقضائه . . عرف الإنسان بقربه من الله ورضاه عنه ، وأنه تعالى قد أحبه لأنه يسره إلى طاعته :

(المائدة : ١٨)

« رضى الله عنهم ورضوا عنه . »

(١) الشيخ عبد الحميد الشرنوبى — شرح تائيه السلوك ص ٧٢ وما بعدها .

أما إذا وجد قلبه مشغولاً بمحتاج الدنيا الرائل ، راعياً في حظوظها وشهواتها
ولذاتها ، شرها في الاستزادة منها ، فعليه أن يطلب من الله الرحمة ، ويسارع إلى
الخيرات ، ويخالف حظوظ نفسه ومجاهتها التي لا تسبغ إلا أنه بعيد عن الله ،
حيث يظن القرب . . غافل عنه حيث يتوهم الرضا . .

وهذا قياس فريد لحال النفس ، يفترط في المستجلى عدم الرباء ، حتى يصدق
ميزانه ، ويتمكن به الإسراع في إصلاح حاله . . فإذا كان غافلاً ، فعليه أن يزيده
من طاعته ، وإذا كان ذا كراً ، فعليه أن يحمده الله ويشكره على نعمته . . وإذا
كان خائفاً عليه أن يرجو الله ويثق في وعده .

القاب إذن مقياس دقيق (١) . . والمدار عليه في الحكم على النفس ، فإذا
وجد المستجلى حب الله في قلبه عظيماً ، فإن مقامه عند الله عظيم ، وإذا وجد
في قلبه اعتراضاً ، فعليه أن يتهم نفسه ، ويتشكك في دقايقها ويعرف أنه عجوب
عن الحق ، وعابها أن يرفع سيف المخالفة ، ويبدأ بالرياضة والمجاهدة ، ويستقل
التدبير مع الله ليثوب عن اعتراضه . . وغروده بنفسه ، إلى أن يتخلص من هذه
الآفات ، ويشرف قلبه بالانوارانية ومحبة الله . .

والنفس لا تصدق ، والقلب لا يكذب . . والله — سبحانه وتعالى — يعرف
ما في نفس كل لسان ، إذا كان يسير في طريق الطاعات أو في حصى الضلالات
والمخالفات . . .

وفي ذلك يستفنى عيسى بن مريم — عليه السلام — قلبه ، ويتم نفسه كما
ورد في قوله تعالى :

(١) العريضة والخليفة — عجائب القلب ص ٥٧ — ٧٠ .

« قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، إن كنت قلته فقد علمته .. تعلم ما في نفسي ، ولا أعلم ما في نفسك ، إليك أنت علام الغيوب .. »

(المائدة : ١١٦)

أي صادق .. يعرف مقامه كعبد .. ويعرف أن الله وحده هو الرب .. ومالكه .. وخالقه وأنه تعالى وحده العالم بما في نفسه ، فكيف لا يطيعه وهو موجداه وكيف لا يخلص له وهو سيده ، فلا يمكن أن يترشح على فضائه وحكمته ، لأنه مشغول أبداً به ، مستقط لتدبيره معه ، فلا تدبير إلا له تعالى ، يفعل ما يشاء ، يذهب من يشاء ، ويفقر لمن يشاء :

« إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك العزيز الحكيم .. »

(المائدة : ١١٨)

لقد استجلى عيسى - عليه السلام - قلبه ، فوجدته سليماً مع الله ليس به شبهة اعتراض ، ولا تهمة اغترار ، ليس في قلبه اعتراض أنه فهو طائع على الحقيقة ، عارف بمقامه ، لا يتعداه ، يعرف أنه عهد الله بهما أفاض عليه من النعم الظاهرة .. والباطنة ، مخلوق ضعيف إلا به تعالى محتاج إليه على الدوام ، مفتقر إليه على الاستمرار ، يسره - سبحانه - حسب مشيئته وينعم عليه حسب فضاله ، فهو متقلب في رحمته .

والإنسان في حاجة دائمة إلى هذه الوقفة الفاحصة ، بين الحين والحين اراجع نفسه ، ويستغنى قلبه ، حتى لا يغفل ويتعجب ، أو ينسى ويفتر أو يتعد لاهياً متوهماً .. إنه يسعى في طريق الحق وهو يتخبط في هوى النفس ، ويصدق في جميع البعد .. ويتردى في ظلة القنوط واليأس ،

ولقد اشتهر (١) نفس أحد الصوفية السفر إلى الجهاد ، وألحقت عليه .
 فقام لها . . فوجدوها ترجو لذة في هذا الجهاد . . فتعجب من أمرها وتشكك
 في طلبها ، واتهمها بالرياء . . ثم إنه استغنى قلبه واستنار وبه . . فلم إنما نفسه
 تريد هذا الجهاد لا لصدق نواياها ، ولا لإخلاص في عملها . . وإنما هروباً
 من تحمل عبء العبادات ، وعن المجاهدات ، فتعدت من كثرة المكابدة
 والمخاضة حيث أن صاحبها يقتلها كل يوم مائة مرة . . فأرادت أن تقتل مرة
 واحدة . . بعد أن يمت من التعم بالراحة والخلول وإشباع الحظوظ والذات . .
 ولم تهند طريقاً آخر سوى مطالبة صاحبها بالجهاد . . .

عند ذلك كشف الصوفي عن دعوها الكاذبة بخالفه العبد لعدوه ،
 وحبسها في زارئة الطاعات والزمها بالآداب والعبادات ، وعلاج ما ألم بها من
 آفات . . وعمل على تهذيبها بمختلف الرياضات ، وتربيتها لعلاج ما ألم بها من
 نقائص ووعورات . . .

الباب الرابع

استخدامات علم النفس في المجالات المختلفة

مقدمة :

إن الصعوبة الأولى التي تواجه الطبيب النفسي ، ترجع إلى عدم جلاء البراءات في سلوك الفرد ، وكذلك إلى الأسباب الخفية التي تجعل النفس تميل إلى العدوان أو الكراهية أو الانطواء أو الانبساط . . إلى غير ذلك من صفات النفس وأوصافها البشرية .

كما أنه لا يمكن تفهم طبيعة الشخصية الإنسانية بمجرد التأمل والنظرة المتفحصية ، أو حتى بطريق التجريب المعمل ، أو القياس العقلي ، أو التحليل النفسي ، إذ أن الدراسات النفسية التحليلية والتجريبية والقياسية ، إنما تصلح فيما يتعلق بالمادة الجامدة التي يمكن أن تصدق عليها أو تكذب . . . حيث أن المادة يمكن تحليلها ونجزئتها إلى شرائح ، ومن ثم يمكن عملياً إجراء التجارب عليها والبرهنة على صحة الفروض المقننة مسبقاً .

أما النفس الإنسانية فهي عالم عجيب ، يتغير في كل لحظة مثل حقيقة تنغير ألوانها وأشكالها وطرقاتها ، فن يدخلها أول مرة لا نعرف طريقة إلى الخروج منها ، نظراً لتغير ألوانها وأشكالها تغيراً مستمراً دائماً ، فتكيف يمكن الباحث سبر غور هذه النفس ، وتشريحها إلى شرائح ، وافتيتها إلى أجزاء ، كما يتم ذلك بالنسبة للمادة الجامدة والأشياء والموضوعات الخارجية مستخدماً المناهج العلمية والتجريبية والمعملية . . وكيف يمكن أن تخضع دراسة النفس لهذه المناهج بقصد الوصول إلى نظرية تفسر الشخصية الإنسانية .

إنه لمن المستحيل دراسة النفس دراسة سائمة ومتكاملة خارج إطارها النابض بالحياة ، وبمبدأ عن تفاعلها مع الذات ومع الآخرين عند توافيقها وتكيفها وتناقرها وتوحيدها وجنوحها والتضابطها مع البيئة والمجتمع .

كما أنه لا يمكن دراسة النفس إلا في مثلها بالمعايير الخلقية ، وارتباطها بالعقيدة الدينية ، بل وأيضاً حين انغماسها عن القيم وانحرافها عن معرفت وفي تحررها من المبادئ والمثل العليا .

وهذا يتطلب من عالم النفس أن يكون أخلاقياً بالضرورة ، ظاهراً وباطناً ، فكرياً وعملاً ، ليتعرف على الوسط العدل الواجب اتباعه ، والخير الفاضل التي تتصف به النفس المتكاملة ، حين تكتمل لديه المعايير السليمة ، والموازين الدقيقة بذلك يمكنه أن يصف بصدق حال النفس عند التشخيص والعلاج - ومن هنا تمكن قدرات المعالج ونجاحه وفعله ... الذي يرتبط بصفات غالبة وأوصاف ثابتة ، تتميز بها النفس موضوع الفحص والدراسة ، فشلا لا يمكن الحكم على شخص في موقف دفاع عن الدين أو الشرف أو العرض أو المال ، بأنه عصبي المزاج ، لأن هذا الموقف مؤقت ما يلبث أن يرجع صاحبه إلى طبيعته الأصلية من الحسنة والتسامح ، وكذلك لا يجب أن نحكم على فرد بأنه انطوائي من مجرد انسحابه من المجتمع وانعزاله عن الناس ، إذ قد يرجع سبب ذلك إلى ظروف مؤقتة أو حوادث ألمية ما تلبث أن تنتهي آثارها ، ويرجع هذا الفرد إلى طبيعته الأصلية .. وكذلك الحال بالنسبة للشح والبخل والمكرم والجود والسخاء .. وجميع الطباع ..

إن عالم النفس لعجيب حقاً ، يركن الإنسان فيه أحياناً إلى التقليد والمحاكاة والعادة ، ثم يتمرد حيناً على الحس والمحسوسات ، وكثيراً ما يطغى الفرد ويختل

بإستخدامات العلم وإستنباطات العقل ، ويتطاع إلى موازين كمية ، وأحكام
تقريرية مخالفاً ما تلقته من مفاهيم واعتاد عليه من عادات وتعلمه في مجتمعه وبنيته
من أخلاق ، . . بيد أن النفس لا تقنع في بعض الأصول بعد سيرها في طريق الإيمان ،
واكتسابها الصدق والإخلاص بأحكام العقل وموازينه ، وإنما تطالب ما هو
يقين يمثل الحق والصدق فتلهم بالحقائق - منة من الله وفضلا - . يعلم لأن حسب
حالتها من المجاهدة والرياضة ، ربما أودعه الله فيها من حكمة ، فتدرك ما لا يدركه
الحس والعقل جميعاً ، وتتجلى عليها الأنوار . وتفتح لها بعض الأسرار ، وينعم
عليها بالرقى وتبشر بالإلهامات ، وتهظى بالفراسات .

إذن ليس هناك حكم واحد على النفس ، يصمد كوصف لها في مقاماتها
المختلفة ، وإنما يجب أن تعرف النفس من خلال أحوالها التي هي مواهب ،
ومقاماتها التي هي مكاسب ، كما تعرف في حال ظلمتها وحجبها عندما أسود مع منطلق
الشهوة وغواية الشيطان وموافقة للمناووظ النفسية . . بل أيضاً عندما تروهب
السكينة والحكمة . . .

وإذا تم وصف حال النفس في مكان إقامتها بدأ العلاج من الأمراض والآفات
والعيوب ، إذ أنه من المنعذر تعميم النتائج التي تظهر بين بعض الأفراد ، كما يفعل
علماء النفس الحديثين ، كقوثرات السلوك وأحكام عامة وإستخلاص نتائج كمية
أو وصفية صالحة لتطبيق على كل الأفراد باعتبارها ضوابط لتشخيص وعلاج
أمراض النفس ، إذ المعروف أن المعالجات التجريبية استمرت لحقب عديدة دون
أن تبرز تقدماً ملحوظاً في دراسة الشخصية .

وإذا كان كل إنسان يحمل نفساً بين جنبااته تدبر عن شخصيته ، ومعدن ذاته
إلا أن كل فرد ينزع نزوعاً مختلفاً ، ويسلك سلوكاً منفرداً ، مهما تماثلت التربية

وأشياء البيئة وشخصيات المعلمين والمربين ، ويظهر ذلك جلياً في التصرفات والسلوك الفردي وما يتبع ذلك من تباين وتناقض عند الحكم على هذه الشخصية أو تلك ، فهناك من يسمى بالانعزالي أو الانطوائي وهناك الانبساطي ، كما أن هناك المتصلب والعدواني والأتاني ، وذلك حسب كل طبع غالب ، وسمات واضحة جلية .

وحق الشخصية المتوازنة . . أو كما تسمى « السوية » ، فإنها ليست واحدة في السلوك بدليل اختلاف الحكم عليها من بيئة لبيئة ، ومن مجتمع لمجتمع ، بل في المجتمع الواحد ، وذلك حسب نظرة الآخرين ، ومن خلال القيم التي يحكمون بها عليها ، والاتجاهات العامة ووجهات النظر التي يؤمنون بها .

لذلك فإننا نقدم في هذه المعالجة بعض ما نظن أنه جدير بالبحث والدراسة أملين وضع بذرة ، عليها تنمو فتتبعها دراسات عن الطب النفسي الصوفي ، الذي اختط لنفسه طريقاً آخر في دراسة النفس البشرية غير الطرق المتبعة عند علماء النفس المحدثين والتي تعتمد في دراساتها على المناهج العلمية والحسية والموضوعية والكلينيكية والتجريبية ، فلقد تعددت هذه الدراسات واختلط بعضها ببعض ، بل وتناقضت الآراء فيها ، وتضمنت الأبحاث الجزئية والتطبيقية حتى صعب التفهرس والتشيد ، ووقف الناس يعتقدون أن ذلك هو الأسر المتكامل ، والعلم الحق ، بل العلاج الناجح لكل ما يعانونه من عذاب وبأس وآلام فيحسبون كل ما يقدم في ثوب جديد ، ويترددون على كل قديم ، ويشورون على كل شيء ، ويلتحفون بكل مستحدث ظهر هابش . . . إذا كان هذا الجديد يوصلهم إلى الهناء المقصود ويأق بهم في حياة أكثر شقاء وتعاسة ، فهم غير حريصين على التأمل في هذا الجديد الذي يقدم لهم ، والذي يمكن أن يؤدي بهم إلى شط الانهيار أم أنه سيكون مجلبة للبأس والمرضى والحسرة والخسران .

ويستطيع الإنسان أن يدرك بذاته بما وهبه الله تعالى من العقل .. أى أنه
يأمل ذاته ويعرف أين يقف من طريق الله ، فالإنسان حجة على نفسه ، وهذا
وارد في قوله تعالى :

« بل الإنسان على نفسه بصيرة » .

(القيامة : ١٤)

فإذا تناقل الإنسان ، فإنه يصبح كالأعمى لا يبصر شيئاً ، ويحجب عن العلم
والمعرفة ، وفي ذلك يقول تعالى :

« فمن تكف فإنما تكف على نفسه » .

(الفتح : ١٠)

ومعنى ذلك أن الإنسان يمكنه أن يتعرف على الحق ، لأن آيات الله مبصرة ،
ليها الحق الواضح الجلى ، إلا أن الذى يتبع هوى نفسه ، وينزع إلى غواية
الشيطان فهو ضال ، قد تكف بفهد الله ، لمرض في قلبه أودى به إلى الضياع
والخسرة ، والله سبحانه وتعالى عالم بالنفس البشرية ، ويدرك لأفانها وعيوبها ،
لأنه مرجهما وعالقتها ، وفي ذلك يقول تعالى :

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » .

(ق : ١٦)

والوسوسة إنما هي خاطر شيطاني ، ناتج عن غواية الشيطان للإنسان ونجاحه
في استغلابه إلى حربه ، وذلك بتجسين أفعاله السيئة ومساعدته على الرياء والشرك
وعدم موافقة الله سبحانه وتعالى ...

فالنفس والشيطان يأمران الإنسان بالمعصية ، ويحثانه على التعجب والتكبر

والنجبر والعظمة والعدوان على الآخرين ، كما ورد في قوله تعالى :

« وكذلك سولت لي نفسي » .

(طه : ٩٦)

واقفه يعلم ما يخفى وما يظهر ، وأعلم بالنفس البشرية لأنه خالقها ، لذلك أرسل الأنبياء والرسل ، لنصح البشر وهدايتهم ، لما فيه صلاحهم وسعادتهم ، لأنه يدرك أن النفس تنزع بها فطرت عالية إلى الأهواء والحطوط ، فوجب تقويمها وتوجيهها عن طريق وحى الأنبياء ، وذلك وارد في قوله تعالى :

« ربكم أعلم بما في نفوسكم » .

(الإسراء : ٢٥)

فإذا اتقى الإنسان ربه ، وأصلح عمله ، واتباع إرشاد الأنبياء واقتدى بالرسول ﷺ — فهو من الفائزين ، أما من البع هوى نفسه فقد ظلمها وأساء إليها ، وذلك وارد في قوله تعالى :

« من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها » .

(المائدة : ٤٦)

وإذا حاول الإنسان أن يتظاهر بقوة الله ، وامكن باطنه خرب برهم أن ظاهره قد يخفى قلبه المريض ، فإن ذلك لا يخفى على الله وسبحاسبه عليه حساباً صديراً ، وذلك وارد في قول عز من قائل :

« وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » .

(البقرة : ٢٨٤)

أما إذا ظهر الباطن وأصبح الظاهر والباطن صرياً ، فإن الإنسان يشرق

قلبه بالحق ، ويحسن لنفسه ، وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى :
 « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم » .

(الإصراء : ٧)

فالإنسان في كماله وانحداره ، وفي علمه وجهله ، وفي ضلّته وقرته في تكاسله
 وجهاده ، وفي انحلاله وورعه ، واضح لله وضوحاً جلياً ، محكوم عليه بحسب
 عمله في الدنيا ، وبحسب ما وعده به الله في الآخرة ، والإرشاد والنصيحة والمغفرة
 والتسامح موجود أيضاً في خطاب الله تعالى ، ليعيد الإنسان تأمل ذاته ، وليعبر
 رحلة الحياة سالماً غانماً ، ويكتب له التوفيق والفلاح ويبلغه العلم والحكمة ،
 فيخاطب الله - سبحانه وتعالى - عباده فيقول لهم :

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » .

(الزمر : ٥٣)

« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین » .

(الأعراف : ١٩٩)

« قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » .

(المؤمنون : ٢، ١)

(هود : ١١٢)

« فاستقم كما أمرت » .

« أنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

(يوسف : ٩٠)

(الحجرات : ١٢)

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

كل هذه الآيات إنما تبين للإنسان السلوك الصواب الذي يجب أن يسير عليه

في حياته حتى يصبح له منها غاية ، فإذا تم له ذلك ، حظى بالحكمة ، وهذه هي الواردة في قوله تعالى :

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » . (البقرة : ٢٦٩)
فكيف نقتبع إذن ، في وصف النفس البشرية منهج أصحاب علم النفس الحديث واجتهاداتهم التي تهت عقمها فبدل أن تشفى الإنسان وتساعد على انتعاج الطريق المستقيم ، وتيسر له الحياة ، أمرته بكثرة ما أظهرته من عيوب النفس حتى تراكت عليه فازداد لسان العصر شقاء وتعاسة وتعقيداً ...

لقد كانت النتائج التي توصل إليها علم النفس بفروعه المختلفة كما يقول أحد العلماء وهو (إيريك) ولم يقدم علماء النفس الاكاديمي والاطباء النفسيين إجابة شافية على تساؤله الذي يقول فيه : إن معدل شفاء العصاةيين ثابت فعلياً ، سواء هملوا بالأساليب المختلفة للعلاج النفسي المعروفة أو تركوا دون علاج (١) .

ولقد صدق (إيريك) فيما أورده عن علم النفس الحديث ، ذلك أن الإنسان لا يمكن تصوّره كطبيعة واحدة ، يمكن قياسها والحكم عليها ، فليس سلوك الإنسان من النوع الجامد الذي تحدده الغريزة ، كما يدعى (فرويد) وتلامذته على نحو ما يجده في المستويات الدنيا من الحياة ، كالحياة الحيوانية مثلاً ، ولا يمكن وضع الشخصية الإنسانية في قالب جامد ودراسةها وبحوثها ، إذ أن الإنسان قابل باستمرار لأن يبدل من سلوكه ويغير من اتجاهه ..

ليس الإنسان إذن جامداً في سلوكه وتصرفاته وإنما لديه المرونة السكافية ، والقابلية للتغير ، لما يمتاز به من ذكاء ، وهذا الذي يجعل عملية التطبيع والتلقين أنواع جديدة للسلوك ممكنة ..

(١) د. سيد غليم — سيكولوجية الشخصية ص ٢٩٦ .

أن القابلية للتغير في الإنسان تجعل لشخصية الفرد طابعاً متغيراً ومستقلاً عن غيره من الأفراد ، بل ومتغيراً كل التغير عن غيره ، وإذا أردنا أن نعتمده داخل قوالب ومقاييس جامدة ، فالتنا أن نستطيع بحق أن نحكم على الشخصية الانسانية ، ذلك لأننا يستحيل علينا أن نقبأ بالسلوك المقبل أو التصرف العالي لهذا الفرد أو ذاك ، فرغم وجود بعض أخطاء في سمات وأنماط بعض الشخصيات فالتنا رغم ذلك لا يمكننا التعرف عليها واحداً حكم عام بشأنها جميعاً ..

لذلك فانه من الخطأ الفاحش وضع تعريف محدد للشخصية الانسانية لانه كما اشرنا ، أن كل شخصية تختلف عن الشخصية الأخرى ، حتى أن علماء النفس أنفسهم قد اختلفوا في التعاريف التي وضعوها للشخصية اختلافاً بيننا ، إذ يوجد حتى اليوم أكثر من مائة تعريف لها ، ليست الشخصية على الحقيقة واحداً منها ..

والواقع أن النتائج التي توصل اليها علماء النفس كانت في مجملها غير محقة لأي نجاح لما تهدف اليه من علاج ، بل كانت سبباً مباشراً - بما طبقته من مناهج عليية وموضوعية - في ضياع الأخلاقيات ، وفساد القيم ، الذي بلغ في العصر الحديث أسوأ حال ، رغم التقدم المادي الهائل في مجال التكنولوجيا الحديثة ..

ولو اطلع علماء النفس الرسائل السماوية وهدي الله في معرفة النفس البشرية وطرق علاجها لأثمرت الدراسات النفسية ، بل وتقدمت وفاق التقدم المادي بكثير ، إلا أن غرور الإنسان الحديث وتعجبه بنفسه ورضاه عن مصافقة بعض النجاحات في المجالات المادية جعله يوغل فيما هو فوق حدوده وامكانياته الحسية والعقلية جميعاً ، فأراد أن يهرب إلى ما هو غير عقلاني بتطبيق مقاييس ومناهج جعلتها

أسباباً يحاول بها أن يصل إلى أحكام قهرية في مجالات النفس الانسانية ،
 خضعت بالإنسان إلى الاتحاد والكفر ، بل إلى الجنون ، حتى أن الشائع عن
 الأطباء النفسيين هو أنهم يحتاجون قبل المرضى إلى العلاج . .

المشكلة إذن إنما هي مشكلة أخلاقية ، ذلك لأن علماء النفس يهدفون إلى فهم
 النفس البشرية من خلال تجاربهم ومقاييسهم التي ابتدعوها ، وقوايهم التي تراضعوا
 عليها دون أن يتحققوا في دراسة النفس دراسة شاملة جامعة ، لذلك فإن دراساتهم
 للجانب المأمعق من النفس البشرية كانت لجة ومتافكة ، رغم أن الله - سبحانه
 وتعالى - حدد في رسالاته ماهية النفس ووصفها وصفا كاملاً محدداً مبيناً مثاليها
 وعيوبها مما لا يحتاج بعد ذلك إلى توضيح أو تفسير . . .

لكن المشكلة تكمن في إرادة وحرور الإنسان الذي لا يريد التنازل عن
 كبريائه ، لأنه يربط بين إرادته وبين حريته ، بمعنى أنه يريد أن يختار وأن
 يحدد ويفسر بل أنه يتعدي ذلك ويدعى أنه يخلق ! وهذا الادعاء يقود إلى
 الضلال والتعجب والجدل ، فيجعل من العقل المسبود إلهاً يعبد . . . تقدم إليه
 القراءين ، وهي الأدوات المستعمدة التي هي في تصور العلماء المحدثين ، الوسيلة
 الوحيدة المؤدية إلى العلم والعرفان .

ولا شك أن ذلك من الغفلة ، بل من النقص الإنساني ، فالإنسان الصادق هو
 الذي يعرف حدود نفسه وقدراته ، كما أن الذي يعرف نفسه إنما يعرف ربه .
 والله - سبحانه وتعالى - يعرف كل ذلك ، ويبين لنا في آياته الكريمة
 أن النقص الإنساني إنما ينشأ عن الغفلة ، وأن الغفلة هي فطرة في النفس خلقها
 سبحانه وتعالى فيها ، وهي آفة تدبر عن الحركة ، والحركة ضد السكونية ، بل ضد
 اليقظة والفتنة ، فإذا تركت النفس لأهوائها وشهواتها ، وكنت إلى الغفلة وكثرة
 الحركة ، وانصفت بالمعديان والشهوة ، وسميت بالنفس الأمارة .

وإذا ما انتصفت المشيئة امتحان النفس لصنوف الابتلاءات لحكمة إلهية، وأمر
لدى، وذلك لتخلص من حظوظها، وتبرأ من إرادتها وتبتعد عن شهواتها
وأهوائها وفي هذا الطريق تنفق إلى موجودها ومولاهما فتعرف الحق تعالى عن
طريق الاحتياج إليه، فهو الغنى على الحقيقة .

فالنفس فتيرة بذاتها، قوية وهوية بالله... تسكن أحياناً من حال
الحركة والعجوة وتتصف بالطمأنينة والسكينة، وهذا لا يأتى إلا بطريق الابتلاء
فإذا نزلت السكينة على النفس فتكون أنجع دواء لها لأن السكينة مريد من
التوحيد والإيمان فتزهد النفس بعداً عن الهوى، لأنها ضد الهوى وضد الغفلة
وضد حركة النفس وشهواتها .

والنفس صلات فطرية أربع (١)، منطوية عليها في جبلتها، هي أصول لها
تخرج عنها حظوظها وأهواءها، تسيرها بمنتهى إرادتها إذا لم تهتد بخالفة
ومراقبة ومحاسبة، أو إذا لم تهتد بمنة وفضلا من الله لدفعها وسكونها .

وهذه الصفات الإنسية تتحدد في الضعف .. والبخل .. والشهوة ..
والجهل، وذلك مصداقاً لقوله تعالى :

« وخلق الإنسان ضعيفاً . » (النساء : ٢٨)

« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل . » (النساء : ٢٧)

« زين للناس حب الشهوات . » (آل عمران : ١٤)

« وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً . » (الأحراب : ٧٢)

وعلاج النفس من آفاتنا وأمراضنا في الطب النفسى الصوفى، إنما هو طريقة

فريدة ، وذلك بحسب الرذائل وجلب الفضائل ، أو بتخليق النفس من الصفات
المردودة ، وتخليقها بالصفات المحمودة .

وكما يشخص الطبيب البشري الممرض ليعالج مريضه ، فإن الطبيب النفسى
الصوفى أيضاً يعرف أن كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة ، إنما يكتسب بالعادة
والتعلم الرذائل ، فيتعرف عن جمادة الصواب ، ويصاب بالأمراض والآوهام .
ولذلك فإن النفس يمكن علاجها من تقصيرها ، بالتربية والتخويف ،
وبالعلم والأخلاق .

وأفضل طريقة عند أئمة الإسلام لعلاج أمراض النفس هو علاجها بعندها
فيعالج مريض الجهل بالتعلم ، والتكبير بالتواضع ، وحسب الذات بالإشارة ،
والعدوان بالسامع ، والشرة بالعفة ، إلى غير ذلك من الأمراض النفسية .

ولا يقولنا هنا أن ، نقول أن مريض البدن إنما يتخلص من مرضه بالموت
أما مريض النفس فرضه يدوم بعد الموت ، أى دنيا وآخرة ، وهذا بخلاف العلاج
من طريق التنويم المغناطيسى الذى لم ينجح كأسلوب من أساليب العلاج ، فليس
من السهل استخدامه فى جميع الحالات ، وإذا نجحت بعض الممارسات المرضية
كالهستيريا مثلاً عن طريق التنويم إلا أن الممرض لا يلبث أن يظهر مرة أخرى
فى صورة أعراض أخرى ، ولذلك استبدل فرويد طريقة التداعى الحر بالتنويم ،
والتداعى هو إجلال المريض كل ما يحسب بخاطره من أفكار ، وبذلك يمكن
التعاون مع الطبيب فى حل مشكلاته إلا أن فرويد قد ربط ذلك بنظريته فى الجنس
ربطاً منهجياً ، وبذلك جعل أمراض المصاب والهستيريا التى تصور فرويد
الجنس أساس لها .

ونحن نقسم : هل الجنس حقاً هو الغاية من وجودنا ؟ . . . وإنتا لا يمكن

أن تُدرس الشريعة دراسة عميقة دون معرفة التفاصيل الدقيقة للغاية من حياة الفرد ، وهذا الموضوع لا ينال اهتمام كثير من علماء النفس ، وبذلك لا بد في العلاج لأمراض النفس من وجود ميزان يقيمه الطبيب في علاج مريده ، ولا يصح كل دواء لكل مريد ، فمنهم من تناسبه الشدة ، ومنهم من يناسبه التوسط ، وهو يعالج مريده كلا حسب حاله ، فلا يفرض عليه رياضة نفسية وتكاليف معينة إلا بعدد أن يعرف المريد معرفة تامة ، ما يصلح له وما لا يصلح ..

فإذا كان المريد مبتدئاً ، فالطبيب يعلمه الطهارة من حلاله وغيادات ظاهرة ، وإذا كان متقدماً بشهوات الدنيا ، أو بالحرمان من الأموال والمعاشي ، فيساعده على ترك ذلك بالترين بالعبادات والتكاليف الشرعية فإذا ما تطهر ظاهره من المعاشي ، وتخلصت جوارحه من الانحرافات ، بدأ الطبيب النفس في معالجة نفس مريده من الداخل ، فيتعرف على أمراض قلبه ، فإذا رأى معه مثلاً أهوالاً زائدة أخذها منه وصرفها على الفقراء ، وخرج قلبه من التفكير فيها حتى لا يلتفت إلى شيء من المعاشي ، وإذا رأى متكبراً متعجباً ، أمره بالأعمال البسيطة التي تكسر من حدة النفس لينكسر فيه حب العزة والرياسة ، ويخضع للتواضع ، لأن الكبر هو من الأمراض المهلكة ، وكذلك الرعونة ..

وكذلك هل الطبيب النفس أن يعمل على كسر حب النظام لدى مريضه إذا كان من يزهون إلى عبادة الذات ، فيأمره بأن يقوم بتنظيف الأواني وكفن المواضع القذرة حتى تنطق في نفسه الرعونة وحب المظاهر ...

والمهكلة التي يواجهها علم النفس الحديث إنما نجمت عن ميله في إغفال دراسة الفرد على أساس أنه لا يتم إلا بدراسة المبادئ العامة التي يمكن

استخلاصها من دراسة حالات جزئية عديدة ، بل وضع معايير عامة يمكن أن
أن تطبق عليه الحالات الجزئية ومن ثم فهو يعود إلى قانون عام وليس إلى دراسة
الحياة الإنسانية الفردية رغم أهمية دراسة الشخصية المفردة .

ولذلك يلجأ عالم النفس الحديث إلى التزاحج جانب واحد من حياة الفرد
ويعتكف على دراسته بقصد تعميمه ، فهو يكتفي بجانب من الشخصية ويخصصه
بالبحث ، ثم يعود لجانب آخر ويعتكف عن دراسته . . . وهكذا ولا يحاول أن
يربط بين هذه الجوانب باعتبارها متكاملة أو متفاعلة في الفرد الواحد ، بقدر
ما ينظر إليها على أنها خصائص متشابهة في أفراد مختلفين ، وينتج عن ذلك أن
لا يوجد روابط بين هذه الأبحاث أو علاقة استمرارية في الزمان بل وليس فيها
حياة أو حركة تمثل الشخصية الإنسانية ، وإنما هي تمثل الأبحاث التي تجري على
المادة الجامدة رغم ما في الفرد من تغير وحياة .

وقد يتبع الشيخ المربي طرقاتاً فريدة ، منها طريقة التحويل والتغيير أي يعمل
على أن يغير مريده المريض عاداته المدمومة بعادات عمودة ، فإذا كان مدمناً على
شرب الخمر ، فعليه أن يحوله إلى تدخين السجائر ، ثم ينقله من حال سوء إلى حال
أخف سوءاً ، وإذا كان ممن يعانون الشره في تناول الطعام فعليه أن يأمره بالصوم
أو التقليل من تناول الطعام ، أو يأمره بشيئة الأطعمة اللذة ليقدمها إلى غيره من
المريدين على أن يحرم نفسه من تناولها حتى تقوى نفسه وتتعود على الصبر وتنكسر
بذلك في نفسه حمدة الشره ، ولا أنفج عند آفة الصوفية لعلاج النفس
من الجوع ...

وهكذا يتبع الشيخ المربي طرقاتاً فريدة متفرعة في علاج مريديه من كافة
أمراض النفس الصوفية ...

والأساس في تربية النفس هو الوفاء بالعزم ، فإذا لم الإيمان على تغيير طبيعته وذلك بترك الشهوة ، فقد تيسرت الأسباب فيلبيح أن يصبر ويستمر ، فإذا اعتاد ذلك أصبح طبيعياً فيه واختياراً ، أما إذا ترك العزم ألقت نفسه ذلك ففسدت ورجعت إلى حالها الأول . . .

لذلك يجب إذا نقض المرید عزمه أن يعاقب نفسه ، ويغير العقاب والمحاسبة تفسد رياضة النفس وينحرف المرید عن الصواب ويقع في الهواجس والأوهام والأمراض . . .

واقعد اتضح من البحث أن هناك علاقة بين التوحيد الإلهي وبين علاج النفس الإنسانية ، فالتوحيد هو معرفة تشرق بها النفوس فتجلى عليها الحقائق والأسرار وتأتي إليها المعارف ، فتهدى إلى الطريق المستقيم والقيم العليا فتعرف النفس على مكاسبها ومثالبها ، وتظهر بالتوحيد من هيوبها وهواها وآثامها داخل إطاق التربية والتخلق وترويض النفس ، ذلك أن التوحيد احترسك مع الله تعالى في كل أمر من الأمور فتعقد إرادة العبد مع إرادة الله تعالى ، فيكون الحق والعلم والمعرفة جميعاً .

وفي الطب النفسي الإسلامي ، تظهر النفس في صورتين ، نفس أمارة ، ونفس مطمئنة ، ولكن مع ذلك توجد درجات أخرى ومقامات لنفس مختلفة .

وتتميز طبيعة النفس الأمارة بالتغير والتقلب والميل إلى المحظوظ والركون إلى الأهواء ، أما النفس المطمئنة فتمتاز بالسكينة والرضا والثوكل والإشمار والصبر على الابتلاء وإسقاط التدبير مع الله ، فتصل إلى أعلى الدرجات والكمالات الأخلاقية ، فلا خوف ولا قلق ولا ضياع ولا حجب ، إنما أمل في الله . . . وقه وبالله . . . ومن الله . . . أما طامة الناس ، إنما تسيرهم مقتضيات العادات ومألوف

الطبائع فيهما ون على أخلاقيات مجتمعاتهم ومحاكاة سلوك ذويهم . . . وذلك بحسن ظنهم بهم وثقتهم فيهم ، فيشعرون بما يشمر به آباؤهم من مشاعر فصح وينفعلون بما يفعل أقرانهم به من انفعالات مختلفة . . .

والإنسان يأخذ العادات المتبعة على أنها الحق والصدق ، ويتبع ما يكتسبه منهم من علم وخبرة حتى ترسخ مكتسباته وعاداته في نفسه ، ومن ثم يتطبع بها وتصبح آخر الأمر طبعاً فيه وخلقاً ، لا يجد لها بديلاً ، لأن ذلك ما تعلمه وتلقاه وخبره أو ما أحبه وارتضاه وألفه .

ويأتي دور الشيخ المربي مع مريده المريض وهو دور فريد حقيقياً في مجال العلاج النفسي ، وذلك — كما شرحنا آنفاً — بمساعدته على تخليق نفسه من الرذائل وتخليتها بالفضائل ، وهذا هو العلاج الحق الذي يخلص المريض نهائياً وبلا رجعة من الحصر والاضطراب والوساوس وحسب الذات وجنون العظمة ، بل من الفصام والأمراض المستعصية .

كما أن أهمية العلاج النفسي العوفي ، إنما تكمن في اتباع آيات الله البينات والقدره الحسنه في شخصيه الرسول — ﷺ — وذلك أن الله تعالى يقول في كتابه العزيز :

« وأما من جات مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ، .
(النازعات : ٤١)

« إن السميع والبصير والنفاد بكل أولئك كان عنه مستولاً . . .
(الإسراء : ٣٦)

« ولا تمشي في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً . . .
(الإسراء : ٣٧)

« ألن أسس بليانه على أقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بليانه على
شفا جرف هار . . » (التوبة : ١٠٩)

فانه سبحانه قد عرف الإنسان بالطريق إلى الصحة النفسية والتي تصلح له
في الدنيا والآخرة ، فتخلصه من الأمراض والآفات ، وتحليه بالمكارم والأخلاق ،
وهذه المعرفة أساسية لأنها موقف علم بين متناقضين « فلا يزني زان وهو مؤمن » ،
إذ أن الإيمان معرفة أي موقف علم حقيقي ناتج من حقيقة سابقة للعقل الذي
يفصل بين الحق والباطل ، ثم أنه اتخذ الحق سبيله ، وترك الباطل . . .

النفس الأولى

الرياضة النفسية

النفس إذا تركت دونها تهذيب وتربية وتأديب ، انصرفت عن الاستقامة وسارت في طريق الغواية ، واندفعت إلى الفجائص ، وابتعدت عن السواء ، واغترت بشيطانها ، فتزاحمت عليها الخواطر المذمومة ، واحقبت بها الكبرياء والتعظيم ، وغلبها الرياء والنفاق ، فتدور في فلك الأهواء ، وتتقاذفها أعاصير الومس والقلق والاضطراب ، وأحاطها الخوف والرعب والفرج إلى الحق والحمد والمدح والإسفاف .

وبذلك تهاج سفينة النفس في بحر متلاطمة أمواجه ، لا شاطئ له ، فلا تنقش من ضياعها إلا برحمة الله .

ويرى بعض الآتمة (١) أن الفساد يدخل إلى النفس من جهات ثلاثة :

١ - سقم الطبيعة :

ومعناه أن تكون طبيعة الإنسان منحرفة ، غير معتدلة .

٢ - ملازمة العادة :

والمقصود هنا العادات المرذولة التي لا تنفخ والقيم العليا .

٣ - فساد الصحبة :

وهو ترجمة صحيحة اغواية الشيطان والرغبة في فعل المنكرات .

ويتمكن سقم الطبيعة في أكل الحرام ، كما تظهر ملازمة العسادة في النظر والاستمتاع بالفواحش وفي الغيبة والنميمة ، وأما فساد الصحة ، إنما يكون في اتباع شهوات النفس عند احتياجها ومسايرة تمن النفس وإسلامها في المذات المحرمة ..

ومن آفات النفس حبها إلى المدح والثناء المذموم والذكر الطيب ، وثناء الخلق ، وربما تتحمل أفعال العبادات ومدافق الطاعات لهذا الهدف بعد أن يستولي عليها الرياء والنفاق .

والدليل على ذلك أن النفس ركن إلى الكسل وتستهدف الفضل عند ما ينقطع عنها ثناء الناس ومدحهم ، أو عندما تدم وتلتفت أفعالها وأعمالها .

ولا يستقيم الإلسان آفات نفسه وداعائها وكذبها إلا بامتناعها ، فيما تدعيه من حق وصدق وعدل ، فإذا امتنعت النفس رقت الصدقة والخوف ، تهماها ما كنه .. آمنة .. بل أنها تتحدث حديث الأبرار ما لم تتغن بالتقوى ، وإذا طالبت النفس بشروط التقوى وجدتها مشرقة ومراعية ، مغرورة ، كما أنها تدعى العرقان فإذا طالبت منها ذلك وجدتها كاذبة كدوبة ، كما أنها تدعى الإخلاص وتزعم أنها من المتواضعين فإذا امتنعت عند الغضب وجدتها متجبرة ومتكبرة ظالمة .

ومن الدعاوى التي تدعيها النفس لذاتها .. السخاء .. والكرم .. والبذل والتمنى .. والفتوة .. وغير ذلك من الأخلاق الحميدة فإذا ما طالبتها بترجمة ذلك إلى أفعال وامتنعتها ، لم تهمها إلا كسر اب يحسبه الظدان ماء حتى إذا جاءه لم يجد منه شيئاً .

ومن صفات النفس (١) . . . حجب الذين للناس الذين لا يملكون لما ضرراً ولا نفعاً ، فهي في ظلمة أبدأ إلا إذا استغاثت بصباح الاخلاص ، كما أن من صفات النفس طلب الذات السريعة دون النظر إلى العواقب .

ولعلاج هذا النقص يبدأ صاحبها بفطمها من العادات المألوفة والشهوات المرذولة ، والذات المجرمة وحملها على مخالفة ما تهوى في كل وقت وحين ، فإذا انهمكت النفس في الشهوات ، وجب إحكام لجامها بالتقوى والخوف من الله ، وإذا توقفت عن القيام بالطاعات ، ساق اللسان نفسه بسياج الخوف ، تخالف هواما ومنع عنها حظوظها (٢) .

والرياضة النفسية بجاهدة النفس ، ولا تتم المجاهدة إلا بالمراقبة ، والمراقبة هي في أن يعلم اللسان أن ربه يطلع على سره وجهه ، وأنه لن يصل إلى تمام المراقبة إلا بعد المحاسبة (٣) . والمحاسبة عملية ضبط لجنوح النفس والتزام طريق الحق ، وحفظها من الآفات والنقص . . .

والرياضة النفسية لا تتم إلا بمرقة خطال أربع :

١ - مرقة الله تعالى :

« والمرقة هنا لا تقتصر على القول والإقناع والاعتقاد بحسب بل الإيمان قولاً وفعلًا أن لا إله إلا الله ، وهذا هو خروة التوحيد . »

(١) راجع كتاب الصبر والحقيقة للمؤلف (الرباه - حب المدح) .

(٢) سيدي عبد القادر الجيلاني - الفتية ص ١٨٣ - ١٨٥ .

(٣) راجع محاسبة النفس (بالكتاب) .

٢ - معرفة عدو الله إبليس :

وتصدق معرفة الإنسان لعدو الله وعدوه بجواربه في الظاهر والباطن ،
وعخالفة كل خاطر شيطاني يهجم على النفس والتموذ الدائم من وسوسة الشيطان
وتهاويله وأباطيله ومخاوفه وأفراحه .

« إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، (قاطر : ٦)

٣ - معرفة أن النفس إماراة بالسوء :

والنفس كما سبق الإشارة لها أمان ترد تحقيقاتها وههوات لا تفيج منها وآمال
في الدنيا لا تلتقي .

« وما أبوى نفس إن النفس لأماراة بالسوء . . (يوسف ٥٢)

٤ - معرفة العمل لله تعالى :

والعمل هنا مجاهدة أو جهاد أكبر في سبيل الله .

« قال اعملوا فـمـرى الله عملكم . . (التوبة : ١٠٥)

وإذا عاش الإنسان عمراً مديداً (١) دون أن يعرف كل ذلك ، فلن تنفعه
عبادته وإن كان مجتهداً فيها ، ذلك لأنه جاهل بربه ونفسه وعدوه وعمله جميعاً ،
إذ يظن أنه يعبد الله وهو يعبد الشيطان الذي يحسن له أفعاله ويوكيها له دون
أن يهري أو يهرف !! .

ولذلك يجب أن تكون الرياضة النفسية تابعة عن المعرفة . . ولذلك يحدد
بعض الأئمة الطريق للعمل ثرياً خمسة النفسية في عشرة خصال يجب أن يتصف
بها الإنسان :

(١) سيدي عبد القادر الجيلاني - الفتاوى ١٨٤ - ١٨٥

١ - أن لا يخلف الإنسان صادقاً ، ولا كاذباً حتى لا يعود لسانه على ذلك .

« ولا تعملوا الله عرضة لإيمانكم أن تبرأوا وتقرأوا » . (البقرة : ٢٢٤)

٢ - أن يتجنب الكذب هو لا أو جداً ، حتى لا يتعود على عادات سيئة ..

يقول الرسول - ﷺ - « يظل الرجل يتجرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .

٣ - أن يتجنب أن يخلف وعده إلا لسبب أو عذر فوق طاقته ، ذلك لأنه

لا إيمان لمن لا أمانة له .

٤ - ألا يؤدي أو يعلن أحسداً من الخلق ، لأن الذي يؤدي الآخرين

يستمرى ذلك فيتولد في نفسه الحقد وحب الاعتداء والسخرية

والاستهزاء وهذا باب الجنوح عن الحق والوقوع في الضلال .

« لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » .

(الحجرات : ١١)

٥ - ألا يدعو على أحد من الناس وإن ظلمه ، ليبقى قلبه متطهراً ، تصديقاً

لقوله تعالى :

« فادفع بالتي هي أحسن » . (فصلت : ٣٥)

٦ - أن لا يحكم على أحد بالشرك أو الكفر أو النفاق ، وذلك خوفاً من

الوقوع في الاتهم .. والتعجب أو النظر إلى نفسه بعين التكامل ،

إذ ربما يكون الآخر عند الله أفضل منه .

٧ - أن يتجنب النظر والمماحاة إلى شيء من المعاصي .. ظاهراً أو باطناً

فإذا دأبته الغواية ، فعليه التوجه إلى الله وذكره تعالى لمساعدته عند

الشدة وإن يشأه تعالى ما دام صادقاً في طلبه ، وعليه أن يمسك بزمامه من
الانفدام في المعصية ، وهذا أفضل الأعمال ثواباً .

٨ - أن يتجنب ما استطاع أن يحصل الناس حاجته صغيرة كانت أو كبيرة ،
لأن الارتكان على الغير يعود النفس على الخمول والاعمال والتكامل عن السعي ،
وهذا باب للتقاعس عن حقوق الله على الانسان أن يستد بابه .

٩ - أن ينقطع نهائياً عن الطمع في نفسه وفي الخلق ، وهذا سبيل الصدق
مع الله ، إذ الطمع يولد كثرة الطلب للحفظ ، والنفس لا تشبع من الحفظ
مهما أعطيت ، فإذا اعتادت الطمع شربت الحرام ووجدت لذتها فيه .

١٠ - أن يتواضع ، والتواضع هو أصل الطاعات كلها ، وهو كال التقوى
فلا ينظر لأحد من الناس إلا ويراه أفضل منه عند الله ، إذا كان صغيراً يقول :
هذا لم ينص الله وأنا قد عصيت ، فلا شك أنه خيراً مني . . وإذا كان كبيراً
يقول : هذا صلي وصام وعبد الله قبلني فهو أفضل مني ، وإن كان عالماً يقول :
هذا أعلم ما لم أبلغ ، وما لم أعلم ، وعلم ما جهلت . . فهو أفضل مني ، وإن
كان جاهلاً يقول : هذا هو الله بجهله ، وأنا أعصى الله بعلمي ، ولا أمرت بما
يختم الله له ، وما يختم لي . . وإن كان كافراً قال : لا أدري عسى أن يسلم فيختم
الله له بخير العمل ، وعسى أن أكفر فيختم لي بشر العمل (١) .

وافد أمر الله . سبحانه وتعالى . - النبي - ﷺ - بخالفة النفس ، لأن
العبادة كلها ثقيلة على النفس التي تريد الراحة والتكاسل ولذلك لا بد من مخالفتها
لقوله تعالى :

(الحجر : ٩٩)

« وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين ، (١) »

وليس المقصود هنا شخص محمد - صلى الله عليه وسلم - على التحديد .. حيث أنه منصوص عن الأهواء ، ولكن المقصود هنا محمد الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي عليه البلاغ للأمة بالرسالة ، وهي مواصلة العبودية حتى الانتقال إلى الدار الآخرة ...

فالخطاب هنا موجه للكافة ، لأن الله - سبحانه وتعالى - أعطى الرسول - صلى الله عليه وسلم - القوة على كبح جماح النفس ، كما أسكن شيطانه كي لا يضراء ، ويصوجاه إلى الانشغال بالمجاهدة والرياسة وذلك بخلاف أمته التي عليها مجاهدة النفس ورياستها حتى الموت .. (٢)

والنفس إعطاء راحات وشهوات وفئات ، فإذا خالفتها ، كان الإنسان خصما على نفسه ، كما أوصى تعالى داود عليه السلام :

« يا داود أن تكون خصما على نفسك تحقق حيثئذ بهوديتك لله عز وجل وتأتيك الأقسام حينئذ مريضا ، مطيبا وأنت عزيز ومكرم ... وخدمتك الأشياء وخدمتك وفهمتك لأنها بأجمعها تابعة لربها موافقة له ، إذ هو خالقها ومنشئها ... (٣) »

ويقول الامام عبد القادر الجيلاني (٤) ، كلما جاهدت نفسك وغلبتها وقتلتها

(١) اليقين : أي الموت

(٢) الامام عبد القادر الجيلاني - نوح الفيب ص : ١٤٣ - ١٤٤ هامش بهجة الأسرار

(٣) المرجع السابق

(٤) الامام عبد القادر الجيلاني - نوح الفيب ص : ١٣٤

بسيف المخالفة ، أحياء الله ، فإذا بها تنازعت وتطلب منك الشهوات والذات ،
الجناح والمباح ، كي تعود إلى المجاهدة والمسايرة ليكتب الله لك ثوابا دائما وهو
ما يقصده الرسول - ﷺ - بقوله :

« رجونا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ،

لأن النفس تداوم أبدا وتستمر إلى ما شاء الله في طلب الشهوات والذات
التي لا تسبيح منها ... »

لذلك كانت الرياضة النفسية قما دائما ، وطريقا واضحا في معالجة أمراض
القلب ، وبابا إلى الصحة النفسية لخلاص من النقائص والآفات ...

كيف تتم الرياضة النفسية :

يرى الأئمة أن الرياضة كسلوك واجب التطبيق ، يجب أن يسارع إليه الإنسان
مجاهدا ، إنما يتحدد في قسمين :

١ - رياضة الأدب :

والأدب المقصود ليس الأدب الظاهري ، ولكن أدب الظاهر والباطن معا ،
وتم رياضة الأدب بمخالفة أهواء النفس وحفظها ، وهذا النوع من الرياضة
يسمى إلى سلب الأوصاف المذمومة كالكبر والغرور والرياء والشرك الخفي
والتعجب ...

٢ - رياضة الطلب :

أما رياضة الطالب فتحدد بالاخلاص ، والصدق في مجاهدة النفس ، وهذه
طريقة إيجابية في علاجها ، وذلك بتخليه النفس بالأوصاف الحمودة كالحيبة
والشفقة والرحمة والتسامح والابتشار .. ومثل بعض الأئمة لهذا النوع من الرياضة

يعلاج الجسم ، فكما أن الجسم يعالج لاكتساب الصحة وهو المرضي ، فكذلك النفس في حاجة إلى نحو الرذائل ، وجلب الفضائل وهكسب الأخلاق المسودة ...

ويبين لنا الامام الخوئي (١) الأسلوب الواجب اتباعه في رياضة النفس فيقول :

« أن كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة ، وإنما أبراه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، ذلك لأنه عن طريق الاعتقاد والتربية والتعليم تكتسب الفضائل والرذائل ، فكما أن الجسم يحتاج في التربية إلى الغذاء لينمو ويكتمل ويتقوى ، فكذلك النفس تخلق ناقصة ، ولكنها قابلة للتكامل عن طريق التربية الأخلاقية والعلم ... »

وإذا كان الجسم صحيحاً فإنه يتوجب المحافظة على هذه الصحة بتطبيق القوانين الصحية اللازمة كالنظم ضد الأمراض الوبائية مثلاً ، أما إذا كان الجسم مريضاً ، فيجب أن يعالجه الطبيب ليكتسب الصحة ، وذلك بتقرير الدواء اللازم والعلاج الضروري له ...

والأمر كذلك بالنسبة للنفس ، فالنفس الذكية الظاهرة يلزم وقايتها من الأمراض للمحافظة على حالتها من الصحة ، وذلك بتدعيمها بمزيد من القوة لتزداد صفاء ، كما أنها إذا كانت مريضة ينبغي علاجها لجلب الصحة لها ...

وإذا كان الدواء المسبب لاختلال حال الجسم ووقوعه فريسة للمرض لا يعالج

(١) الامام أبو حامد الخوئي — أحياء علوم الدين ص ١٤٤٧ — ١٤٤٨ ج ٨

إلا بعنده ، كأن يكون بالجسم حرارة ، فيكون علاجه بالبرودة ، أو يكون به
برودة فيتم علاجه بالحرارة ، فكذاك الأمر بالنسبة لأمراض النفس إذا أن
علاجها الناجع إنما يكون بالعند ، فيعالج الجسمل بالتعليم ، والبخل بالسخاء ،
والكبر بالتواضع ، والشره بالتكاف عن الاشتباه ، وإذا كان مريض الجسم
يتعمل حرارة الدواء ، ومبضع الجراح ، وترك المشتبهات والصبر عليها ليبرأ من
أوجاعه ، فكذاك الأمر بالنسبة لأمراض القلب ، إذ يجب احتمال الحرارة المكابدات
والرياضات والصبر عليها ...

والطبيب لا يستطيع أن يعالج مريضه إلا إذا تم له تشخيص مرضه ثم
يرصف له الدواء ، ومقدار هذا الدواء ، حسب حال الجسم من القوة والضعف ،
فإذا كان الدواء لرجل كبير طاعن في السن كان له مقدار ، أما إذا كان صبيًا صغير
السن كان له مقدار آخر ...

كما أن على الطبيب أن يعرف صناعة المريض وثقافته ، وسائر ظروفه
الاجتماعية ، فإذا عرف كل ذلك أمكنه وصف الدواء الصالح له ...

كذاك الأمر بالنسبة لطبيب النفس ، فإن عليه ألا يهجم على المريض
بالرياضات والتكاليف ، إنما عليه أن يتعرف أولاً على أمراضه الباطنية وأخلاقه
المستترة ، قبل أن يشرع في علاجه ، إذ أن الطبيب الذي يصف دواء واحد لكل
مرضاة طبيب طاهر لأنه يعرضهم الموت بجهله ، وكذاك طبيب النفس ، فإنه إذا
عالج الطالبين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأدات قلوبهم ، إذ أن المطلوب
منه أن ينظر أولاً إلى :

١ - ما هو نوع المرض ..

٢ - حال المرض من القوة والضعف ..

٣ - ظروف الطالب الأسرية والاجتماعية والثقافية ..

٤ - السن - مزاجه - مدى قدراته البدنية على تحمل الرياضة .. الخ ، فإذا
ثم الطبيب معرفة كل ذلك وضع أسس العلاج وتلخص في :

١ - إذا كان الطالب جاهلا بمحذور الشرع ، فإنه يبدأ بتعليمه أسس الطهارة
والصلاة والعبادات الظاهرة والفرائض والتكاليف الشرعية ..

٢ - إذا كان الطالب منشغلا بجميع المال الحرام أو سائر في طريق الشهوات
أو في مصيبة ، فيأمره بتركها ، كما أن الذي يساعد على التخلص من الآفات
والأمراض المزمنة بالعبادات الظاهرة (كالصلاة والصوم والزكاة) فإنها تطهر
المزاج وتجعلها قابلة للنظر إلى الباطن ، وبهذا الطريق تتكشف الأمراض ،
ويتعرف الطالب على أمراض قلبه ، وينظن إلى أخلاقه الظاهرة والباطنة ...

والطبيب هنا يحاول أن يفرغ قلب الطالب ، ما يشغله من الشهوات حتى
لا يلتفت مرة أخرى إليها ، فإذا زالت علامات الرهونة والكبر وهزة النفس عن
الطالب فإن على الطبيب أن يساعده على التخلص نهائيا من هذه الآفات بتسل
المراحيض وخدمة الفقراء وعيادة المرضى والمساكين ، والقيام بالأعمال البسيطة
والالتجاء إلى مدلة الطالب من أقل الناس ، وذلك للعمل على اذلال النفس المتكبرة
حتى تنكسر حدة الاستعلاء والعزة لأن الكبر من الأمراض المهلكة ...

وإذا رأى الطبيب الطالب يهتم بالملابس المبذلة والأناقة الزائدة ، أمره
بالجلوس مع العامة ، والاشتراك في غسل وكسس المراحيض ، حتى تتغير دعوت
ويتجنب الاهتمام بنفسه وارضائه لها ، لأن الذي يهتم فقط بالمظاهر والزينات ،
كالذي يهيب نفسه ، وهو كالذي يهيب حسنا لأنه محبوب عن الله ...

الرياضة النفسية إذن طريقة عملية وأقوية لعلاج أمراض النفس ، وهي تستخدم أسلوباً مرحلياً في المعالجة ، إذ لا يستطيع الطبيب علاج الطالب من أمراضه دفعة واحدة ، ذلك لأنه يتدرج معه العلاج بأن ينقل الطالب من خلق مذموم آخر أخف منه أثراً وأقل ضرراً ، ومثل ذلك كتطهير الآواني بإضافة مادة كارية ثم إعادة تنظيفها بالماء فإذا كان الماء لا يزال الوسخ دفعة واحدة من الآنية ، كمثل من يعاون العاقل في الانتظام في المدوسة عن طريق اللعب بالكرة ، ثم يتدرج معه برغبته في اللعب ثم شراء الملابس والأدوات المدرسية ، حتى يرغب في نهاية الأمر في الانتظام في الدروس المدرسية ..

وبالمثل فإنه يمكن علاج أمراض النفس بطريقة فعالة ، وذلك بالتعود على ممارسة الفضائل ، وتجنب الرذائل ، ومثال ذلك معالجة الشره والبخل والأنانية فإن الطبيب يطلب إلى الطالب الصوم يوماً في الأسبوع ، ثم يطلب إليه بعد الصوم الإفطار بقليل من الطعام ، ثم يطلب إليه تقديم الأطعمة إلى غيره عند الإفطار ، على أن لا يأكل منها ، وبذلك يتعود على الصبر وتنكسر حدة الشره والأنانية في نفسه ..

وكذلك طالب الجوع ، فإنه يؤمر بالصوم ، ثم يؤمر أن يفطر ليلة على الحبوب دون الماء ، أو بالماء دون الحبوب ، ويمنع هذه اللحم حتى تذله نفسه وتنكسر حدة شهوته ، إذ أن من أفضل أنواع الرياضات النفسية الجوع .. (١)

وكذلك فإن علاج صرعة الاحتياج والغضب ، إنما يكون بالضد ، والعند الغضب الحلم ، ويتم ذلك بتعليق لسان على سريح الغضب أو بحمله لطيف

بملازمة التقليل وخدمة أصحاب الأخلاق المارذولة حتى يعود نفسه على التحمل والصبر على الأذى ...

ومن الأمثلة الطريفة لرياضة النفسية أن أحدم أراد أن يعود نفسه على الحلم وكظم الغيظ ، فاستأجر من يشتبه على دلا من الناس حتى صار الحلم عادة له يضرب به المثل ...

كما يروى عن أحدم أنه كان يعود نفسه على الشجاعة لاستشفائه في نفسه ضعف القلب والجبن ، فكان يسافر بحرا في الشتاء ، وخاصة عند اضطراب الأمواج ... ليقوى قلبه ويكتسب الشجاعة ... كما أن أحدم كان يحد نفسه خمرلا في العبادة ، وكسلا عن قيام الليل للصلاة ، فالزم نفسه بأن يقف على رأسه طوال الليل عتابا لها ...

وهناك أمثلة (١) عديدة لرياضات النفسية وتناقص في أن الطريق إلى الصحة إنما هو بسلوك الطريق المضاد لاهواء النفس ، فإذا مالت إلى شيء وجب سلوك ما هو ضده ، والذي يساعد على ذلك هو تقريع النفس ولومها على كثرة الطلب والميل إلى المحظوظ والسعي وراء الشهوات ، وعلى طالب الرياضة النفسية أن يحذر مبدأ التأجيل وعدم الوفاء بما اعتزم عليه ، ولا بد أن يصبر ويعود نفسه على ذلك وإلا فسدت النفس عند ترك العزيمة ...

وإذا عزم الشخص على القيام بالرياضة لنفسه ثم شعر بنقص عزمه ، فعليه أن يعاقب نفسه ، وذلك بمضاجعة ما سبق أن اعتزم أن يقوم به ، إذ أنه من لا يثاب نفسه ، سهل عليه تناول الشهوات ، وبذلك تفسد الرياضة الكلية ...

(١) الامام أبو حامد الغزالي — أحياء علوم الدين ص ٢ : ١٤٤٩ ج ٨ مطابع الشعب

وإذا عدنا إلى الطرق المتبعة في علم النفس الحديث ، وهل وجه الخصوص ما يسمى (Psychotherapy) مد'واة النفس (١) - أننا نجد أن طريقة العلاج النفسي تشابه إلى حد كبير في الوسائل المتبعة في علم نفس الاسلامي إلا أن الغايات ليست واحدة ، وتم هذه الطريقة على أساس تغيير السلوك للمريض ، فالمعالج والمريض يعي كل منهما وعياً واضحاً ، أن هدف العملية هو أحداث تغيير في أفكار المريض أو أفعاله ، أو في كليهما معاً ، وذلك لتزداد درجة الاستحسان والقبول .. ومن ثم نجاح الطرق العلاجية ...

يقول الأستاذ علي الخواص : (٢)

إنما سوامع المرید بمجاهدة نفسه لكونه يرى نفسه لنفسه ، ثم إذا بلغ الكمال شهد نفسه ملكاً لربه ، وقد وصاه الله تعالى عليها بقوله تعالى :

« ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » (البقرة : ١٩٥)

كما نهاه تعالى عن ظلم نفسه ، وعن تحميلها فوق الطاقة ...
ويبين لنا الامام الشعرائي (٣) كيف تم الرياضات النفسية فيقول : « والمعروفة عن اخلاق المریدین فی طریق الصوفیة بمجاهدة نفوسهم ، وذلك بالجورج والسهر المفرطين ، وإتباع نفوسهم بتحمل الأعمال الشاقة في بداية أمرهم بطريقة شرعية حتى إذا بلغوا النهاية المعروفة لدى الصوفية كان الأدب مع الله ... »
ويشرح الامام الشعرائي هذا الأدب فيقول :

1 - Robert A. Harper - Psychoanalysis and Psychotherapy
Page 11.

روبرت هاربر - التحليل النفسي والعلاج النفسي ص : ١١ ترجمة د . محمد جلال

(٢) الشيخ عبد الوهاب الشعرائي - الاخلاق المتولية - تحقيق د . منيع عبد الحليم ج ١

(٣) المرجع السابق

و لمن الأدب مع الله . . السفقة على النفس . . والرحمة بها . . وأطعامها
 اللذيذ . . وتنويمها على الفراش . . وعدم تعاطي الأعمال الشاقة أكراما لها من
 حيث أنها وديعة الله تعالى وأمنه وعبدته . . وكأن صاحبها مجرد نفسه عنه
 وجعلها كالجار له ، وكأبه هو غيرها . كما يقول الالسان قالت لي نفسي : كذا
 فقلت لها : لا . . وهي القائلة أفعل كذا . . فأقول لا أفعل . . وإن قالت لا تفعل
 فاني أفعل (١) ...

(١) وردت : لا وهي القائلة أفعل أولا تفعل لا غيرها

الفصل الثاني

التربية النفسية

لا شك أن التربية تشتمل على التعليم وتكوين الممكات الخلقية والعقلية ،
والتربية النفسية . . رغم أهميتها البالغة في تكوين أخلاق الأفراد والشعوب ،
إلا أنه للأسف الشديد . . ليس لها نصيب وافر في التعليم في المراحل المختلفة
في عصرنا الحديث . .

وأما التربية العقلية . . فينصب الاهتمام فيها على الذاكرة . . بمعنى أن تربية
العقل تنحصر في الاهتمام بالمحفظ . . فالاختبارات التي تعقد لطلبة المدارس الثانوية
بل وفي الجامعة ، هي امتحانات لاختبارات ما شئت بهذا كره الطالب ، وليس
دليلاً على ذكائه .

ونحن نرى أن كثيراً من الشباب الذين يتخرجون في المدارس الثانوية
والجامعة يستخطون كثيراً على كم المعلومات التي يتلقونها . . بل ويشعرون أنها لم
تفيدهم في قليل أو كثير (١) .

والواقع . . أن التربية العقلية التي تلقن بطريقة المحاكاة والاستظهار والتعال
لا تصلح في الحياة الواقعية ، إذ أن العلم الذي يمس كل شيء دون أن يتعمق
في شيء ، هو علم من الواجب تجنبه ، ذلك لأنه في تصورنا ليس من المهم شحن
ذاكرة الطالب بالالفاظ والمجل العلمية والأدبية لحسب ، بل أيضاً ضرورة
ارتباط ذلك بالتطبيق العملي والممارسة الفعلية في الحياة والمجتمع . . .

كما أنه من الصعب أن نطالب المربين الذين خضعوا أثناء دراستهم في الصغر ،

(١) جوستاف لوبون - روح التربية ص ١٠٢ تعليق د. طه حسين .

إلى نفس نظم التربية التي يعلّمونها لتلاميذهم ، أن يغيروا تلك المناهج بمناهج جديدة ، لأن معنى ذلك . . أننا نطلب منهم أن يغيروا مزاجهم العقلي .

فإنّهم قد تعلّموا طرقاً تربوية تقوم أساساً على الوصول من المركب إلى البسيط ، مع أن المفروض كوسيلة سليمة التّحاج طريقة عملية للوصول من البسيط إلى المركب . . أو بمعنى آخر البدء من الأسير والوصول إلى الأشد والأعسر . .

والرؤية العالوية التي خبرها الإمام الغزالي (١) ، ووجدناها نافذة لتربية نفسه وتقييم معارفه وتثبيت طريقته في الحياة والمجتمع . . تبدأ بالمحسوسات وهي الأسير والإسهل . . لما لها من ارتباط بالجزئيات والمفردات .

ثم أنه شك في هذه المحسوسات ، وبين أنها لا تؤدي إلى المعرفة الصحيحة ويقول : « من أين الثقة بالمحسوسات ، وأقواها حاسة البصر ، وبه ينظر الإنسان إلى الظل فهراء واقفاً غير متحرك ، فإذا به يحكم بنى الحركة ثم إذ به بالتعربة والمشاهدة ، بعد ساعة يكشف أن الظل يتحرك ، وأنه لم يتحرك طرفة ، وإنما بالتدريج . . ذرة ذرة ، أو دفعة دفعة ، ومعنى ذلك أنه لم يتوقف قط .

وكذلك ينظر الإنسان إلى الكوكب فهراء صغيراً في مقدار الدينار ثم أن الإثباتات العلمية والهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار وهكذا . فإن حاكم العقل يكذب حاكم الحس ، ثم يتشكك أيضاً في حاكم العقل ، لأن حاكم الحس يقول له : إن ثقتك بي كانت كاملة حتى جاء العقل فكذبني ، وربما هناك حاكم وراء العقل يكذبه أيضاً . فماذا تصدق العقل وتكذبني ؟ »

(١) الإمام أبو حامد الغزالي - المتكلم من الضلال ص ١-٢

ثم ينتهي آخر الإسر إلى التشكك في حاكمي العقل والحس جميعاً ، إلى أن يصل إلى الأمن واليقين ، وليس ذلك بأدلة حسية وعقلية ، أو بطريق الاستنباط والاستدلال .. ولكن عن طريق الإيمان ، وهو نور يقذفه الله في القلب ، وعلامته أن الدنيا هي دار الغرور .. وأن الآخرة هي دار الخلود .

وقد بدأ الإمام الغزالي تربية نفسه بالإسر .. ثم بالاشق والأعسر .. أي من البسيط إلى المركب .. ومن الأسهل إلى الأصعب .. وهذا هو منهج التربية الآفوم

ولمنا لنؤمن أن التربية هي الوسيلة الوحيدة التي يملكها الإنسان لتحقيق التطور الاجتماعي ، وتثبيت المثل والقيم الأخلاقية ، والتي يتحقق ذلك فلا بد من تحويل ما هو ظاهر إلى ما هو باطن .. أو بمعنى آخر من تحويل المظاهر الخارجية الصحيحة ، إلى عقيدة إيمانية ، وذلك بتعليق النفس بالأوصاف المحدودة وتخليتها من الأوصاف المدمومة ، ولا شك أن ذلك يتطلب منها وإيماناً ، لغرس مبادئ الحق والعلم والفضائل في نفسية من يتولى تربيتهم (١) .

كما أن هذا الطريق يحتاج إلى مثل أعلى .. أو قدوة حسنة ، تلف حولها القلوب للخروج من حياة الجهل إلى العلم ، ومن الغرور إلى الإيمان ، ولا شك أنه بدون التحلي بالإيمان الإلهي ، وما يستتبعه من قيم عليا ، يؤدي ذلك إلى التحلل في وحدة الأمة فتفكك ، وتأخذ قوتها في الانحلال وبالتالي يؤثر قطعاً في أفراد هذه الأمة ذلك لأن المثل الأعلى الجامع لوحدة الأمة ، والذي يتجمع حوله الأفراد ، ولهم فيه أمان ، مشتركة قد ذهب بذهاب المثل والقيم العليا ...

(١) جوستاف لوبون - روح التربية ص ١٠٢ تطبيق د. طه حسين .

وفي تصورنا أن تلقين مبادئ الأخلاق ، وغرس قيم أخلاقية ، إنما يتطلب تجنب الشر والإقبال على الخير ، ولن يمكن ذلك إلا بمخالفة النفس بالرياضات ، والبعد عن الشهوات ، وذلك عن طريق التأديب والترويض وتحقيق الخير وبالمثل بالتدوة الحسنة . . والممارسة الواقعية تدل على أن الخير أفضل من الشر . . وأن الأمم إنما تكون ثقافتها وحرثها وارتقاؤها إذا سادت بها الأخلاق ، وأنها ترجع إلى الظلمة والجهالة عندما ما ترك الأخلاق . .

علينا إذن أن ننحرف في مجال التربية من القوالب والصيغ إلى الأسلوب العملي في استخدام الإرشاد والتنوعية بالقيم والمبادئ ، ثم توفير الحرية للفكر مع وجود رقابة ، أما التركيز على حفظ المواعظ والحكم ، ثم فرض رقابة شديدة على الشباب ، والتشكك في قدراتهم ومساكنهم ، ونزع الثقة منهم ، فإن ذلك يؤدي حتما إلى التناقض للعلى والخداع والرياء ولا شك أن ذلك مصدر من مصادر الشر والحرمة في حياة أي أمة من الأمم . . .

ليسكن هدفنا الأساسي أن تصل القيم إلى باطن الشباب وتصبح غاية عملية يطبقها في حياته جميعاً ، بتوارثها جيلاً عن جيل ، فالفضائل العليا كحب الخير والإيثار والإحسان ، والأخوة والمحبة . . إنما هي ثمار لبيئة الحسنة . . وتناج مكارم الأخلاق عند الجماعة والأفراد .

ولا شك أن التربية النفسية تعمل على تكوين الرجال ، والتعلل بمكارم الأخلاق وليست هي إذن الحصول على أعلى الشهادات دون تطبيق العلم في الحياة كسلوك أخلاق يعاون على تجنب الشر واتباع الخير .

وفي تصورنا أن التربية الخلقية العلمية ، لا تعتمد على المواعظ الجامدة والتعصبات المطاطة ، والألفاظ المكررة ، والحكم المتواترة ، والسكتات المترجمة ،

ولما تعتمد أساساً على المربي الفاضل ، صاحب الخبرات الذي يوجه تلميذه إلى الخير والحق بما له من الحسنة والتجربة .

والتجربة التي يقصد بها هنا تتمثل في معرفة مصلحة الجماعة ، ومصلحة الجماعة هي القانون الثالث في الشريعة الإسلامية ، بعد القرآن والسنة .. والتي لا يمكن مخالفتها ، أو الاعتساف بها ، وإلا استتبع ذلك وقوع المخالف تحت طائلة العقاب الذي تحدده الجماعة .. فضلاً عن الجراء الأخرى .

إن وسائل التربية في الوقت الحاضر تعتمد على عملية تلقين فحسب إذا أن الأستاذ يعلم التلاميذ علم الأخلاق مثلاً بقوله : إن علم الأخلاق إنما يحدث في حب الأسرة والمجتمع .. والجهاد في سبيل الله ، وأن حب الوطن مقدس .. وأن الجهاد في سبيل الله شرف للإنسان .. ثم أن الأستاذ نفسه ، ربما يكون مثشككاً في قيم الأخلاق التي يدرسها ، ولذلك فإن دروس الأخلاق تبدو هدية القيمة لأنها غير مؤثرة تأثيراً إيجابياً ..

علينا إذن لكي ندرس الأخلاق دراسة سليمة صالحة للحياة العملية ، أن نربطها بالعلاقات الإنسانية ، كما علينا أن نربطها بعلاقة الإنسان بربه ، فليست الأخلاق مجرد برنامج دراسي على الطالب أن يحصله ويمتحن فيه فحسب ، معتمداً فيه على التذكر وحفظ الموضوعات المقررة دون أن يكون لها أي نفع في الحياة العملية والعامة .. ولما التربية أساساً تقوم على الارتباط الوثيق بالواقع ، فهي تهتم بالحقائق ، وليس بالالفاظ والتعبيرات والحكم .

علينا أن نغرس حب التأمل في طالبنا المعرفة ليستخلصوا الحقائق المجردة ويمتحنونها في حياتهم وواقعهم ، بل وعقيدتهم الدينية ، ولن يتم ذلك بتغيير البرامج والنظم المشابهة ، التي نؤمن أن بها تظهر ثقافتنا ، أو باستخدامنا الأداة

العقلية التي تدعى أن بها يؤثر في الأخلاق ، بما استحدثته من نظم وبرامج ...
 إنما الذي يؤثر في الأخلاق حقا ، ليس الحفظ وشحن المعلومات وليس
 المنطق ، وإنما المؤثر الحقيقي هو المثل العليا والبيئة الصالحة التي يعايشها
 أولادنا وأخواننا ...

فالأساس في إيجاد تربية سليمة ، ليس باصلاح البرامج أو تغييرها أو تعقيدها
 أو تسهيلها ، وإنما بإختيار المنهج السليم الذي يجب أن يكون نقطة ينطلق منها
 البناء التربوي محققا غاية يستهدفها ، ويسعى لتحقيقها ، في عملية تربية الأفراد
 والجماعة ، أما تغيير البرامج والأنظمة المعمول بها إلى أنظمة أخرى ، فليس إلا
 تغييرا للحذاء قديم بدل حذاء قديم ، وأما الشخص واحد ...

أو بمعنى آخر ليس إلا إحياء شيء عفن ، ليس هناك من سبيل لإحيائه لأنه
 لا سبيل لإحياء الموتى !!

والمنهج المقترح يستقى مصادره من القرآن الكريم .. وهو السراج الأعظم
 متوخين في تطبيقه ما أتجهه الرسول الكريم - ﷺ - سائرنا على هدى الأنبياء
 الذين اتبعوا تعاليمه ، وهم القدوة الحسنة التي تعاوننا على تربية أممنا تربية صالحة
 في كل زمان ومكان ...

وتعتبر تربية الإنسان في الإسلام غاية من الغايات العظمى تستهدف العلم
 ومكارم الأخلاق ، فالرسول - ﷺ - يقول :

« أدبني وبن فاحسن تأديبي ،

وقوله - ﷺ :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ،

وخروج الإنسان متكاملًا ، وأهيا .. طارفا بربة .. سلبا في معاملته مع
 أخوانه ، غاية في التربية الإسلامية ، وأكى لتحقيق هذه التربية ، تتعلق من محركين
 أساسيين ، محرك ترهيب .. ومحرك ترغيب ، فالنفس تنزع بفطرتها إلى الهوى
 وتميل إلى الشهوة ، وتركن إلى تحقيق ذلك ركونا عظيما ، بما أودع في جبلتها من
 صفات مدمومة .. يمكن أن تحدث لها العطب والفساد والانحراف ...

لذلك وجب تحريك محرك الترهيب الفعلاء على هذه الأوقات أول بأول حتى
 لا تعاد عليها النفس ...

كما تقوم التربية الإسلامية على محرك الترغيب فيما يتعلق بالأفعال المحسودة ،
 والعلوم النافعة ، والقدرة الحسنة ، حتى يتجلى بها باطن الإنسان ، فتصبح هذه
 الأفعال هدفا وغاية وسلوكا ...

ولكى يتم تطبيق ذلك عمليا يتوجب تحلية النفس بالأوصاف الحمودة وتخليتها
 عن الأوصاف المدمومة ، والمنطلق الذى تنطلق منه مناهج التربية يقوم على ركيزة
 مستغاة من القرآن الكريم ، وهى أن الإنسان فطر على لسيان الحق ، فإذا لم يذكر
 به بصفة مستمرة ، انصرف عن جادة الصواب ، وركن إلى الخلو والبسالة ،
 فيتلطفه الشيطان ، ويوسوس له ويحسن له باطل عمله ، وبذلك تميل النفس إلى
 طبيعتها ، فتصرف إلى الأهواء والأمانى الكاذبة ، وتندفع إلى الغفلة والضيايع .

ومن هنا كانت أهمية الرياضة النفسية لتقوية العزيمة .. والعزيمة باب الصحة
 النفسية ، لأنها طريق إلى الإستقامة والعدل التى بها يحقق الخير والعلم ، إذ أن
 أبا البشر آدم .. عليه السلام - لى ولم يستطع الصمود أمام غواية الشيطان ..
 تعديقا لقوله تعالى :

« ولقد همدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » (طه : ١١٥)

بالنسيان إذن آفة منطوية عليها الألسان ، وعليه مغالبتة بالعلم . والعلم بهذا
الحق وبإحاطة نفسية ، وممارسة عملية ، وإرشاد وتوجيه مستمر لتقوية العزم ..
والعزم تقويض النسيان ..

ومن الناحية العملية .. يحسن أن تبدأ التربية النفسية بالاقتداء بالقدوة الحسنة
عثة في الأنبياء والرسل الصالحين لقوله تعالى :

« فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » (الاحقاف : ٢٥)

فالعزم يحتاج إلى صبر ، وكظم لفظ ، وتحمل للإبتلاءات ، كما أنه لتحقيق
التربية السليمة ... يجب استخدام وسائل الترغيب والترهيب كما يجب التذكير
حتى لا ينسى العبد ، لأن النسيان غفلة ، ويبتعد عن العلم والحق والصدق ، وذلك
وارود في قوله تعالى :

« ستقرئك فلا تنسى » (الإعراف : ٦)

كما أن النسيان فطرة في الألسان ، فهو ينسى ما يذكر به ، فكيف لا ينسى
ما لا يذكر به لقوله تعالى :

« قال كذلك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى » (طه : ١٢٦)

لذا ذكر الحق إذن يستهدف به عدم الغفلة ، والعلم بما هو مطلوب عمله ، مع
بيان الطريق الصحيح الواضح ، الصالح للتطبيق العلى ...

وقد نبه الاسلام إلى القدوة الحسنة في شخصية الرسول - ﷺ - ومن

استن به من الصحابة والتابعين وتابع التابعين ، فإذا تعامى الإنسان وتغافل

ولسى بعد ما أرشد إلى الحق ، ما وجه اليه من الهدى ، ولم يؤمن به ، فإن ذلك

علامة الجهل الذي يؤدي إلى العذاب والحوان ، بالإضافة إلى العقاب على تغافله

وليسيا له الحق ...

وقد أراد سيدنا موسى - عليه السلام - من الحضر ، وهو هدى من هبادة
 الله الصالحين آتاه الله علما ... وأراد سيدنا موسى - عليه السلام - أن يعلم
 هذا العلم ، ويرى نفسه على الصبر ، وكظم الغيظ ، واحتياك المكابدة والمعاناة
 للوصول إلى العلم القدسي ، لكنه لم يستطع مع الحضر صبرا مصداقا لقوله
 تعالى :

« قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري صبرا » (الكهف : ٧٢)

ويمكن استخلاص من قصة موسى والحضر عليهما السلام ، هذا المنهج القرآن
 في التربية النفسية ، فالعلاقة بين أستاذ وتلميذ ، والأستاذ عهد نفسه الله بعلم ،
 والتلميذ لم يحظ به أحد في عصره ومع ذلك فهو متواضع لاستاذ
 العبد الصالح ، والعبد الصالح يبين صعوبة الدرس ، فيقول له : « أياك لن
 نستطيع الصبر على ما أريد أن أعلمك عنه .. إذ أن ذلك يحتاج إلى كظم الغيظ
 والتعود بعادات تحتاج إلى رياضة وسياسة نفسية غير ما سبق أن علمته وخبرته ،
 وما أوصي اليك ... »

التربية الإسلامية تربية شاملة قوامها كسر حدة مألوك العادات ، وتجاوز
 للرخص الشرعية ، وفي قصتنا يرد عليه النبي الكريم - كتلميذ متواضع أخلاقي
 الدرس ، فيقول له :

« لا تؤاخذني على لسان مواعظك وأرشادك ووصاياك ... ولا تكلفني
 مشقة في تحصيل هذا العلم ، والأخذ بما كنت أجهله من حقائق وجدانية ، فلا
 تجعل الأمر بالنسبة لي شاقا صعبا .. »

إذن التربية تحتاج إلى علم .. والعلم يحتاج إلى تدرك دائم .. كما يحتاج إلى
مكابدة ومعاينة ومجاهدة ، حتى يصير سلوكا وأخلاقا راديا ، كما في قول عز
من قال :

« ليتبنوا فضلا من ربكم ، ولتعدوا عدد السنين والحساب ، (الأصراء: ١٢)
والعلم المقصود هنا ليس علما نظريا لحسب ، ولا علما عمليا فنط إنما علم جامع
لنظر والعمل ، صالح للتطبيق في الحاضر والمستقبل ، إلا أن أئمة الاسلام (١)
ينظرون إلى الجزء الخاص بالعلم النظري على أنه سابق للعمل ، بمعنى أن التربية
الصحيحة تقتضى البدء بالعلم النظري ، ثم تطبيق هذا العلم في مختلف مجالات الحياة
وليس العكس ...

وقد سمي أئمة الاسلام هذا العلم .. بعلم المعاملة .. وقسموه إلى أقسام
ثلاثة :

- ١ - اعتقاد .. أو تفكير أو نظر ...
- ٢ - تطبيق .. أو سلوك عمل أو معاملات .. أى تنفيذ وتطبيق ..
- ٣ - ترك ... استبعاد وهجر ...

١ - الاعتقاد :

هو التعليم المنظم المرتب - المبني على الاقتناع - لحقيقة الدين ، حتى لا يخامر
نفس المسلم الريبة أو الشك فيما يلقى إليه من العلم ، فإذا ما قوى الاعتقاد يمسك
بالتنفيذ والتطبيق ...

٢ - التطبيق :

والتطبيق .. ما تلقنه وأرشد إليه من علم ، مثل القيام بالفرائض كالصلاة ..
والطهارة .. والصوم .. والزكاة .. والحج ، ويتم ذلك بالتدرج شيئاً فشيئاً
حتى لا تسأم النفس وتتمرد بالعصيان وتثور على الاعتقاد إلى أن يسلس لها
النفس ...

٣ - الترك :

ثم يبدأ المربي بالأصعب من الأمور ، وهو ترك .. أو استبعاد ما لا يصلح
تعليمه أو تلقينه .. كأن لا يعلم الأعمى ما يحرم من النظر كما أنه لا يعلم الأبكم
ما يحرم من الكلام ، كما لا يعلم البديهي ما يحرم من الجلوس في الأماكن العامة ..
إذ أن هذه العلوم لن يستفيد بها صاحبها في الآن أو في المستقبل ، فضلاً عن أنها
ليست صالحة لتطبيق العمل بالنسبة للأعمى .. والأبكم .. والبديهي ، وإنما
الذي يجب أن يلقن تجنبه والابتعاد عنه من الأعمال والأفعال ما هو جواز أن
يقع فيه الطالب في الحاضر والمستقبل حتى لا يكون سبباً في انحرافه
وخلافه ...

والتربية الإسلامية جانب آخر يختص بتربية القلوب ، وهي رياضة نفسية
عملية ، تتم بالنيات والخواطر ، فتدفع بعيداً الخواطر والوسوس والنيات
السيئة ، كالربا .. والغرور .. والحسد .. والكبر .. والتعصب ... وغير
ذلك من الآفات ...

ولا تترك النفس في فراغ ، بل تدفع إليها مكارم الأخلاق بمثل في الإيثار
والصدق والعدل والاحسان والتواضع ، وتنقية النفس بالخواطر المحمودة ، وفي

ذلك يقول الرسول - ﷺ - :

« ثلاث مهلكات .. شح مطاع ، وهوى متبع .. وأعجاب المرء بنفسه » (١)
 هل المرين إذن أن يعاون تلميذه على التخلص من هذه النقائص ... بل يجاورها
 في معالجة آفاته الباطنة ، ، وذلك بتطبيق منهج واضح ، وقواعد عملية ، تتعلق من
 مفهوم إسلامي مؤداه : « من لا يعرف الشر .. يقع فيه » ...

وعلاج هذا الأمر بمثابة السبب بضدده ، إذ أنه من الأهمية بمكان إتمام
 عملية التربية بمعرفة السبب والمسبب ...

ولذلك يتوجب تعلم ما يتوقع اللسان وقوعه في القريب العاجل بل إن
 ذلك فرض على كل مسلم ومثال ذلك تعلم الطب لعلاج الأجسام ، أو تعلم الحساب
 من أجل المعاملات .. وبالمثل في الصناعات والحرف ، لأنه إذا خلا المجتمع من
 عملها وقع في الاغاليط .. وانعكس ...!

ومن ناحية أخرى .. هناك من العلوم ما يجب تجنبه .. مثل تعلم السحر
 والسموذة ، التي ليس من ورائها فائدة على الإطلاق ..

ولا يتم ذلك يقينا .. لا بد من مربين ومربين .. أو معلم وتلميذ .. ثم أنه
 لا بد من رابطة قوية ، أساسها الثقة والأدب حتى تمتدق التربية السليمة ...
 آداب التربية : (٢)

الرابطة بين المربي وطالب العلم لها وشروط .. منها :

١ - النصيحة الخالصة التي لا تربط بمنفعة أو مصلحة ، فإن تدخلت المنافع ،
 قربت التربية ، ومن ثم شابها العيب ..

(١) الإمام أبو حامد الغزالي - أحياء علوم الدين ج ١ ص : ٢٨

(٢) الإمام مهدي القادر الجيلاني - التوبة ج ٢ : ١٦٨ : ١٦٩

٣ - أن يتحقق في المربي الحلم والشفقة والرحمة من يشول تربيتهم ...

٣ - أن يترفق بهم ، وأن يلاينهم عند عجزهم وضعفهم في احتمال المجاهدة ، ويقوى عزائمهم على المجاهدة والسعى والعمل على مخالفة العادات السيئة والطبائع المردولة ...

٤ - أن يعتبر المربي من يريه بمثابة ابنه ، فيعامله معاملة الوالد الحكيم الغفوق اللبيب ...

٥ - أن يأخذ المربي من يربيهم بالأسهل ولا يحداهم ما لا طاقة لهم به ..
٦ - إذا ما وجد المربي المريد قوى العزيمة ، يأمره بالاشد فالاشد ... ، وذلك بترك محاكاة الطبع .. والباع الحق .. حتى يخرج من مألوفات العادات وتبورات الطبع وأحكامه ...

٧ - أن يهوده على الفرم ، فلا يتناق بالرخس في المباحات ، وإنما يستبدل بها العزيمة .. حتى يتعود على المجاهدات .. وتجنب الخمول والكسل ..

٨ - إذا وجد صادقاً .. مجاهداً .. صاحب عزيمة .. فانه لا يساعده في شيء بل يأخذه بالأصعب من الرياضات التي لا تعصف عزمته ولا تفسد ارادته ..

٩ - ألا يهون عليه أمره عندما يقع في المخالفات ، ولا يترفق بماله عندما يهتد عليه .. حتى لا يقع في الرهونات ...

١٠ - أن يحسن تربيته وتأديبه ، ولا ينتظر من ذلك عوضاً ، وعليه ألا يختار من يربيهم من طريق التوسعية أو الوساطة ، وإنما يربي المريد الذي جاء من نفسه طالباً لتربية نفسه ، فلهذا يصاح ويرفق في التربية .. ونجاحه أسرع وفلاحه أتم وأثمر ...

١١ - إذا وجد فيه خللا ، فعليه أن يحفظ سره ، فلا يطلع عليه أحد غيره ،
لأنه أمانة عنده . . .

١٢ - أن يكون ملجأ المرید عند الحاجة ومرشده وموجه عند الطلب . .
وعليه أن يعظه في السر . . .

١٣ - أن يصغر له أحواله . وأعماله ، لأن التعجب يفسد المجاهدة ، وإذا
رأى من بعض المریدین انحرافا ، فإنه يجمعهم ويقول لهم . . بلغنى أن ليسكم من
يدهى كذا . . وكذا ، ويذكر المفسد . . ويحذرهم منها ولا يعين أحدا
منهم . . .

وقد ركزت التربية الإسلامية على الوفاء للرب ، فالابن يجب أن يبر بوالديه
برا تاما ، وعندما يهرم الوالدان في آخر العمر ، فعلى الابن أن يتحملها ولا يهجر
من طلبا عنهما ، ولا يهجرهما بينفس القول ، ويحنك الماملة ، إنما عليه أن يقول
لها قولا كريما . . . ليئا ، فيه وفاء واحسان وتكریم لها لأنها قد وبياء صغیرا ،
وأن يتواضع لها بلين الجانب والإيثار ، ، وأن يكون شافوقا وحبا بها ، لأن
ذلك من حقوقهما وفضلهما عليه . . .

والاحسان . . وتخفيض الجناح . . والتواضع ، والإيثار والقول الحسن ،
ثمرة التربية الحسنة والأخلاق القويمة . . .

ولكن يحذر بنا أن نساءك هنا . . . أيجوز اتباع المرید المنحرف ؟ . . .
وتأتى الاجابة على هذا التساؤل في الآية الكريمة عن اسان فرعون :

« قال ألم تر بك فينا وليدا ولبثت فينا من همك سنين » (الشعراء : ١٨)

ويأتى رد موسى - عليه السلام - :

« وتلك أمة تمنى على أن يحدث بنى إسرائيل » (الشعراء : ٢٢)

وكان فرعون يشرك بالله ويؤله نفسه ، ويقتل الذكور من المواليد لذلك
ابن موسى - عليه السلام - أن تسمى تربية فرعون له أمة عليه ، لأن سبب
التربية الاضطراب ، إذ أن لجوء موسى - عليه السلام - إلى بيت فرعون راجع
إلى قتله الأطفال الذكور ، فآلت أمه في اليم لينجو من القتل ، فآل إلى بيت
فرعون ، ولولا ذلك لترى بين والديه ..

والتربية الصحيحة تعلم الجماد والمثابرة .. وحفظ اللسان .. والاحسان ..
والرحمة ، وقد قال حكيم من الحكماء أن الخصال التي يعرف بها الجاهل هي (١) :

أولاً : الغضب بدون سبب .. أى يغضب اللسان على اللسان والحيوان
بل على كل شيء يرى نفسه مكره عليه .. مضطراً فيه لمخالفة هواه ..

ثانياً : الكلام بغير نهج ، لأن العاقل لا يتكلم كلاماً لا منفعة فيه ..

ثالثاً : إفضاء السر في كل مكان ، وإفشاء ما يجب ستره ..

رابعاً : الثقة بكل اللسان .. لأن العاقل يقف فطن ..

خامساً : أن لا يعرف صديقه من عدوه .. فالعاقل يعرف صديقه ويعطيه
ويعرف عدوه فيحذره ..

وقد مدح رجلاً أحد التابعين ، فضاقه ذلك وقال له : لم تمدحني ؟ .. أخبرني

عند الغضب فوجدتني حليماً ؟ (٢) ..

قال : لا !!!

قال : أخبرني في السفر فوجدتني حسن الخلق ؟ ..

قال : لا !!

قال : أخبرني عند الأمانة فوجدتني أميناً ؟ ..

قال : لا !!

قال : لا يحمل لأحد أن يمدح أحد ما لم يجرب في هذه الأشياء الثلاثة ..

فالإسلام ينظر إذن إلى التربية نظرة واقعية .. عميقة ونافذة ليصير بنظام صالح التطبيق في كل زمان ومكان ، يتعدى حدود الواقع ، بل يتجاوز حدود الدنيا ... ليوصلها بالحياة الباقية ...

فالتربية الإسلامية شاملة .. جامعة .. تعالج الإنسان ككل ، كوحدة مع الاهتمام بالفروق الفردية والجسمية والمميزات العقلية والخلقية في العلم والعمل جميعاً .. كما تنظر إلى أصحاب الشهوات والعاهات الخلقية نظرة كلها رحمة وشفقة ، يقول الله تعالى :

« ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت أخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتيحه أو صديقاتكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة .. »

(النور : ٦١)

أبين هذه الإيات الكريمة العلاقات الالسانية التي يجب أن تربط بين الإنسان والإنسان ، وهي أصل من أصول التربية النفسية في العلاقات الفردية الأسرية ،

فليس هناك حرج على الأعمى أو الأعرج أو المريض ، كما ليس على الصحيح حرج أن يأكل في أسرته أو عاد أقربائه من جهة الأم أو من جهة الأب ، أو العم والعمة والخال والخالة ، وكذلك في بيوت الأصدقاء المخلصين ، إذا لم يكن فيها حرمان ، وذلك بعد استئذان رب البيت . . .

والناحية الثانية في التربية الأخلاقية ، الاستئذان عند الدخول على البيوت ونحية أهلها بالسلام لأن بين الناس علاقة وثيقة ، ورابطة لا تفصم تتمثل في القرابة والدين ، وهذه النحية مباركة بها تطيب النفوس وتوداد المحبة والوئام . .
فإن الله تعالى يرى أن اللسان الذي يربي تربية كريهة يخرج لسلا كثرهما لقوله تعالى :

« والبلد الطيب يخرج نباتا بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا »

(الأمراء : ٥٨)

الفصل الثالث

الاستعاذة

يلاحق الإنسان بخواطر نفسه ، ويحاصر بوساوس الشيطان ، وتختلف الخواطر بعضها ببعض ، وتزاحم على قلب العبد ، فإذا لم يجد طريقه إلى الله .. فسدت حياته وأظلمت نفسه ، وضلت سبيل الرشاد :

« وأما ينزغك (١) من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ،

(الأعراف : ٢٠٠)

لذلك فانه يتوجب على العبد أن يناضل هوى النفس ، وأن يكافح وساوس الشيطان ، وعليه أن يرجع إلى ربه لينقذه من هذه الهوة السحيقة التي يتردى فيها ولأن تطارده وتغويه وتلذذه وتلطفه وتلا نفسه بالباطل .. والشيطان قد ترعد الإنسان عندما أقسم أن يغويه :

(ص : ٨٢)

« قال فبعرأك لاغوينهم أجمعين ،

لذلك فان على الإنسان أن يستعذ بالله من الشيطان ، ولا يقنط من رحمة الله كما قال هر من قائل :

« يا هبادي الذين أمرتوا على أنفسهم لا تنتظروا من رحمة الله ،

(الزمر : ٥٣)

فباب الله مفتوح لكل طالب ، فإذا ما توجه العبد إلى الله ، أرحمه تعالى

(١) ينزغك نزغ : أى تعرض الشيطان للإنسان بالوسوسة ..

وفتح صدره للإيمان ، وكتب له السلامة ، وعرفه بما يشوب عليه أن يدفع به
وصاروس الشيطان :

« قل أعوذ برب الناس .. ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس
الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس »

(الناس : ١ - ٦)

فلاستعاذه هي إحتراز بالله من الشيطان الرجيم ، كما ورد في قوله تعالى :

« وإني أعوذ بك وذريعتك من الشيطان الرجيم » (آل عمران : ٣٦)

وهما عيسى ومريم - عليهما السلام - ...

الإستعاذة إذن فراراً من الشيطان ، ودعاء إلى الله أن ينجي العبد من الوقوع
في مخالفته ، والتعرض لمكائده .. لأنه رأس كل خطيئة ، ومبعث كل ضلال وابت
كل داء ...

والشيطان هو العدو الحقيقي للنفس البشرية ، تصديقاً لقوله تعالى :

« إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » (فاطر : ٦)

والشيطان يحاول أبداً بكل طريق أن يستجلب كل من يستطيع أن يكرمه من
بنى الإنسان ، ليكون من حزبه ، وسوية هم أصحاب النار والسوء .. وقد أضل
الشيطان منهم جيلاً كثيراً ، وهم أصحاب الدقاوة والرياء المخالفون لكل حق
وفضيلة .. الممسدون لكل نعمة المقلقون لكل راحة وأمل ، المبطلون لكل
سماعة ، الفاسقون .. المنافقون لذلك وجب أن يهتز العبد حتى لا يكون
للشيطان في نفسه مقام بسبب من الأسباب ...

والطريق إلى ذلك إنما يكون بحسن الآداب وحفظ القلب والجوارح وأداء

الأوامر والتكاليف الشرعية ، والنهي عن المنكر ، والرضا بغيري المقتدر للنفس
والماله والأهل والأولاد والخلق أجمعين ، فإذا داوم الإنسان (١) الصادق على ذلك
ورأى عليه ، ولازمه ، كانت له نعمة وآمان من فتن الشيطان ، وسواسه
وهو أخص النفس وهواها ، بل كانت له النجاة بعد انتقاله من الدنيا إلى الآخرة
من عذاب القبر وهول القيامة وشدها ، وألم النار وزفرتها ، وكان في جوار الله
في جنة المأوى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين لقوله تعالى :

«أما من خاف ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ،

(النازعات : ٤٠)

وإذا نجا العبد من غوائل الشيطان ، فلن يكون وليه ولا قدرة ولا سيطرة
عليه . . بل يصبح متقلبا في نعم الله ، فيحظى بقرب الله ، وحب الله ، ورضا
الله ، تصديقا لقوله تعالى في خطابه للشيطان :

«إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ،

(الإسراء : ٦٥)

لأن الشيطان يكون في أضعف حالاته وأضعف قوة في التأثير عندما يلقي العبد
الصالح . . .

والعبد الصالح هو المنفصل بالله . . المنصرف بالكلية عن الغواية فيقاوم
وسوس الشيطان وسواسه ، ويستمد قوته في محاربته من نور الله ، فلا يستطيع
الشيطان أن يقترب منه ، أو يوقعه في مخالفه . . .

لذلك فإن الصيقل الحق الموصل لمحاربة دوى الشيطان ، إنما يتركز على
الدعائم الآتية :—

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني — القدية ص ٩٢٨

**أولاً : الاستعاذة بالله ظاهراً وباطناً ، قولاً وعملاً من أباطيل الشيطان
وعداؤه . . . والسهر في طريق السلامة والاستقامة ...**

**ثانياً : أن يثبت العبد على دينه ، ويحافظ على أداء التكاليب والفرائض الشرعية
وإتباع القدوة الحسنة :**

• وإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، (العنكبوت : ٤٥)

• حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، (البقرة : ٢٣٨)

**ثالثاً : التغرب إلى الله تعالى بالذكر والنوافل ، كما ورد عن الله تعالى في
كتابه العزيز :**

• واذكروا الله ذكراً كثيراً ، (الاحزاب : ٤١)

• ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، (الرعد : ٢٨)

**والذكر هو الحصن الحصين الذي لا يستطيع الشيطان أن يطرده لأن العبد
فيه آمن على نفسه من مكائده . . .**

**رابعاً : المجاهدة في الله ، وذلك بكثرة الرياضات وعمل الطاعات ، وتروية
النفس وترويضها ، وهي الطريق الموصل إلى المقام الآمين ، وإذا كان العبد مرابطاً
لله ، سائرأ على طريق الإخلاص ، طامعاً ، قاصداً وجهه الكريم ، فيحظى بالمقامات
العليا ، ويترقى في سلم الصالحين والشهداء والصدّيقين .**

**خامساً : ولا يترك الله - سبحانه وتعالى - هذا العبد ، الثابت على الدين
المستعبد بالله من الشيطان . . . المجاهد في طريق الحق ، لا يتركه تعالى - فضلامه
ومنه - يسهر وحده ، إنما يمن عليه بالهبات والعطايا ، والرحمات والفتوحات
كثيرة يؤيده بها ، وكنعمة يشاب عليها بها ، وهي بمثابة هون من الله لا لتجائه إليه
واستعاذته به تعالى .**

لذلك ينه بعض الائمة (١) العبد الصادق بأن عليه لكي يحقق المرید من القربة
من الله وتجنب غواية الشيطان وإندحاره أمامه ، ومخالبة هواه في نفسه من
إلحاق الآتي :

- ١ - أن يعرف العبد أن الإعانة بالله ، والإلحاح اليه تخفيف الشيطان ،
فلا يستطيع التقرب منه ، لذلك عليه أن يدأب على ذكر الله ، والتحرر من
الشيطان في عمله ، وفي أكله وشربه ، وفي يقظته ومنامه ، حتى يأمن مكر الشيطان
- ٢ - يتوجب على العبد الصادق أن يتقرب إلى أهل الإصلاح والتقوى
والعارفين ليساعدوه على نفسه في محاربة كيد الشيطان ، ليتمكن من التخلص من
آفاته حتى يعطى بأنوار المنة وينعم بالطمأنينة والأمن بعد هزيمة الشيطان
وحربه ...

وقد ورد عن الفاروق عمر - رضي الله عنه - قول الرسول - ﷺ -
« ان الشيطان يفر من ظلك يا عمر » ...

وقوله - ﷺ - : ما سلك عمر وأديا إلا والشيطان سلك غير ذلك
الراوى ، ...

ومعنى ذلك أن الشيطان إذا علم بصدق المرید وإخلاصه لله زهد فيه ولم يعد
عنه ، وبأس منه ، وإنما يأتيه بين الحين والحين ، يتلصص عليه حتى يرى ملازمته
للصدق .. وعما إذا كان مستيقظا ومترقبا .. فاذا وجدته كذلك إبتعد عنه بعد
أن يتأكد أن العداوة بينه وبين ذلك العبد مستحكمة ، وأنها طبع قديم في ذلك
العبد ، كما ورد في قوله تعالى :

« فبجرتك لا غويهم أحمدين إلا عبادك منهم المخلصين »

(ص: ٨٢)

٢ - إن أول ما يستعين به المرشد في محاربة الشيطان هو السير لله على طريق الإخلاص في الظاهر والباطن ، ومداومة الذكر ، ودعوته لله تعالى ، وذلك وارد عن الرسول - ﷺ - في الحديث القدسي عن الله تعالى قوله :

« لا إله إلا الله حصني .. فمن قالها دخل حصني فقد آمن من هذابي »

يقول النبي - ﷺ - : قد بعثت داعياً ومبليغاً وليس إلى من الهداية شيء وخلق إبليس مزينا وليس إليه من الضلالة شيئاً ، (١)

أي أن إبليس يوسوس الدمعية وليس بيده أكثر من ذلك ، لذلك ينبغي أن يجتهد الإنسان في دفع وسوسة الشيطان عن نفسه ، ويجتهد في مخالفتها ... لقوله تعالى :

« إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ،

وينبغي للعاقل أن يعرف عدوه من صديقه فيطبع صديقه ، ولا يتبع عدوه ويستعبد بأفقه منه ...

يقول - ﷺ - : (٢)

« تعرّفوا بالله من جهل البلاء ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ... »

(١) الامام السر قندي - تنبيه الغالين ص ٣١٣

(٢) رواه الشيخان عن أبي هريرة ..

وكان الرسول - ﷺ - يستحب بالله ليقرئ : (١)

« اللهم اني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والحرم وعذاب القبر ...
 اللهم ان نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها
 اللهم اني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس
 لا تحسب ، ومن دعوة لا يستجاب لها ... »

والاستعاذة طريق للآمن في الدنيا وباب لصحة النفسية ، وفي ذلك يقول
 - ﷺ - :

لو أن أحدكم إذا نزل منزلا قال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ،
 لم يضره في ذلك المنزل شيء حتى يرتحل منه (٢) . .

وينصح الرسول - ﷺ - المسلمين بالاستعاذة بهذا الدعاء فيقول :

« عليك بعمل الدعاء وجوامعه ، قل :

« اللهم اني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ،
 وأسألك الجنة وما قرب اليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب
 اليها من قول أو عمل ، وأسألك مما سألك به محمد ، وأعوذ بك مما تعوذ منه محمد
 وما قضيت لي من قضاء فاجعل عاقبته رشدا ... » (٣)

(١) رواه مطام عن زيد بن أرمم . .

(٢) رواه ابن ماجه عن خولة بنت حكيم . .

(٣) رواه البخاري عن السيدة خاتمة . .

الفصل الرابع

العلاج بالتوحيد

من الواضح أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين التوحيد الإلهي وعلاج النفس الإسلامية بالتوحيد معرفة تشرق بها النفوس فتتجلى عليها الطمأنينة والأخلاق ، وتناق إليها المعارف ، فتهدى إلى الطريق المستقيم والقيم العليا . . فتتعرف النفس على مكاسبها ومثالبها ، وتطهر بالتوحيد من هيوبها وتقااصتها وآثامها ، داخل إطار التربية النفسية والتغذية بالأخلاق السكرية . . .

والتوحيد (١) ، (٢) . . كما يراه الأئمة . . إسترسان مع الله تعالى في كل أمر من الأمور فتتقدم إرادة المرید مع إرادة الله تعالى ، فيشعر ذلك العبد بالإخلاص والعلم والمعرفة جميعاً . . .

وفي الطب النفسي الإسلامي تظهر النفس في صورتين ، أحدهما ذاتية ، نفس أمارة ونفس مطمئنة ، كما أنه توجد بينهما درجات أخرى ومقامات للنفس مختلفة . . سنذكرها في حينها . عندما يبين لنا الطريق الذي يرسى أئمة الإسلام . . وتميز طبيعة النفس الأمارة بالتغير والتقلب . . والميل إلى الخطر والركون إلى الأهواء . . .

أما النفس المطمئنة فتمتاز بالسكينة والرضا والتوكل والإبصار والصبر على

(١) الرسالة الشريفة - الجزء الأول - ١٠٦ - ١٠٧

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف - ص ١٦٠ - ١٦٢

ولمزيد من الاطلاع يرجع إلى كتاب القباط الصوفية ومعالجتها ص ١٠٩ (التوحيد)

الإجلال... وإسقاط التدبير مع الله فنصل إلى أهل الدرجات في الكمالات الأخلاقية
فلا خوف ولا قلق ولا ضياع ولا ضجر... إنما أمل في الله... والله... وبالله...
ومن الله...

أما عامة الناس... إنما أسرهم مقتنيات العادات... ومألوف العيائسج،
فينشأون على أخلاقيات مجتمعاتهم... ومحاكاة سلوك ذويهم... وذلك بحسن ظنهم
بهم، وثقتهم فيهم... فيشعرون بما يشعر به آباءهم من مشاعر شتى... وينفعلون
بما يفعل به أقرانهم من انفعالات مختلفة...

فالعاى من الناس يظن أن ما يتبعه ذويهم هو الحق والرشاد... فهو رفض ما
هداه... حتى تروى في نفسه ما تعلمه منهم وما اكتسبه من خبرات وعادات
ويتطبع بها وتصبح آخر الأمر طبعاً فيه... وخلقاً... لا يوجد له بديلاً لأن
ذلك ما تعلمه... وتلقاه وخبره... أو ما تعود عليه...

وإذا ترك الإنسان دونهما توجيه وتبصير وإرشاد... فلا شك أن رؤيته
ستنحصر في الرغبة في تحقيق لذات نفعية ذاتية بما أودع فيه من سمات وربما قد
إكتسبه من مألوف العادات... فكل ما تعود عليه بفعل العادة يقبله وكل ما يتألم
منه يجهله يرفضه ويكرهه وكل رفض إنما هو ناتج من الخسوف من الآلام
والكرهية لهذا العمل... وكل حب ثمره لتجربة وخبرة شخصية سابقة...

وسواء كانت هذه الخبرات والتجارب والمعارف إيجابية أو سلبية، فإن
الشخص الذى اعتاد عليها... إنما يتبناها لأنه عرفها... وتعود عليها، وألفها،
وأصبحت جزءاً من طبيعته وخلقه وسلوكه... فلا يقبل على غيرها إلا ما تحوّل من
الجهول... أو لحب في المألوف والمعتاد...

والشخصية التي ليس فيها طبيعة البحث عن المعرفة، أو التي لم تظهر بعد بنوعية

حب المعرفة .. تنصرف في غاياتها إلى التمييز بين مبادئ أصحابين :

الحب والكراهية ... القبح والجمال

وهنا تميل النفس إلى عاداتها في عدم الثقة في الاختيار .. فتركن إلى الحق الظاهري ، والذين المهرول .. وتهجر وترفض المجهول والمستتر حتى ولو كانت ثمراته أبقى .. ولذاته أتم .. ولا شك أن هذه طفولية لم تتم بعد ولم تتقدم في طريق العلم والحق والرشاد ...

أما إذا تقدمت هذه الشخصية خطوة لبا التي في روحها .. أو إذا تيقظت ولم تنفل ، أو إذا ذكرت فلم تنس وأخاضت ولم تنافق .. قائما تعمل على تقييد وغلبة ، ما تعلته .. وتتفحص ما اعتادت عليه من خبرات .. وما ارتضته وأحبته من الحال ...

١ - التكلف كبدية :

إذا أرادت هذه النفس إعادة تقييم معارفها .. فإن عليها التوافق من المألوف من العادات .. وتغيير مواقفها واتجاهاتها في ممرنة ، وصدق وذلك بتجنب التقاليد الأعمى .. ولن يتم ذلك إلا بالإسترشاد بمثل طيبة جديدة .. وقيم عليها تصبو إليها .. تنحو على دربها لتخلص من العادات الرذيلة التي إعتادت عليها .. والأخلاق السيئة التي اعتصمت بها .. والمعايير المعروفة التي تقيس بها الأمور والأفعال ...

وفي هذا المقام من المعرفة .. تستطيع هذه النفس أن ترفض ما تلفته وتعلمته - بدون وعى - إذا لم يكن متمشيا مع المثل الأخلاقية .. إلى تصبو إليها - وتمتد لها قدوة وغاية (١) ...

حقا . . إن النفس في طبيعتها الفطرية = نفس أمارة - تختلف عن النفس
المطلقة إختلافا واضحا . . وهي لكي تصل إلى هذه المرتبة الاسمى ينبغي عليها أن
تفهم من أخلاقها وطبائعها وعاداتها ، وذلك كما سبق القول باتخاذها غاية لها . وهي
الوصول إلى الحق تعالى ، وذلك يقتضى المجاهدة وتحصير في عمليات تحلية النفس
بكل وصف محمود . . وتخليتها من كل وصف مذموم . . .

والنفس لكي تغير من طبيعتها . . يجب أن تتكلف . . والتكليف هنا من أشق
الأمور عليها . . إذ هو مرحلة للانتقال من عادة إلى عادة . . ومن وصف إلى
وصف . . لأن في التكليف إقبالا على المجهول والمستغرب والجديد . . والنفس كما
سبق القول تميل إلى المألوف والمعروف والمحبيب . . .

التكليف إذن تعبير مجازي في العادات والطبائع . . وهو في عدم الركون
إلى المألوف . . وموافقة الذات ومتابعة الشهوات . . هو ترك للعادات السيئة
بالجمل ، والبعد عن المحاكاة والتقليد ، ثم هو المجاهدة والرياضة لاتخاذ القدوة . .
أي المعرفة الجديدة . . أساسا وطريقا . . وغاية . . .

ومهمة الطبيب الإسلامى تتعين في معرفة حال طالبه . . هل هو يسير في طريق
المحاكاة والعادة . . ويقبل على كل ما يلقى في نفسه عن طريق اللظن ، بلا تمحيص
أو إختيار أو امتحان ؟ . . أم أنه قد بدأ يفهم أمانى النفس الكاذبة ، ورغباتها
التي لا تسبغ ، والتي تسيرها المادة ، فلا ترد أن تتكلف شيئا جديدا يحرمها ولا
تقدم درجة في رقيها لاني الدنيا ولا في الآخرة ، وإنما تحيا حياة الفرج والخوف
والثور والقلق والزمع والاضطراء والاضطباع . . .

ينظر الطبيب النفس الإسلامى إذن بعين فاحصة إلى مريده جاهدا أن يعيد
تربيته . . بتخليصه من الغلبة . . والأهواء . . والشهوات . . فيوجه توجيهها

راشداً إلى إختيار القدرة الحسنة . . أو بمعنى آخر يوجهه إلى رؤية طريق الحق وهذه مهمة عسيرة . . إذ المطلوب تغيير نفسية الطالب تغييراً جذرياً شاملاً لإعداد شخصية مستقلة عن الماضي ، تمهيداً حياة جديدة . . بنظرة جديدة . . .

المطلوب إذن أن يتخلى الطالب عن كل ما تقبله بلا تبصر . . وأن يعد نفسه لأن تصبح كالصفحة البيضاء التي يعاد كتابتها من جديد ، بنظام واضح . . وترتيب وتنسيق فلا يختلط فيها بين الأوهام والحقائق ، أو بين العادات والمعارف أو الهوى والتعقل . . .

وعلى الطالب أن يبدأ بالصدق . . والبعد عن الغفلة ومجاهدة النفس للوصول إلى الطهارة والصفاء . . ودفع الوسوسة والشك والريبة ليحل محلهما العلم والإخلاص والطاعة . . .

وهذا الطريق لجد شاق — كما سبق القول — فيه مجاهدة ورياضة ومضامنة ومكابدة وفيه بعد عن المحظوظ والشهوات ورفض العادات وإقبال على أنوار الحق تعالى ، إذ أنه يتطلب إرادة قوية . . وعمل إيجابي ونية صادقة . . .

وبدون الإرادة والعمل والنية تنعدم القدرة للوصول إلى الأفضل والأمر والأشرف والأقوم . . كما أنه بالانعدام التكلف ، تنصف النفس بالبلادة والخرول والتبطل والسلبية وتفقد القدرة على التغيير الجذري المحقق لارتقاها وكمالها . . .

إذن فالبدء واضحة . . والمربي يعرف مثالب الطريق وعثراته . . ويدفع الطالب إليه دفعاً . . فإذا ما صدق المرشد وأخلص وأطاع وغاب أهواء النفس ، وتدم على موافقة الشهوات . . وعرف أن الحق واحد . . وأنه الغاية والمقصد والمهدف والأمل والرجاء ، وأن بدوئه تعالى لا نجاح ولا فلاح . . إذا عرف المرشد ذلك . . وعرف أن الإقبال على طريق الله هو الوصول إلى السكينة

والطمأنينة والأمن وأن به تنطهر النفس من بقائصها .. وتبتعد عن إغشائها ..
وغرورها فتسلم من الأمراض التي هي نتيجة لازمة للمخالفة والعناد وتعرف أنه
يجب أن تحارب في ذاتها الخواطر الشيطانية ليحل محلها .. بالتطهر والصفاء ..
الخواطر الملائكية ...

إذا عرف الطالب بكل ذلك .. وبدأ في التطهير بالطبائع الحسنة والندم على
ما اقترف من الذنوب وتاب عن ذلك توبة لصوخ .. وأسفت على ما ضاع في
في القهر والعبث والشلال والجهالة .. هنا فقط يتبصر الطالب بالحياة الحقيقية
القائمة على المعرفة .. فلا ترجع نفسه إلى الطوى أبداً ...

ب - السكينة كثررة :

وهنا تعرف النفس بالاستقامة ما يجب أن يلج .. وما يجب ألا يلج ..
فتدبر مطمئنة تكثفها السكينة والطمأنينة في طريق الحق ، مبتعدة عن الغواية إذ
التوبة عن العادات المردولة أهم مقومات التربية النفسية .. والندم هو الدعامه
التي تساعد النفس على إختيار ما هو حق وصدق ...

وبالندم تبدأ مرحلة جديدة من العمل .. تنطلق إليها النفس ، وبالندم تنحو
النفس إلى الأمن والأمل .. بعد أن كانت الاضطراب والقلق والخور
والرسوسة طباط ملازمة لها ...

التوبة إذن بداية لمرحلة جديدة للنفس .. ونهاية لمرحلة قديمة ، أي بين
مرحلتين .. مرحلة العادة .. ومرحلة العلم .. إذ التوبة خلاص من العادات
السيئة والطبائع المذمومة .. ثم أنها الإخلاص والطاعة والصدق .. في أن تبدأ
مرحلة النفس من جديد في طريق الحق تعالى ...

وفي هذا المقام يستقبل الطالب ثمرات ياتمة بعد رحلة المجاهدات والرياضات

والمعاناة والمكابدة .. فيتعرف على معان جليلة .. ويلهم الهامات عظيمة ..
 ويصير بفتوحات جميلة .. فيطعم من الى سبيله .. ويصرف انه طريق الحق ..
 فيزداد إيماناً وتوحيداً ، ويتبعد عن الشبهات والغوايات ، ويكون الله له نصيراً
 ومعيناً ، فلا يذكر إلا اسمه .. ولا يتكلم إلا والحق في قلبه ، وإذا غفل لحظة ..
 أو لبى ساعة .. ذكر ربه ، والذاكرون هم الموحدون الذين تابوا
 وأصلحو وصدقوا .. فتاب الله عليهم ...

وإذا سار الطالب في هذه المرحلة .. وسعة التوحيد .. فان الله لا يتركه
 وحده .. وإنما يضيء له طريقه ، فيبعد عنه عثرات الطريق ويخفف عنه
 المصائب ، يتلطف معه في الابتلاء .. ويفتح عليه من أنواره .. ويبشره بنعمة
 تنزل على قلبه الإلهامات والروى ، ويليد بنصر من عنده ، فيشج قلبه اشراقاً ،
 ونفسه علماً وحرقةً ويقيناً ...

والتوحيد غاية المرید الصادق .. اذ به يسدرك الأمن بالله لأنه
 ذاكره له أبداً .. وذلك تصديقاً لقوله تعالى :

«ألا بذكر الله تطمئن القلوب» (الرعد : ٢٨)

ج - مهمة الطبيب الربى :

أن مهمة الطبيب النفسى ، كشيخ مربى ، متابعة نفس طالبيه في كل هذه
 الأدوار فهو فارس يركض الى قلبه مربرة بدخوله نفسه ويسر له حقيقة باطنه ..
 ولا يخفى عنه شيئاً .. بل يكشفه بما يتابع على نفسه من خواطر .. وهذا
 يساعد للمربى على لصحه ويعاون على ارشاده .. قياسه بترك هذا وطلب ذاك ..
 اذ هو الخبير بخواطر النفس الملائكى منها والشيطانى .. حيث سبق له أن خاض

غدار هذه الشجيرة وتعرفت على الماثبات والعيوب .. كما أنه ذاق ثمرة الاخلاص
الباية .. وعان ما يعانيه أهل الحق ...

يلقن الطبيب النفس الاسلامي مريده اذن معنى الطاعة ، حتى تتباد نفسه
على القبول وعدم الاعتراض ولا تذتر ولا تكاسل .. كما أنه يشحن قلبه بحب
الحق والتخاطق بأخلاق الرسول الكريم - ﷺ - فلا تطالب نفسه عزائلا ..
ولا يمدا قايما .. انما هي راضية أبدا بما يأتيها من رزق ، مشوكة على الله ..
متجهة اليه هل الدوام والاستمرار ...

الفصل الخامس

العلاج بالذكر

من أفضل طرق العلاج في علم النفس الاسلامي الذكر ، ، لانه يصقل
القلوب ، إذ أنه يبدل الخوف أمنسا ، والعداوة محبة ، ويحول القلق والجزع
والاضطراب إلى سكونية ، والفرح والرهبة إلى طمأنينة ...

و فلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا .

(الفتح : ١٨)

ويطلب بالذكر على الذاكر روحانيته على ترابته .. فيعرف أن الرئيسة
هو جس شيطانية ، والتموتر وسواس ، وجيها من تهاويل الشيطان وتجاوزته
لافراغ اللسان وادعائه ، فاذا أحاص اللسان في عبوديته وأطاع ربه واقتصر
إلى مولاه ، تولاه تعالى فرفع عنه الهم والغم ، وبذلك ينشغل الذاكر أبدا
مع الله (١) ...

وعما تكالبت على الذاكر الابتلاءات وأثقلت الحياة بمناعها ، فانه بالذكر
يستريح ويطمئن ، ويتنعم ويرضى ، ويعرف أن الشكوى لله حقارة ومذلة
وأنه مع الله ، هو المختصر أبدا ، فلا يمتلك بأس ، ولا يستقطبه اكتئاب لانه
مع صاحب الأمر ، المعين .. والمنقذ ، مسترسل معه ، خيف في وسابه ، فلا
أين مع الله .. ولا تبرم .. ولا قلق .. ولا زمت ، وإذا طاشت بالالسان سبل
الجساسة ، وانخلقت في وجه الأبواب ، وتوومت قدماء في البحث عن الرزق

(١) راجع الفاظ الموقية ومسايقها - المؤلف - الاخلاص - القدر

والمؤمنة ، فان الله بفضل الذكر ينتج عليه كنوز جسوده ويكافئه على حسن صنيعه ، ويمن عليه بنعمه واحسانه ، فيعرف أن مطلبه كان تافها لأنه مع الذكر شهد حلاوة صبره ، وواقب جمال توكله .. فستضيء قلبه بالمحبة .. ويمتلك نفسه بالرضا والامن ...

وإذا أثقلت اللسان الدنيا بمناعبها ، ففقد الصحة والجاه ، ثم ذكر الله ، علم أن لا جاء إلا جاء الله .. ولا وجود للجاء إلا معه تعالى ، وأما جسمه فيشكل وتركيب ، بل تراكم لبس فيها روح ولا ضمير ، فإذا ما اختل الجسد صحت الروح ، رقت وأبغدت واستضاءت ، فخرضى على أى وجه ويقين بها يمتحنه الله بالبلاء والابتلاء ، ويرى نفسه وهو ذا كر أغنى الاغنياء وأصبح الأصحاء ، وألوى الأقوياء ، بأنوار الله ...

يقول بعض الائمة ، (١) أنه بالذكر تسمى المخاوف ، فإذا ذكر الذاكر الله ، حمرت قلبه الطمأنينة ، وغمره الرضا ، بعد أن كان متوجسا خائفا .. يائسا قاطئا .. وأظلمت النعم ولم يقينا أن ما اعتراه من هواجس يسير اقتلاهما ، وسارس يمكن كسرهما ، وتفيلات باطلة يمكن صرفها ، وأنه مع الله ، لا يخشى شيئا ، ولا يحسب شيئا ، ولا يعتربه شيء ، يتأكد له ذلك بها يثبت الله به فتواده ...

والذاكرون الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ،

(الاحزاب : ٣٥)

يقول الرسول - ﷺ - :

(١) الامام أبو حامد الغزالي - مكاشفة القلوب ص : ١٤٥ - ١٤٧

« لا يجتمع قوم يذكرون الله تعالى إلا غفرتهم الملائكة وغفبتهم رحمة ،
ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله تعالى » (١)

أما الغافل عن الله ، والذي تكبر وتجبّر ، فتمد ظم نفسه ، حيث اعتقد أنه عاقل
وغيره جاهل بل هو في الواقع أجهل الجاهلين ...

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له عقيمة حسنة »
أما الذاكر لله فهو الذي يذكركه الله ..

« فاذكروني أذكركم »
(البقرة: ١٠٢)
وإذا ذكر الله عبدا ، فإن ذلك مكافأة له بالخير والثناء عليه في الملا الأعلى ،
وإذا ارتكب الإنسان إثما شريرا ، وأقلقه وأفرعه ما وقع فيه من معاصي
ثم أنه إذا توجه إلى الله وذكره سرا وعلاوية ، فإن الله يغفر له ذنبه ، ويرفع
عنه همه وحسره (٢) ..

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله »
(آل عمران: ١٣٥)

يقول الرسول ﷺ :
« إن الله تعالى يقول أما مع عبدي ما ذكرني ونسركت بي فغفناه (٣)
والذكر توبة وتطهر وصلاة وعبادة لله ، بل من أفضل العبادات وذلك
وارد في قوله تعالى :

(١) رواه ابن ماجه عن أبي سعيد ، وروى الضياء عن أنس بن مالك الحديث مع اختلاف
اللفظ « ما جلس قوم يذكرون الله تعالى إلا ناداهم مناد في السماء » « قوموا مغفور لكم »

(٢) الإمام الشيرازي - كشف الغمّة ص : ٣٣٧ - ٣٤٠ ج ١

(٣) ذكره أحد عن أبي حمزة !

و أن الصلاة تنتهي عن الفحشاء والمنكر ، ولذا ذكر الله وأكبر ،

(العنكبوت : ٤٥)

يقول الرسول ﷺ :

« مثل البيت الذي يذكر الله تعالى فيه ، والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحى والميت » (١)

والذكر الجماعى بقوى العزائم ، وبحسارن على البر والتقوى ، لأن المؤمن ضعيف بنفسه ، قوى بأخوانه ، وإذا قارنا ذلك بالطرق المتبعة عند علماء النفس المحدثين فيما يسمونه بالعلاج النفسى الجماعى (٢) ، لوجدنا أن هناك تارفا عظيما ، إذ أن الذاكرين لله يتوجهون بقلوبهم إليه تعالى ، وهذا سبب اصفات النفس المدمومة ، وتحليتها باصفات الممودة ، فيخرج الذاكرون وقد تطهروا بما علق بهم من عشاوكت ، وسكنت نفوسهم من طلب الحظوظ والآفات ، فيقبلون على الحياة بقلوب سليمة خالية من الحقد والكراهية ...

يقول الرسول ﷺ :

« ذكر الله شفاء للقلوب » (٣)

وهناك اختلاف بين العلاج بالطرق النفسية وبين العلاج بالذكر ، فالطرق العلاجية التى يتبعها بعض علماء النفس الحديث تستهدف تخليص المريض من أمراضه عن طريق تمرية الرغبات واستظهار المكبوتات ، وامتصاص الصراعات ،

(١) رواه الشيخان من أبى موسى الأعمري

(٢) د . عزت راجع - الأمراض النفسية والعقلية ص ٣٥-٢٠

(٣) رواه الترمذى عن انس

باقترachus أن تفاعل الفرد مع الجماعة وما يتبعه من تأثير متبادلي يفضي إلى تغيير السلوك ، والنظرة إلى الحياة ...

وطريقة التنفس تقوم على أساس استقاط الانفعالات على المجتمع ككل ، بادعاء أن الفرد عندما يكتشف أن متاعبه ومشاكله ليست واقفا عليه وحده ، فإنه يلتقي بحده حيث يجد غيره لديه نفس المناهض ، بل يسبقه فيها غيره ...

كما يعتقد أصحاب تلك الطرق العلاجية أن المرضى يشعرون كذلك أن المشاكل التي هي مصدر متاعبهم لا تستحق أن تكون أساسا للتفكير عليهم ، مما يجعلهم يشعرون بالجماعة ، ويثقون فيها ، ويشعرون بالانتماء إليها ، إلى أن تصبح الجماعة سندا عاطفيا للمريض تعينه على الاستبصار ، وفهم نفسه ...

ولذلك يلجأ بعض علماء النفس (١) إلى العلاج بالتنفيس كوسيلة لانخراط المريض في الجماعة ، ويلاحظون أن هذه الطريقة صالحة في حالات الاضطرابات السيكلوسوماتية ومشكلات الحياة العائلية والمالية ، بل وفي المشكلات الجنسية وادمان المسكرات ، كما أنهم تفيد في ترويق العلاقات الانسانية في ميدان الصداقة ... (٢)

وينظر علم النفس الاسلامي إلى هذا العلاج على أنه علاج وقائي لا يغير الشخصية الانسانية تغييرا جذريا ، إذ أنه يوج من الاستقاط على الآخرين ، وذلك بازاحة المشكلات والعقبات والعوائق الذاتية ، كالقاء الأوساخ في غمرة الاندماج والتداخل في الجماعة ، ونحن نقول : هل يصبح المريض معافيا بعد الانتهاء من

(١) د . مارت راجح - الأمراض النفسية والعقلية

(٢) المرجع السابق

الإلتصال بالجماعة ... وهل يطويه هذا العلاج وقاية من الوقوع في نفس الأمراض السابقة التي سبق أن أصيب بها ...
 هناك تفكير كبير في ذلك ... فلا غرو أن تلك الأعراض ستعاوده مرة بعد لارة ، وأنه لن يتخلص من أمراضه ، بل ربما تزداد سوءا عندما يصطدم مرة أخرى بنفس المشكلات التي كانت سببا في مرضه ، وعادة أن هذا التسرع من الأمراض يحيل أصحابه إلى التشاؤم والكآبة من فرط ما يعانونه من فزع وخوف ودرعب ، وما يرهق كاهلهم من آلام وعذاب ... وما يفكرون به من كبت وإحباط ووساوس ...

إذن فإن الثقة في هذا النوع من العلاج مؤقته وغير مضمونة ، علاوة على أن الأثر النفسي طارئ زائل لا يمس حق الداء ، وحتى إذا ما خصص مشرف أو عدة مشرفين لكل مريض ليصلحوا أمر نفسه وليعالجوا حالته ، فإنهم بها أوتوا من علم أن يستطيعوا اكتشاف أبعاد متاعبه النفسية ، وهم وأن صادفوا بعض النجاحات في علاجه فإنما هي نجاحات مؤقتة سطحية ، إذ ما يلبث المريض أن يرجع إلى حاله الأول ... (١)

والواقع أن هذه الطرق سلبية غير فعالة ، إذ أن المريض لا شك يحتاج إلى تغذية نفسه بعقيدة أصيلة تتجاوز حياته الدنيوية إلى ما بعد الموت ، وتعينه على التغلب على متاعبه ، وتنقله نقله أخرى إلى حياة التفكير في عالم أكثر أمنا وأفضل غاية حتى يطرح كل ما في نفسه من عوائق مصطنعة ومتاعب كاذبة .. وبلا رجعة .. والطريقة المثلى — كما يرشدنا علم النفس الإسلامي — إنما تكون عن طريق

(١) أ - ح - أيزك - الحقيقة والوهم في علم النفس ص ١٦ ترجمة د. رؤوف نفلي

والاستاذ لدري حنفي

التفكر في الله ، باللسان والقلب ، فالذكر لله يساب ما في النفس من عواجز
ورسوس وعذابات ، ليستبدل مكانها السكينة والرضا والأمن والمحبة ، وبذلك
يسيد إلى نفس المريض الثقة بالله وفي الله ومع الله ، فلا يفكر في آفات نفسه
وعيوبها ، وإنما يتجه بكليته إليه تعالى فيؤامسه في وحدته ، ويظلمن قلبه الخائف ،
فتسكن سريره . . ما ورد في قوله تعالى :

« لا يذكر الله تطمنُّ القلوب » (الرعد : ٢٨)

يقول الرسول - ﷺ - :

عليك بذكر الله وتلاوة كتاب الله فإنه نور في الأرض وذكسر لك في
السماء (١) . . .

ولا شك أن استخدام الطرق العلاجية الجماعية المؤسسة على المناهج الموضوعية
والمادية دون أن تستهدف توجيه المريض إلى الله والعمل على تزكية روح الإيمان
في قلبه ، إنما تعد طريقاً مسدوداً طالما أن المريض قد حجب عن الله وانقطع
عن ذكره ، إذ أن إعتياده الكلي هنا يرتكز على الطيب وعلى التجارب السابقة ،
والطرق السلبية المختبرة . . . وهي صالحة فقط فيما يتعلق بالبدن أو الهيكل
المادى حسب . يقول الرسول - ﷺ - :

« ما من قوم يقدمون في مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه إلا قاموا عنه مثل
جيفة حمار وكان ذلك المجلس عليهم حسرة يوم القيامة (٢) . . .

أما الغذاء الروحي . . والذي هو أساس العلاج النفسي فلا يعتمد في مسلم

(١) رواه أبو هريرة عن أبي سعيد .

(٢) رواه أبو داود عن أبي هريرة .

النفس الحديث كعلاج رغم أنه الأساس الذي يعين المريض على الشفاء إذ يرى قلب المريض بالأمن والسكينة ، فيستضيء بالنور بعد الظلمة ، وينصرف عن حقيقة نفسه فيبيل سريعا من أمره . . .

ولا يقوم العلاج بالذكر بترضية النفس وشغلها بحفظها وأهوائها ، كما ينبغي في العلاجات التجريبية الحديثة ، وإنما يهتم بترويض النفس وسياستها وروايتها ، ومراعاتها للسيرة في طريق الله . . .

يقول الرسول - ﷺ - :

« ما عمل ابن آدم من عمل أنهى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل ، قالوا يا رسول الله ، ولا الجهاد في سبيل الله قال : ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع (١) »
ليس إذن علاج النفس في ترضيتها فتزدها شرها وبخلها لتحقيق لذاتها واشباع غرائزها ، وإنما العلاج الحق بتربيتها على كظم الغيظ والصبر الجميل والصبر على الأذى والمجاهدة في الحق عن طريق الاستعانة بالله تعالى الكامل . . . النفس . . . العزيز . . . الجبار ، فتشعر النفس بصدق عبوديتها فيذوب غرورها وتنحني آفاقها ، ويستقيم حالها ، وتزجج عن شيا . . .

أما تحارب علم النفس الحديث على مرضى النفس فإنها إن صدقت أحيانا نجاحا فإنها لا تصدق ، وهي بمثابة حقنة مسكنة للمريض بالسرطان قد تغشى داءه والتشر في خلايا جسمه ، لما يلبث المسكن أن يزول أثره ويرجع المريض إلى حالته أكثر سوءا . . .

(١) رواه ابن أبي شيبة .

وصراء كان العلاج عن طريق القلب ، أو العلاج بالإيمان ، أو العلاج بالطريق التخديري ، أو عن طريق مشاهدة المسرحيات والأفلام النفسية ، فإن ذلك كله ليس حلاً جذرياً للمشكلات المريضة وما يعانيه من أعباء مرضية ... وإذا كان العلاج النفسي الحديث يهدف إلى تغيير ظروف المريض ومشاعره وشخصيته تغييراً جوهرياً ، ويأمل أيضاً تغيير طاقاته وطريقة تفكيره ، وأسلوب حياته ، بما يتبعه من أساليب علاجية يمنحها عليها .. فإن ما يقدمه في واقع الأمر من تصورات ، لا تفيد في كثير أو قليل ، ذلك لأنه يتوجب قبل الشروع في العلاج أن تفهم النفس الإنسانية فهماً دقيقاً فاحصاً ، وأن يتسفر ذلك إلا بالرجوع إلى خالقها وموجدها العالم بأوصافها .. الخبير بتركيبها ...

وإذا كان أصحاب العلاج النفسي يتكلمون عن خطوتين للعلاج ، خطوة يسمونها بالاستبصارية ، وهي تلخص في معرفة المريض على فهم نفسه ومعرفة مصدر اضطرابه ، وخطوة ثالثة يسمونها بالخطوة البنائية ، ويهدفون منها إلى معرفة المريض وإرشاده إلى اتباع أساليب جديدة لتوافق ، أي لحل مشاكله ومواجهة صغوباته ، ويتصورون أن الخطوة الأخيرة هي الأسلوب الجدي في العلاج .. فإننا نعتقد أن هذين الخطوتين العلاجتين هما على الحقيقة من الأساليب الجروية السلبية الفاشلة التي أبعدت عن الداء أكثر من التعرف عليه لعلاجته ...

ذلك أن دراسة الشخصية على هذا النحو دراسة فجة ، ودليلاً على ذلك أن علماء النفس قد وقعوا في عملية إحتيال هائل قاضح عندما استسلموا لرأي (سيجموند فرويد) الذي قرر بهم عندما أعلن أن شخصية الفرد إنما تتكون في السنوات الأولى المبكرة من عمره ، وأن ما يكتسبه في السنوات الأخرى إنما هو إمتداد طبيعي للمرحلة الطفولية المبكرة ...

واقدر أصدر علماء النفس بناء على هذا الفرض الغير دقيق - والذي لم يشهد صدقه حتى الآن - مرسوما بقانون اسمه : قانون الحتمية النفسية ، والذي يختصه حكموا على الشخصية حكما إستبداديا عن طريق الكبت والاشمور .. والوراثة ، والعقد النفسية التي تتكون في المرحلة الطفولية المبكرة ...

وإذا كان هذا الفرض الغير سليم والغير منطقي يخالف مخالفه صريحة وصف الخالق للنفس البشرية ، فكيف يمكن أن نستنتج من هذه المقدمات الفاسدة نتائج صادقة ؟ .. بل كيف يقضى لنا تغيير الشخصية تغييرا جذريا وليس لدينا أدنى معرفة بطبيعة النفس البشرية ؟ .. إن التعريفات المتناقضة التي وضعت لتعريف الشخصية الإنسانية قد زادت على أكثر من مائة تعريف ليس واحدا منها على الأقل صحيحا .. أو صادقا تجريبيا ...

ولمّا تصور أن أصحاب علم النفس بمعنى فروعه وتخصصاته لا يستطيعون أن يدعوا بعد كل دراساتهم وأبحاثهم أنهم يعرفون شيئا عن النفس البشرية ، ولا أن يفسروا تفسيراً مقبولا سلوكها ، ذلك لأن صفات النفس وأوصافها لا تخضع لتجارب ووسائل العلم الحديث الذي يستمد مبادئه من الموضوعية العلمية أي باستخدام منطق الاستقباط والقياس والملاحظة .. وغير ذلك من الطرق المادية التي تستخدم كمحكات ، وقياسات لمعرفة الصدق أو الكذب ...

والعمل الإنساني مما أرق له من الفطنة ومما استخدم الأساليب والأدوات الحديثة ، فانه عاجز تماما .. وسيتبقى عاجزا أبدا عن فهم وعلاج النفس الإنسانية ما دام يتبع الطرق التجريبية والتطبيقية والتحليلية والمادية في محاولة لفهم النفس الإنسانية وعلاجها ...

ولاشك أن الطريق الحق الذي يجب أن يتبع .. إذا أريد العلم النفس أن

يكون علما على الحقيقة هو العودة إلى نور التوحيد والرجوع إلى السامع
السماعي ، وذلك بأن يتدارس كلام الله ، ويتفحص معانيه ويستوضح ما استغنى
على عامة الناس ، وذلك لفهم النفس فيها جديداً بالجوء إلى الله تعالى الذي خلق
هذه النفس ، المستغنى بنوره وحكمته وقطعائه فلا تعرض ولا تنثر ولا تضاد ،
وإنما نستقطب ببرئنا وتأخذ الآيات القرآنية لتطبقها على أنفسنا ونجعلها بمراسم
برشدنا في طريق العلم والعمل . . .

وعلى المهتمين بدراسة الإنسان وحياته النفسية ألا يفصلوا بين عقل الإنسان
وقلبه أو بين ظاهرة وباطنة ، أو بين شريعته وحقيقته ، ولا يمكن أن يشر هذا
الإتجاه نهائياً إلا بالدخول في حظيرة بالإيمان . . .

وإذا تقرر لنا ذلك ، فالتنا سنعرف حتماً أن أفضل علاج لأمراض النفس
وآفتها إنما يكون بذكر الله ، وبغير الإتجاه إلى الله فلن يستطيع العلم أن يتقدم
خطوة في طريق شفاء الأمراض العصابية ، والنفسية ، بل سيؤدي الأمر سوءاً
والإنسان شفاء وتعاية وضللاً ، تصديقاً لقوله تعالى :

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له مديدة حنكا ، (البقرة : ١٢٤)

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ، (الكاف : ٢٨)

« وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ،

(الإسراء : ٤٦)

فالذي يعرف الطريق إلى الله هو الإنسان السليم النفس والقلب ، دينا وآخر . . .

« إنما يذكر أولوا الألباب ، (الرعد : ١٩)

يقول الرسول ﷺ : « ليس ينحصر أهل الجنة على شيء إلا ساهية مرت

بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها ،

الفصل السادس عشر

العلاج بالصبر

الصبر في اللغة الحبس .. وكل من حبس شيئاً .. فقد صبر وقد سمي رمضان شهر الصبر ، إذا أن الصابر حابس لنفسه عما تنازع إليه من الشهوات والشكوى .. والآلام .

وسمي الصابر على الفاجعات صابراً ، لأنه قد حبس نفسه عن المخرج (١) ، وبهذا المعنى يكون الصبر بما يأمر به العقل .. وما تهبط إليه الحكمة وهذه نظرة صحيحة لمفهوم الصبر غير النظرة الساذجة التي يراها أصحاب التحليل النفسي الحديث ، من أن الصبر نوع من الكبت ، وأن جوهر الكبت يكن في تجنب ما هو مؤلم وأن مصدره صراع بين رغبات وأهواء متضادة متصارعة تؤدي إلى الكبت (٢) .

ولا شك أن موافقة الأهواء تبعد الإنسان عن الصبر ، لكن الإنسان العاقل يفضل فرائد الصبر — وما يشتره من الخير عاجلاً أو آجلاً — على عقاب الهوى ، وما يجلبه من الشر والذائل .. تصديقاً لقوله تعالى :

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » .

(الكهف : ٢٨)

لئن موقف الصابر موقف راجح .. وطريق اختياري يفضل فيه تحمل المكابدة على مقارفة الهوى ..

(١) الإمام ابن القيم الجوزي - ذم الهوى ص ٥٨ وما بعدها .

(٢) بارتراك ملامى - مجلة أوديب ص ١٨ ترجمة جميل سيد وأحمد رمزي .

وإذا قوزت فضائل العقل - الذى يامر بالصبر - بالهوى .. ظهر لنا
خساسة الهوى .. الذى ينهى عن الصبر .

والصبر بهذا المعنى .. فى أرق صورته وأجل معانيه على أحوال منها :

١ - صبر على المحبوب : أى صبر على بعد المحبوب .. وعدم الاعتراض
عليه .. والمحبوب هنا هو الحق تعالى .

٢ - صبر على المكروه : أى صبر على ما يعابيه الصابر من آلام وتحمل
الفاجمات وكظم الغيظ ، وهى الامتناعات .. والاختبارات .. والابتلاءات
التي يجرى بها الصابر ليتعرف على جهاده فى سبيله والعمل على مرضاته .

ولا تتم الطاعة لله إلا بالصبر فالطاعة منقذة إلى الصبر لتكون متوجهة لله
حقاً على الوجه الأكمل .. كما أن تجنب المعصية يحتاج أيضاً إلى الصبر ^{المطلوب}
الإلحاح عليها ..

الصبر إذن .. يحمل من أجل غاية نبيلة ليتحقق الصابر من الله أملاً عظيماً
تصدق لقوله تعالى :

« ولئن صبرتكم لخر غير الصابرين » (النحل : ١٢٦)

« وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

(فصلت : ٣٥)

« فاصبر إن وعد الله حق » . (طافر : ٥٥)

« ولئن صبر وظهر إن ذلك لمن عزم الأمور » . (الشورى : ٤٣)

« إن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » (آل عمران : ١٢٠)

والصابر ليس مترجساً .. أو عائفاً .. أو كالبأ لطاقة شهوية تتردد
 الاطلاق بدون رضى إذا وجدت شيئاً خارجياً ، أو ظرفاً مناسبة إذا الصابر
 واعي لما يفعل .. يظن لسيره ، طارف بشعراته .. يتحمل في سبيل الله ثقة
 به ورجاء فيه تعالى :

« إنا وجدناه صابراً ، نعم العبد أنه أواب .. » (ص : ٤٤)
 المروع عند الصابر .. والكابت غير الصابر .. فالكابت يحصل نفساً
 مريضة يخاف أن تفضحه ، وتكشف عن نزعاته الشهوية ، وأهوائه المنقلبة
 وربما وقع في الدلل والأمراض وما يسمى بالأمراض المستهدية كنتيجة للكبت
 دوافعه الدوائية أو الشهوانية ...

كما أن الكابت لا يتحمل (١) شيئاً لأنه كالوتر المهدود ، مرتاباً .. قلقاً ..
 عائفاً في الهم والغم ، متشاكساً ، يرى الحياة بمنظار شديد السواد .
 أما الصابر ، فهو قوى بالله .. ومن الله .. وفي الله .. والله ، يتحمل
 في جلد ، ويقوى بعون الله على أعدائه : —

« إن يكن منكم مشركون صابرون يطلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يطلبوا
 ألفاً من الذين كفروا ، .. » (الأنفال : ٦٥)
 والصبر تحمل ومكابدة ومعاناة لغتى أنواع الابتلاءات وهي اختبارات
 تحتاج من المرء إلى التنظيم ، والثوكل ، والرضا في جميع الأحوال ، بل يحتاج
 إلى علم ، إذ الجاهل لا يتحمل شيئاً .. وإنما يختار الأيسر والأسهل ، أو يهرب
 مما يحاصره من دوافع .. خوفاً وعلماً من وقوعة تحت طائلة القانون ...

(١) بانيك ملاي - عدة أوديب - ترجمة ومراجعة جيل سيد ، دكتور
 أحمد رمزي .

إذا فضحت نفسه أو خشيته انكشف أمره ، فيحتقره المجتمع ، وتنفصل منه الجماعة ، فهو يكبت ليهرب من النزعات والعصارات ، فإذا وجد باباً لا يخطئها وما انفجرت المكبوتات في صور ضروب من الأفعال الشاذة ، والنشاط التدميري والسلوك الانحرافي .

الصبر إذن ليس نوعاً من السكبت الذي يخفف المرء فيه عما يقاسيه بكبته في اللا شعور ، إذ هو عملية هروب مستمرة ودائمة .. وكان ليس هناك ما يصبر عليه ، وما يجب تحمله ، إذ هو فرار من الوعي إلى اللاوعي ، أما الصابر واقع لكل ما يفعل ، ومدرك لما يصبر عليه تصديقاً لقوله تعالى :

« ولنبليوكم حتى يعلم المجاهدين منكم والصابرين » . (محمد : ٣١)

« والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » . (البقرة : ١٧٧)

قالصبر علم ، ثم أنه جهاد ومعاناة ومكابدة في سبيل الحق .. والصابر صادق :

« الصابرين والصادقين والقائمين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » .

(آل عمران : ١٧)

الصابر ليس مستذلاً ولا مكبوتاً ولا جرحاً .. إنما هو متوكل على الله .. راضى بما يأليه من خير وشر ..

لقد أودى يوسف - عليه السلام - من أخوته ، والقوة في الحب ، وصبر والده بطوب - عليه السلام - على فقد صبراً جميلاً ، وغم معرفته اليقينية ، وعله القدي الذي وهبه تعالى إياه ، بأن أولاده جاهلون وكاذبون وأن ما ادعوه اقترأه ، فقال لهم - كما ورد في الآية الكريمة :

« بل سوات لكم انفسكم امراً ، فصبو جميل ، »

(يوسف : ١٧)

ثم ابتلى بفقد ابنه الآخر بنيامين ، فلم يتزعزع إيمانه ولم يصدف عزمه ، ولم يشكك لحظة في ربه ، وإنما كان واثقاً كل الثقة في رحمة الله ، فقال عليه السلام ،
كما ورد عن عمر من قائل :

« فصبو جميل عسى الله أن ياتيني بهم جميعاً ، »

(يوسف : ٨٢)

لم ييأس يعقوب - عليه السلام - من امتحان الله بفقد ابنه ، ولم يقنط من من رحمة الله ، ولم يتعرض على جحكه تعالى ، إنما كظم غيظه ، وصبر على بلائه ، إذ آتت أن ذلك مشيئة الله .. وحكم الله .. وقضاء الله :

« وأبصرت عناء من الحزن فهو كظيم ، »

(يوسف : ٨٤)

كما أنه لم يشكو لأحد من الناس .. ولم يهزم .. ولم يتحسر .. ولم يتنفع عند أحد ، لأنه يعلم أن الناس جميعاً لا يستطيعون له نفعا ولا ضرراً ، إلا بما كتبه الله له ، فتوجه إلى الله توجه العبد الصادق ليبت إليه حزنه ويتضرع إليه مناجياً واثقاً من نصرته فيقول :

« وإنما أشكو بى وحزنى إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون ، »

(يوسف : ٨٦)

واستجاب له السماء لهذا النداء .. وانتهى المن والعطايا على النبي يعقوب عليه السلام - وجاءت رحمة الله بعد رحلة المسكينة والمعاناة ، وتحصل الفاجات

والصبر على الابتلاءات، وبشر من الله بعودة الحبيب إلى حبيبه بعد طول غياب :
 « قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف » .
 (يوسف : ٩٤)

ثم تتابع المبشرات ، ويحظى يعقوب - عليه السلام بالنعم الإلهية ، كشرة
 لصبره ، ومثابة لنعمه ، وجزاء لصدقه وتركه لقد رجع إلى يعقوب
 - عليه السلام - في غمرة البشري باللقاء الموعود نور عينيه بلا علاج ولا دواء
 كأنه لم يمرض كدأ ، ولم يكابد صبراً ، ولم يتحمل كظماً وكان قلبه لم
 يضطر المأزجاً :

« فلما جاء البشير واللقاء على وجهه فارتد بصيراً » .

(يوسف : ٩٦)

ثم اخذ يذكر أولاده بقوله السابق عند البلاء حتى أن يكون ذلك هبة
 وتذكرة ، وهو مطمئن النفس وابط الجأش ما كن القلب :

« ألم أقل لئن كنتم من الله ما لا تعلمون » .

(يوسف : ٩٦)

الصبر إذن ثمرات رائقة ، ونتائج بالغة ، إذ أنه طريق للصحة النفسية
 في الدنيا والآخرة ، وليس داهلاً على الحقد والكراهية وكبت الاعتداء ،
 والهروب من المفاجآت وسر النزوات والهموات بل الصبر دليل على
 التحمل للأذى ، والرضا بالقضاء ، والمعاناة في سبيل أمل عظيم بامتحان قاس ،
 يريد الصابر به أن يختار الجنة لينال ثواب الله فضلاً عن الله ومنه :

« سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

(الزمر : ٤٢)

كما أن الصابر عارف بالله ، عالم بفضله تعالى ، إذ لا يعقل أن يصبر إلا الواعي (١) ، والصارف بما يصبر عليه ، فليس ما يقوله فرويد وتلامذته بصحيح من أن هناك صراع من أجل تحقيق الذات والشهوات ، وتغلب المستكرهات .. وأن هذا الصراع أما أن تكتبه البيئة ، أو تعطى الفرد (٢) الفرصة لإشباعه وتنفيذ نزواته وتحقيق شهواته ..

ليس بصحيح إذن ما يدعيه أصحاب التحليل النفسي من هروب الناس جميعاً إلى كبت دوافعهم العدوانية والشهوانية ، وهذا الفرض لا تؤيده أى أساليب منطقية أو أسباب مقبولة عقلية ، إذ أن الإنسان مسئول عن نفسه ، وعليه أن يختار طريق الخير أو طريق الشر فلماذا يختار الصبر في سبيل الله ، أو الكبت وهو غفلة من الله (٣) ، ثم أن هناك في آخر الأمر جزاء من الله ، حسب الإخلاص في الأعمال ، فإذا يكون بالنعم والمان الإلهية ، أو التندم والعذاب الآخري . والله - سبحانه وتعالى - يأمر الناس باتباع الطريق القويم والصراط المستقيم ، ويبين لعباده أن الصبر الجليل أفضل طريق للإنسان في الدنيا والآخرة :

« فاصبر صبراً جميلاً ، لهم يرونة بعيداً ، ومراء قريباً . »

(الماعرك : ٥)

« وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة . »

(البلد : ١٧)

(١) د. عزت راجح - أصول علم النفس ص ٢٨٨ وما بعدها .

(٢) يروى فرويد أن الكبت هروب من منطقة الوعي إلى منطقة اللا وعي وهو بذلك

غير الصبر لذ الصابر يمشى واهياً بما يكابذه ويحمله في سبيل القرية من الله .

(٣) راجع حقيقة الكبت - بالكتاب .

« وثوابوا بالحق ، وثوابوا بالصبر ، » .

(الصبر : ٣)

يقول الرسول - ﷺ في نصيحة لغلام منها :

« واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرم . . . وأن مع الصبر يسراً (١) . »

والصبر كما يرشدنا إليه على - كرم الله وجهه - هو بمثابة الرأس من الجسد فإذا فارق الرأس الجسد . . فسد الجسد . . كذلك الصبر في الأمور فإذا فارق الصبر الأمر فسدت الأمور (٢) .

أتى رجلاً إلى الرسول - ﷺ فقال : يا نبي الله ذهب مالي . . وسقم جسمي . . فقال ﷺ : لا خير في عبد لا يذهب ماله ، ولا يسقم جسمه ، إن الله تعالى إذا أحب عبداً ابتلاه ، وإذا ابتلاه صبره (٣) .

(١) ذكره السيوطي في تنبيه السافلين ص ١٢٩ و ١٣٠ عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن . . قلت : بلى يا رسول الله قال : احفظ الله يحفظك ، اسخط الله تسخطه أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، فإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جف القلم بما هو كائن له أن الخلق كلهم أرادوا أن يفتكوك بشيء لم يقدره الله أن يقدروا عليه وإذا أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدرُوا عليه ، أحمل الله بالمشكر في اليقين دو أعلم في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً . . وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع الصبر يسراً .

(٢) نفس المرجع .

(٣) نفس المرجع .

فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الدنيا ، وذلك لتثقية قلبه من الشوائب ، وحقل معدن نفسه من الاعتراض ، كما عليه أن يوقن من أن الصبر اختبار يجره الله له ، وامتحان يدخله لمعرفة به درجته ومقامه ، كما عليه أن يثق في أن الله قبل أن يبتليه قد تطف منه . . وأنه تعالى قد دفع عنه من البلاء أكثر مما أصابه ، وعليه أن يحمده على ذلك . . كما يجب أن يقتدى الصابر بالرسول — ﷺ — في صبره على أذى المشركين .

وبذلك يكون الصبر وسيلة ناجعة لعلاج النفس البشرية من آفاتها إذ هو عملية تخلية وتخليية بإرشاد رباني وتوجيه روحاني ، والصبر تخلية من العدوان وسلب لذات النفس الشهوية ، كما أنه تخلية للنفس بالصفح الجميل وعدم رد الأذى ، والبعاد عن الآفات . . وبذلك تتحقق بالصبر الصحة النفسية التي ينشدها كل إنسان .

الفصل الثاني

العلاج بالأضداد

من الطرق العديدة التي استخدمها الطب النفسي الإسلامي في علاج الطالبين العلاج بالأضداد . . . وهي طريقة فريدة تسد المنافذ على هجوم الأمراض والنقائص والآفات النفسية . . . كما أنها في نفس الوقت تعاون على جلب الفضائل والأخلاق القويمة . . .

والطريقة المثل لإستخدام هذا العلاج تظهر في توجيه المريء طالباً إلى السلوك العملي الواجب إتباعه ضد ركون النفس إلى الخلووظ والتكاسل عن القيام بالحقوق وطلب التذلف من الأعباء ، وولوج الأبواب البعيدة ، والمنافذ السهلة التي لا تحتاج إلى كلفة معاناة أو تعب أو عناء . . . ومن هنا يدخل الرياء والكذب . . . وكل ما من شأنه أن يفسد على النفس صحتها ويوقعها فريسة للأمراض . . .

فإنه يتبع أطباء النفس الإسلاميين أسلوباً عملياً في العلاج ، فمثلاً إذا تلبس حل الإنسان أمران ، لا يعرف على الحقيقة أيهما جدير بالإتباع . . . إذ عليه أن يفاضل بين الالتحاق بالدراسات العليا بجامعة أو معهد ليزداد علمه وتعميقه أو يسعى للعمل لتلبية احتياجات بيته وأولاده . . .

ويختار الشخص العادي في الأمر . . . وربما يصيبه الفلق ، ويقتصره الألم ، وتندفع إليه المواجهات ، فهو يميل من ناحية إلى زيادة علمه ليرفع مستواه الأدبي والاجتماعي . . . وهو من ناحية أخرى يريد أن يلبي مطالب أسرته وإحتياجاته

الضرورية من مأكل ومشرب ومسكن . . كما أن عليه أن يسعى لعمل إضافي
يرتق عنه ليزيد دخله وماله . . .

والقاعدة العامة التي يحكم بها الشخص العادي في هذا الأمر أن يرى ما هو
أنفع له وأكثر فائدة عنده . . فيتبعه . . وربما كان ذلك ليس بحق على المدى
البعيد ، وإنما إختياره ثم عن هوى له نفسه . . .

ينصح بعض الأئمة الطالب في هذه الحالة أن ينظر إلى الأمرين نظرة فاحصة
ليبتلى إلى أفضلهما على النفس ، فينتجبه لأنه لا يشغل عليها إلا ما كان حقاً وحسناً (١)
فالنفس تميل دائماً إلى الأخف والأسهل والأيسر ، وتبتعد عن الأشق
والأصعب والأثقل . . .

ولذلك فإن مخالفة حظ من حظوظ (٢) النفس هو الأولى بالإتيان ، لأنه عند
إنجرائها عما يحقق للطالب فائدة أعظم ، ونتيجة أثمر . . .

وليس معنى إتخاذنا موقفاً محدداً ضد حظوظ النفس يصلح لكل حالة ، إنما
ذلك تأييداً لقاعدة إسلامية أساسها أن النفس لا تصدق . . ومع ذلك فلا بد
أن تتخذ الوسيلة العلاجية حسب ظروف كل طالب وشخصيته ، وعلمه وماله ، فما
يصلح لطالب ربما لا يصلح لطالب آخر . . إلا أن الأصل في العلاج بالاعتدال
واحد . . إذ أنه لا بد من معيار يتبعه الطبيب ، ولو أن لكل مرض دواء ، ولكل
مريض ما يناسبه من علاج لتحقيق الشفاء . . .

والطبيب البشري لا يستطيع أن يعالج المريض بالسحرنة إلا إذا عرف درجة

(١) الصنوبري - شرح الحكم العطائية ص : ٨٢ وما بعدها .

(٢) الإمام أبي حامد الغزالي - إحياء علوم الدين ج ٨ ص ١٤٤٨ .

حرارته ويخلص ماله بدنه ، كما أن عليه أن يعرف بيئته وعمله .. فلربما إرتفاع
حرارته أو انخفاضها وارجع إلى طبيعة صناعته ، أو مناخ بيئته ، أو تواجده
اجتماعية ...

وبالمثل بالنسبة للعلاج النفسي ، فلا يتمركز على فرد واحد من العلاج أو على
نوع واحد من الرياضه النفسية ، يعمم على كل طائفي العلاج .. فلربما لا يوسع
المعالج طريقته مميذا كان من أسبابه أن تلفت نفسيه الطالب ومالك في نفسه الرغبة
في الصفاء وذلك من كثرة الأوامر والنواهي .. إذ يجب أن ينظر المعالج إلى
سالم المريض ، وسنه ، ومزاجه ، وعمله .. وما يمكن أن يحتمله ، وما لا يحتمله
من تجاوب .. وهذا من بقدراته وإستعداداته فهل أن يبدأ في العلاج (١) ..
ويستخدم بعض الأنظمة مقياس آخر لطالب العلاج . فمثلا في المثال الذي سقناه
ينصح الطالب أن يضع نفسه في حال الموت .. ثم يتساءل :

أي من الأمرين أفضل معاداة له : . عندما يكون بين يدي الله ؟ ...

أو ما الذي يسعده أن يقبل به على الله ؟ ...

طلب زيادة في العلم ... أم ... الزيادة في المال ؟ ...

فإذا وجد أن ما يسعده عند ملاقاته الله هو زيادة في العلم ، فلا شك أن إختياره
هو العمل الصالح .. وهو الحق الواجب الإلزام .. وليس هذا إلا امتحانا
هيرا النفس ، يكشف عن باطنها ، ويظهر حقيقتها ، ولا يحتاج هذا الأمر إلى
طول تأمل ، أو كثرة تفكير .. إذ أنه ضد الهوى النفسي لحجب ...

والإنسان لا يصدر حكما في هذه الحالة باطلا .. وإنما هو يهتدى إلى العمل

الصالح الذي لا رياء فيه ، والخالص من شوائب المادة .. لأنه في موقف يقتضي
فصر الأمل في الدنيا وزخارفها وزينتها ، لذلك فالمرقب الذي يختاره في هذه
الحالة هو أصل حسن العمل .. في الدنيا والآخرة ...

والنفس كطبيعة لا تصدق في طلبها ، وإنما غايتها أن تحقق ما فيه لذتها ، وما
يستجلب — في زعمها — منافعتها .. لذلك ، فإن العمل بضد هواها هو الطريق
إلى الصحة النفسية ...

وإذا مثلنا النفس بالطفل الصغير .. فإنه إذا لم يؤدب ، ويخالف في طلب ما
يظن أن فيه لذته .. اعتاد إلى أهوائه .. وأفقد نفسه من حيث يظن أنه يعمل
خيرها ، ولذلك فإن المربي يلزمه بأمور عليه أن يتبعها مع علمه أنه يهتق عليه
القيام بها ، وربما بكى الطفل وقام ما أمر بإتياعه .. لكنه عندما يبلغ مبلغ الرجال
يتبين له أن ما أمره المربي به كان لنفعه وصالحه ...

ولذلك وجب على الطالب أن يعرف نفسه ، ويسعى للمحافظة عليها ، ولا يتم
له ذلك بإغصاع حظوظها ولذاتها فحسب ، وإنما بزيادة صفاتها وجلالاتها ، وسد
أبواب النقص الذي تعانيه .. فبحالجمها من الجهل بمزيد من التعلم ، ومن الكبر
بالتواضع ، ومن الانانية بالإيثار والتضحية ، ومن حب العدوان والقساح ،
ومن الشره بالتعفف ، ومن البخل بالكرم والسخاء ...

وعليه أن يتجمل بخالفة طلبات النفس ، ويسعى إلى الدواء الشافي ، فيأخذه
وغم مرارته من أجل إصلاح نفسه ، ويصبر على تجنب الشهوات ليسمو على
المطالب النفسية الرائدة ...

وهذا العلاج النفسي عن طريق اتباع المضادات لطلب النفس ، ليس سلوكاً عملياً
صالحاً من أجل الصحة النفسية في الدنيا فحسب .. بل أنه يتهدي ذلك إلى الحياة الآخرة

فريض الجسم إذا لم يعالج من أمراضه وأسقامه .. فلا شك أنه سينخلص
من مرضه بالموت .. فهما استمرار المرضي ، فسبأته الموت أن عاجلاً أو آجلاً ..
لينجسه من أوجاعه .. وآلامه ..

أما مريض النفس ، فإن مرضه يدوم بعد الموت ، لأن نفسه لا تترك الجسد
الجسم وإنما تبقى على حالها من الضعة أو المرض .. وهذا هو العذاب المقيم .

ومن غرائب السلوك الانساني ، أن الناس إذا بصحت بالنحل عن الأعمال
الفاسدة والنحل بالاخلاق الصالحة . واعتكلت للأمر كرهاً منها فإنما تسرع إلى
نوافل الخير من صيام وقيام ، ومن ناحية أخرى تتكاسل عن القيام بالحقوق
الواجبة ، والسنن المقررة ، والتي لم تؤديها ، كدفع ظلم شاركت فيه ، أو إتمام
عمل لم تستولي به ، أو استيفاء دين لم تؤديه .. أو فرض لم تقم به .

والنفس الذي هذا حالها .. تقبل على كل عمل خفيف ، وتتكاسل عن كل عمل
تراه ثقيلاً .. وهي تستهدف من ذلك الظهور أمام الناس بحسب يظهر التكامل ،
ليحسب إياها الفضل والعلم والتقوى والورع .. وتذكر عند هم بالطيبة
والصلاح ..

فالنفس في بداية توبتها تلمس الأصول ، وتطمع بالمظاهر والوخاصات والأشكال
والرسوم ، وإذا ظنت أن إتيان الفضائل أهم من الفرائض والواجبات ، فهي
مخدوعة ، حيث تظن الصديق ، مردودة حيث تأمل القريب .

واقه تعالى عائق النفس الانسانية ، طام بسرها وجهرها ، كما ذكر في كتابه
الذكريم ، فن طبعها الميل إلى القسوف في العبادات والرغبة في تأجيل استيفاء
الحقوق ، ولذلك ألزمها — سبحانه — بطاعته ، وصاحبه لها ، وأمرها بتأدية
الفرائض والحقوق في مواعيت حددتها تعالي ، خوفاً من تعذرها وأسرها ..

ولو لم يفعل ذلك تعالى ، لهلك كثير من الخلق بارتكابهم إلى أهواء النفس ..
واسيائهم ، وتذللهم عن تأدية ما فرضه تعالى من الواجبات والتكاليف .. وهذا
من حكمة الله .. العليم الخبير ...

فهم لا يحتاجون إلى التخويف .. والترهيب .. والتعذيب .. لسيرهم في طاعة
الله ، ولا إشراق قلوبهم بنور المحبة الإلهية .. فهم يؤدون الواجبات ، ويقومون
بالفرائض والتكاليف بنفس راضية ، وقلب سليم .. كما أنهم يهديفون إلى ذلك
أعمال البر ، ونوافل الخيرات .. حتى صارت أعمالهم قربات وقربات .

والحب من خصائص النفس الانسانية ، وربما تحب شيئاً وفيه شرها ،
وربما تكره شيئاً وفيه خيرها ، وما أحبت النفس شيئاً إلا وكان صاحبها عبداً له
ينقاد إليه ، ويعمل لأرضائه .. إلا أن الله تعالى لا يحب أن يحب غيره ،
ولا يرضى عن الغافل منه ، الذي غرته الأمان ، وغره بالله الغرور ، وفي ذلك
يقول الجنيد (١) :

إليك لن تكون على الحقيقة عبد الله .. وفيك شيء ما زال مُسْتَرَق (عابد)
لغيره وإليك لن تصل إلى الحرية ، وهليك حقوق الله في عبوديتك ، فالمدِين مدِيناً
ما بقي عليه درهم .. وعبة الشيء تلزمه العبودية له .. فاجعل محبتك عالصة لمن
تلزمك عبوديته ...

الفصل الثامن

علاج ظلم النفس

أصل الظلم .. وضع الشيء في غير موضعه .. ومنه ظلمه (١) .. أى نسبه إلى الظلم ، والظالم هو كثير الظلم .. ويقال لمن جنح عن الحق وانحرف عن العدل وبغى واعتز أنه ظلم نفسه .. أى جهل صالحها .. وأبعدها عن طريق النور .. وأردى بها إلى طريق التهلكة والضلالة .

والنفس لجيلة فيما تميل إلى الهوى ، فهي عدو يحتاج إلى التربية والتأديب ولا يصدق الإنسان حتى تصدق نفسه ، ولا تصدق النفس إلا بمعرفتها ، ولا يمكن معرفتها إلا بامتحانها .. واختبارها .. ثم محاسبتها .. والاعتراض على أحوالها واتهامها في أفعالها ونياتها (٢) .

وإذا عرفت نفسك فقد عرفت عدوك الذى بداخلك .. وهذا يمكن أن تحذرها وتفقدوها لأنها أمارة بالسوء (٣) ، متبعة للهوى ، ظالمة ظلومة .

والذى يعرف نفسه ، فإنه يكشف عن حيلها وفنونها في الخواية والرياء والكذب والتناق ، فالنفس أنانية بطبعها ، تحب التملك والسيطرة والسطوة على الآخرين ، فإذا لم يتمكن من ترويضها فإنها تتعسف فيما تظنه من حقها ، وذلك بهدف الإضرار بالآخرين ، والاعتداء عليهم ..

(١) مختار الصحاح ص ٤٠٥ وكذلك المعجم الوسيط ص ٨٣ الجزء ٢ .

(٢) الشريعة والحقيقة — « جيلات النفس » .

(٣) المحاسبي ، الرعاية ص ٣٦٦ وما بعدها .

وأقبح أنواع ظلم النفس ، الشرك الأكبر ، وهو الكفر بالله ، والإلحاد
بالمخالق عز وجل ، وهذا وارد في نصيحة لقمان عليه السلام لولده على
لسانه تعالى :

« يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم » .

(لقمان : ١٣)

وكذلك في قوله تعالى :

« يا قوم إنكم ظالمتم أنفسكم بإتحادكم المعجل » .

(البقرة : ٥٤)

(البقرة : ٢٥٤)

« والكافرون هم الظالمون » .

كما أن ظلم النفس هو كذبها وتناقضها ورياقها ، وهو الشرك الأصغر ، فـ
تسليمها ظاهراً بالإله رباً .. والمخلوق عبداً .. يبقى في النفس ضرورها بالله
وكبرها ، واستعلاؤها على الناس :

« ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن
الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً » .

(الكهف : ٢٥ ، ٢٦)

وهذا الظالم يحسن الظن بنفسه (١) ، ويعتقد مرهواً أن ما أعطاه الله هو حق
مكتسب له في الدنيا والآخرة ، وإن انتهى مقامه في الدنيا فسيستمر هذا العطاء له
في الآخرة ، وهذا منتهى الغرور والإلحان ، والأمانى الكاذبة التي يظنها
الظالمون ..

(١) المحاسبي — الرعاية ص ٣٦٦ وما بعدها .

« إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً .. »

(فاطر : ٤٠)

الظالم إذن .. ادعاء وغفلة ورياء ، والظالم لا يفلح في ادعائه ، ويخيب أبدأ فيه مسعاه إن أجلاً أو عاجلاً ، فإذا استمر الظالم ، فلن ينصالح له حال ، فبهذا أبدأ ظالم لنفسه .. أما إذا تاب وأناب واختار طريق الحق ، وابتعد عن الغرور والغفلة والنسيان .. فإن الله غفور رحيم .

كما أن من ظلم النفس .. الاقتراء .. والكذب ، وما يزال العبد يكذب ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً ، والكذاب يدعى ما ليس له ، وينسب لنفسه الصفات المسلوقة عنها ، والفضائل التي لا تتصل بها ، كل ذلك ليذكر عند الناس بها زهواً وكبراً وتعالياً ، وهذا من ظلمة النفس وجهالتها :
« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .. »

(المائدة : ٤٥)

« إنه لا يفلح الظالمون .. »

(الأنعام : ٢١)

« فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات .. »

(فاطر : ٢٢)

ويمكن تقسيم العباد بحسب ما ورد عن الله تعالى إلى أنواع ثلاثة :

١ — ظالم لنفسه :

وهو الذي تعدى حدود الله أما بالشرك الأكبر أو الشرك الأصغر ..

— عادل معها :

أى مقصد . . لم يسرف في السيئات ، ولم يكثُر في الحسنات .

٢ — سابق الى أعمال البر والتحر والاحسان :

وهو الذى غلب هوى النفس ، ولم يتبعها في ظلمها ، وإنما خالفها
واتبع الحق .

والظالم لنفسه يستطيع أن يتوب من ظلمه وينتصر على نفسه بالامارة ، بعدم
طاعته لظلمها ، وتجنب غفلته وضلاله ، فإذا فعل ذلك فإن الله يتوب عليه :
« فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » .

(المائدة : ٢٩)

وليس ظلم النفس موقف حتمي وقسري ، كما يدعى أصحاب التحول النفسى -
وليس هناك ما يسمى حتمية نفسية ، أو أفعال قسرية لا يستطيع الإنسان
ضها فككا .

فالإنسان — كما بين الله تعالى — يختار طريقة بعد أن أعلمه الله بالصراط
المستقيم ، والحق الواجب الاتباع ، وإنما أن يختار طريق الاستقامة وإما يظلم
نفسه فيختار طريق الغواية والضلالة .

والله لا يظلم أحداً ، ولكن الإنسان يظلم نفسه باتباع الشر ، وموافقة
الشهوات ، ومقارفة الرذائل :

« وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون » .

(آل عمران : ١١٧)

(النساء : ٤٠)

« إن الله لا يظلم مثقال ذرة » .

والدليل الذى لا سراء فيه أن ظلم النفس موقف اختياري ، أن باب التوبة مفتوح أمام الخطائين ، وأن الظالم إذا عدل عن أفعاله الآثمة ، فإن الله غفور رحيم :

« ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر ، يمد الله غفوراً رحيماً . »

(النساء : ١١٠)

فإنه واسع المغفرة ، يتوب عن العاصي والظالم ، بل يتوب عن المشرك إذا رجع عن شركه ، وتاب عن ظلمه لنفسه ، كما أنه تعالى يغفر الذى أمدى حدود الله والذى يأكل مال الناس ، والذى يعتدى على الآخرين ، والذى يغتر كبراً واستعلاء ، والكذاب الدهي ، ومرتكب الفواحش والسيئات ، والغافل عن طاعة الله .. كل هؤلاء جميعاً يغفر الله لهم ما داموا قد رجعوا عن ظلمهم لأنفسهم :

« وإن تبتم فلمن رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون . »

(البقرة : ٢٧٩)

« واضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً . »

(الانبياء : ٤٧)

فإذا رجع الظالم عن ظلمه ، فإنه يكون كما ولدته أمه ، نقياً .. نقياً .. ظاهراً .. آمناً .. مطمئناً :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن . »

(الانعام : ٨٢)

أما الذي يظلم نفسه ، ، ويضيع ماله ، ، ويأكل أموال الناس ، ، فإنه يحيا حياته في خوف وفزع وقلق واضطراب ، ، وبحسب أنه ناج وهو مردود حيث يظن القرب ضائع حيث يظن النجاة ، ،

و فأنزلنا على الذين ظلموا زجراً من السماء ، ،

(البقرة : ٥٩)

« إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، ، في بطونهم ناراً ، ،

(النساء : ١٠)

خاتمة

وبعد .. ما أخرجنا الآن إلى نشر الفكر الإسلامى فى مناحى الحياة المختلفة
أقد استطاع من قبل .. وسيستطيع فى كل وقت وحين أن يثبت أنه الفكر
الرائد .. الصالح للتطبيق ، المواكب لفطرة المخلقة .. والعقل الرشيد ..
والقلب السليم ..

والقرآن الكريم زاد المؤمن وعدته وعتاده .. يعرفه بنفسه وربه .. ويغذيه
بما يحتاج إليه فى رحلة الحياة ، وعندما تتحدث آياته البينات عن الكون ونظامه
والخلق وكأله ، والطبيعة وأمرارها ، يشعر الإنسان الصادق أن الحق تعالى لم يدخل
عليه بالمعارف التى تضيء له نور الحياة .. كما أنه تعالى يحثه على التأمل والنظر ..
ويبين له أن العمل الصالح جهاد يثاب عليه فى الدنيا والآخرة ..

والحق تعالى يوضح للإنسان من هو على الحقيقة .. تكويناً وعلماً وتركيباً
وما أودع فيه من مواهب .. وما نفخ فيه من روح .. وما سلط عليه من قوى
شيطانية .. وما تتضمن جهلته من ضعف وبخل وشهوات وحب للدس والرياء :
« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً »

(الإنسان : ١)

(الرحمن : ٣ ، ٤)

« خلق الإنسان ، عليه البيان » .

(العلق : ٥)

« علم الإنسان ما لم يعلم » .

(السجدة : ٧)

« وبدأ خلق الإنسان من طين » .

(السجدة : ٦)

« ثم سواه ونفخ فيه من روحه » .

« لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » . (الشين : ٤)
 « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن ، وأما
 إذا ابتلاه فقدور عليه رزقه فيقول ربي أهانن ، (الفجر : ١٥ : ١٦)

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » . (ق : ١٦)

« كلا إن الإنسان ليطغى » (العلق : ٦)

« ويدع الإنسان بالشر دطاه بالخير » . (الإسراء : ١١)

« الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » . (الماعون : ٦)

ثم يبين الحق تعالى للإنسان بعد أن عرفه حقيقة نفسه .. ما هو الطريق
 الواجب الاتباع .. وما هو السبيل لقربة من الله .. ليحظى بنعيم الدنيا
 والآخرة ، فينبه مسئولته ، ويوصيه بالابتعاد عن غواية الشيطان ، وأن لا يسأم
 من أعمال البر والخير .. وأن كيد الشيطان ضعيف :

« وأن ايس للإنسان إلا ما سعى » . (النجم : ٢٩)

« وكل إنسان ألؤمه طائره في خلقه » . (الإسراء : ١٣)

« إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » . (فاطر : ٦)

« إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا » . (الإسراء : ٢٥)

« لا يسأم الإنسان من دعاء الخير » . (فصلت : ٤٩)

« إن كيد الشيطان كان ضعيفا » . (النساء : ٧٦)

ويوضح لنا تعالى أنه بالخير الفاضل يكون توجهنا إليه .. وبالفطرة السليمة
 التي خلقتنا عليها دون تكلف أو رياء .. وهذا مقتضى العدل الذي لا إسراف
 فيه ولا تقتير .. فكما أن النظام الكوني .. والناموس الإلهي لا يقبلان الفوضى

إذ يسيران على صراط مستقيم .. كذلك يجب أن يكون الإنسان حق يبلغ كماله وأمنه .. ونعيمه .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً .. » (البقرة : ١٤٣)

« ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً .. »

(الاسراء : ١١٠)

« ولا تصغر نفسك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً .. »

(لقمان : ١٨)

« والتوبة ميلاد جديد .. إذا نأى نفس ما قبأها ، وتمسح السيئات ، بل إن الله يشب التائب ويعظم أجره ويدخله جناته : »

« إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب .. »

(النساء : ١٧)

« وأن استغفروا وبكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً .. »

(هود : ٣)

« ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً .. »

(الطلاق : ٥)

« ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار .. »

(الفتح : ٥)

« هكذا يعرفنا تعالى بأنفسنا .. وينظم لنا واجباتنا نحوها ، ويعطينا طريق

معالجتنا لأمراض القلب .. وهو العالم بالنفس وضعفها .. وشرورها وبخلها .

لذلك بين للإنسان كيف تكون علاقته الاجتماعية بالآخرين .. فيشرع له

فواعد ينبغي أن يتبعها لتقوية الصلات بين الأرحام .. والأزواج .. والأبناء
والآباء .. والأخوة في الإسلام .. ولتدعم الروابط الاجتماعية بين الإنسان
والإنسان .. وذلك كله في آيات وسجرات .. تؤسس لنا علماً
اجتماعياً فريداً :

« ادفع بالتي هي أحسن .. فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .
(فصلت : ٤٣)

« ولا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى ، كالأذى ينفق ماله رئاء الناس » .
(البقرة : ٢٦٤)

« وبالوالدين إحساناً فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً » .
(الإسراء : ٢٣)

« وقولوا للناس حسناً » .
(البقرة : ٨٣)

« قاصص الصنع الجميل » .
(الحجر : ٨٥)

« قاضوا وأصفوا » .
(البقرة : ١٠٩)

« وإذا قلتم فاعدوا .. ولو كان ذا قربى » .
(الأنعام : ١٥٢)

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساداً في الأرض كأنما قتل الناس جميعاً ، ومن
أحياها كأنما أحيا الناس جميعاً » .
(المائدة : ٣٢)

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض » .

(النساء : ٣٤)

ولا يحتاج الإنسان عندما يأخذ بالشريعة الإسلامية إلى التفكير في وضع قوانين جديدة ، ولا إلى صياغة دساتير أو تقنين أحكام ولا إنشاء قواعد أخلاقية . فالقانون الإلهي كاف بنفسه .. جامع .. شامل .. واضح صالح للتطبيق في كل زمان ومكان .. ييسر العمل به متى صفت القلوب ، وتطهرت النفوس .. ورجعت العقول .

« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والآنف بالأنف والأذن بالأذن ، واللسن باللسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له .. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .

(المائدة : ٤٥)

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا » .

(المائدة : ٣٨)

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا .. عدلوا هو أقرب للتقوى » .

(المائدة : ٨)

« ومن يعص الله ورسوله ويتمدد حدوده يدخل ثارا خالدا فيها » .

(النساء : ١٤)

« هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » .

(البقر : ٧٦)

ثم أن القرآن الكريم يبين لنا فقه المعاملات فيبيح أن تعامل الناس في تجارة

ويحظر التعامل بالربا الذي يقصد منه زيادة في الأموال بالباطل وهذه الزيادة لا يقبلها الله .. لأنها بغير القسط والعدل والاقتصاد السليم :

« أحل الله البيع وحرم الربا .. » (البقرة : ٢٧٥)

« وما أتيتم من ربا لتربوا فيه أموال الناس فلا يربو عند الله .. »

(الروم : ٢٩)

فإنه تعالى يوضح لنا فساد الاقتصاد القائم على الربا ... لأن المرابي تصبح غايته المال ولذته في جمعه .. كمن قد ملكته غواية الشيطان .. وشهوات النفس .. فانصرف عن العدل :

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس .. » (البقرة : ٢٧٥)

والمؤمن حقاً لا يستسيغ أن يأخذ دينه من أموال الناس أضعافاً مضاعفة لأن المال إذا ترك خاملاً بدون عمل أو تجارة أو بيع أو شراء لا يولد مالا :

« اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين .. »

(البقرة : ٢٧٨)

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل .. »

(النساء : ٢٩)

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة .. »

(آل عمران : ١٣٠)

وبعد .. لقد قدمنا هذا الكتاب كحجارة لتعرف على قطرة في بحر الشريعة الإسلامية التي يمكن أن تشبهها في فهم النفس وعلاجها .. فهما طهيًا ، كما يمكن

أن ترشدنا في القانون والاجتهاد والأخلاق والاقتصاد .. بل وفي الفن أيضاً ..
 وكلنا استحدثنا علماً وظناً أننا اكتشفنا جديداً نجده مسطوراً في التاموس الإلهي
 قد بصراً به تعالى من قبل .. وأرشدنا إليه في آياته المبدعات .

ولسنا في حاجة إذن لنوع أننا نخرج جديداً ونخلق معسوداً ونكذِّف
 علوماً اجتماعية وأخلاقية أو نفسية .. أو نشرع قوانين عادلة لم يذكرها القرآن
 الكريم فنلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ...

وما علينا إلا أن ننظر فيه ونأمل نصوصه ونفسوسه وجواهر علومه ،
 ونطبق ما جاء به نصاً وروحاً .. وسنعمل إذا صفت النفوس . وصدق القول
 وصلت القلوب أنه ليس هناك أصدق من الله حديثاً ...

المراجع العربية

- الشيخ إبراهيم السمرقندي : تنبيه الغافلين
الشيخ ابن القيم الجوزية : الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية
(تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد)

الروح

- الشيخ محي الدين بن عربي : رسائل ابن عربي كتاب إصطلاحات الصوفية
: : : : : مشكاة الأنوار

الشيخ بن عطاء الله السكندري : التوير في إسقاط التدبير

: تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس

: الحكم العطائية

الشيخ أبو الأهل المردودي : مبادئ أساسية أفهم القرآن .

— نظرية الإسلام السياسية .

— الإسلام اليوم

— حقوق أهل الامة في الدولة الإسلامية .

— موجز تاريخ تهديد الدين وإحيائه .

— تفسير سورة النور .

— المصطلحات الأربعة في القرآن .

— شهادة الحق .

— القانون الإسلامي وطرق تنفيذه .

— نظرية الإسلام وهدية .

الشيخ أبو بكر محمد الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف .

- الشيخ أبو بكر بناني : مدارج السلوك إلى مالك الملوك .
 الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية .
 الإمام ابن سهرين : منتخب الكلام في تفسير الأحلام .
 الإمام أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين من ١٣ - ١٦٣ .
 : الكشف والنهي .
 : الجوامع العوام .
 : المنقذ من الضلال .
 : معاشاة القلوب .
 : المصنوعون به على غير أهله .
 : المصنوعون الصغير (المسمى بالأجوبة الغزالية) .
 الشيخ ابن شاهين الظاهري : الإشارات في علم العبارات .
 الإمام أبو طالب المحكي : قوت القلوب ١٣ ، ٢٣ .
 الإمام أبو النصر السراج الطوسي : الجمع ١٣ ، ج ٢ .
 الشيخ أبو سعيد أبي الخير : أسرار التوحيد في مقامات الشيخ سعيد .
 تحقيق إسماعيل عبد الحادي .
 د. أحمد عزت واصل : أصول علم النفس .
 : الأمراض النفسية والعقلية .
 الشيخ أحمد ضياء الدين : جامع الأصول .
 د. أحمد فزاد الأعراني : النوم والارقي ١٣ .
 الحارث المحاسبي : الرماية لحقوق الله (تقديم د. عبد الحليم محمود)
 أرشد جوت : التعليل النفسي (ترجمة د. م. الشليط)
 الحسين الترمذي : كتاب الأكياس .

- الشيخ القبلنجي : نور الأبصار .
 الشيخ المشيخ الشطنوفي : بهجة الأسرار .
 الشيخ المروى : مدارج السالكين .
 المحب الطبري : الرياض النضرة في مناقب العشرة .
 هـ ج إيزبك : الحقيقة والوهم في علم النفس (ترجمة بإشراف
 د يوسف مراد)
 بارتك ملاهي : عقدة أوديب .
 هـ بارودي : المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر ترجمة
 د محمد غلاب .
 الشيخ جمال الدين أبو الذهب : قوانين حكم الاشراف .
 جومثاف لوبون : روح التربية (تعليق د طه حسين)
 روبرت هاربر : التحليل النفسي والعلاج النفسي .
 د رؤوف عبيد : اللسان روح لا جسد .
 سيجموند فرويد : الموجز في التحليل النفسي .
 : تفسير الأحلام ترجمة الأستاذ مصطفى صفوان .
 د. سيد فنيح : سيكولوجية الشخصية .
 د. صبري جرجس : التراث اليهودي المسيوني والفكر الفرويدي .
 الشيخ عبد الغني النابلسي : تعاليم الأئمة في تعبير المنام .
 د عبد الفتاح بركة : الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية ج ١ ، ١٣٠
 الامام عبد القادر الجيلاني : الغيبة .
 الامام عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني والفيض الرحاني .
 : فتوح الغيب .

- الامام عبد الكريم القديري : الرسالة القديرية ١٣ ، ٢٣ .
- : التجهيز في الذكر .
- الشيخ عبد المجيد الشراوي : شرح تائيه السلوك إلى مالك الملوكة .
- الشيخ عبد المجيد النقشبندی : الأنوار القدسية .
- الشيخ عبد الوهاب الشعراني : الطبقات الكبرى ١٣ ، ٢ .
- : الأخلاق المتبوية (تحقيق دكتور منيع عبد الحليم)
- : اليوالميت والجواهر ١٣ ، ٢٣ .
- : السكربت الاحمر .
- : تنبيه المغترين .
- : السكربت الشاهق في الفرق بين المريد الصادق
- (مخطوط) .
- الشيخ حنيف الدين البافسي المكي : روض الرياضين في حكايات الصالحين .
- ك. هوك لندزي : نظريات الهندسية .
- وحيد الدين خان : الدين في مواجهة العلم .
- : حكمة الدين .
- : الاسلام والعصر الحديث .
- : الاسلام يتحدى .
- ابو الحسن الندوي : النبوة والانبيا في ضوء القرآن .
- : نحو التربية الاسلامية الحرة في الحكومات
- والبلاد الاسلامية .
- : تاريخ الفلسفة اليونانية .
- يوسف كرم

مراجع أجنبية

- C. G. Jung : Anthony Stear New York.
- Charles D. Spielberger : Clinical and Community Psychology.
- D. H. Berchardt : How to find out in Philosophy & Psychology.
- D. W. Harding : Social Psychology and Individual values.
- D. W. Theobald : An Introduction To The Philosophy of Science. London.
- Edward Glover : The Birth of The Ego
- H. J. Blackham : Six. Existentialist Thinkers.
- D. Hamberto Nagera : Basic Psychoanalytic Concepts on the Libido Theory.
- " " " : Basic Psychoanalytic Concepts on The Theory of Dreams.
- Jean Piaget : Psychology and Epistemology.
- John Cohen : Homo Psychologicus George Allen & Unwin.
- Mary Warrock : Existentialism opus 52 Oxford University, Press.
- P. Henderson : Disability In Childhood and Youth — Oxford University Press.

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم الدكتور عبد الحليم محمود	١
تقديم الدكتور مصطفى محمود .	٥
مقدمة المؤلف .	ص

الباب الأول

١	أسس علم النفس الاسلامي
٢	الفصل الأول : محنة علم النفس الحديث
١٢	الفصل الثاني : بين علم النفس الاسلامي وعلم النفس الحديث .
٢٨	الفصل الثالث : أ - طبيب النفس الاسلامي .
٢٥	ب - ضرورة الطبيب المربي
٤٧	الفصل الرابع : خصائص النفس
٥٢	الفصل الخامس : الابتلاء تهربية واختبار
٥٩	الفصل السادس : الخواطر

الباب الثاني

٦٧	امراض القلب
٦٩	الفصل الأول : داء الرهاب
٧٥	الفصل الثاني : كلية النطب
٨٢	الفصل الثالث : النفلة والنسيان

٩١	الفصل الرابع : الرساوس
١٠٤	الفصل الخامس : اليأس والقنوط
١٠٨	الفصل السادس : الطمع
١١١	الفصل السابع : الغرور
١٢٠	الفصل الثامن : العجب
١٢٥	الفصل التاسع : الحق والجد

الباب الثالث

١٢٩	الطريق الى الصحة النفسية
١٣٥	الفصل الأول : الوسط العدل .. الخير الفاضل
١٤١	الفصل الثاني : الصنيع الجليل
١٤٩	الفصل الثالث : التوبة ميلاد جديد
١٥٦	الفصل الرابع : العمل الصالح
١٦٢	الفصل الخامس : الرؤيا لا أضغاث أحلام
١٩٠	الفصل السادس : صفة الحكيم
١٩٣	الفصل السابع : ذكر الله
١٩٦	الفصل الثامن : الأمن والأمل
٢٠٠	الفصل التاسع : المحبة
٢١٢	الفصل العاشر : حزن الصادقين
٢٢٠	الفصل الحادي عشر : الاضطراب والافتقار

الصفحة	الموضوع
٢٢٢	الفصل الحادي عشر : محاسبة النفس
٢٢٩	الفصل الثالث عشر : معرفة النفس

الفصل الرابع

٢٢٣	استخدامات علم النفس في المجالات المختلفة
٢٥٠	الفصل الأول : الرياضة النفسية
٢٦٥	الفصل الثاني : التربية النفسية
٢٨٢	الفصل الثالث : الاستعداد
٢٩٨	الفصل الرابع : العلاج بالترجيع
٢٩٧	الفصل الخامس : العلاج بالذكور
٣٠٨	الفصل السادس : العلاج بالصبر
٣١٧	الفصل السابع : العلاج بالأضداد
٣٢٢	الفصل الثامن : علاج ظلم النفس
	الخاتمة :

مطبعة الوادي

شارع ابن زكي أمام ٢٢ - ت ٨٠٨٩٧١

www.bibliotheca-alexandrina.org
Bibliotheca Alexandrina
0272448